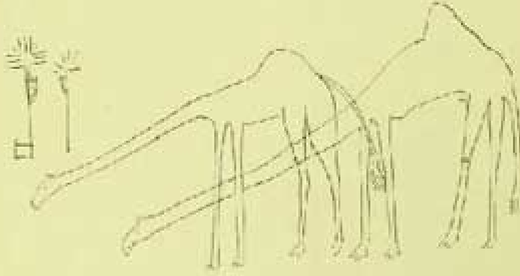
شارل هوبير

رحلة في الجزيرة العربية الوسطى

1878 - 1882

الحماد، الشمر، القصيم، الحجاز







رحلة في الجزيرة العربية الوسطى

تأليف

شارل هوبير



[المدخل]

صورة شارل هوبير بالثياب العربية

مقدمة الناشر

هذا الكتاب هو أول ترجمة عربية لرحلة شارل هوبير (1837- 1884) الاستشكافية الأولى إلى مناطق شمال شبه الجزيرة و ذلك خلال السنوات 1878-1882. حيث عثر على أبرز اكتشاف أثري في المنطقة هو حجر تيماء

نشرت تفاصيل هذه الرحلة التي بدأها هوبير من البصرة في 14 أيّار 1878 في نشرة الجمعية الجغرافية الفرنسية سنة 1884، أثر مصرعه بالقرب من بلدة العلا في 29. تموز من العام نفسه على يد دليله ابن شميلان من شيوخ قبيلة هيثم

أعقب هوبير هذه الرحلة برحلة ثانية الى المنطقة بدأها في حزيران 1883 بهدف تأمين نقل حجر تيماء الى فرنسا، و لمواصلة أبحاثه الأثرية و وضع خرائط للمنطقة بتكليف من الجمعية الجغرافية الفرنسية، و الجمعية الآسيوية و وزارة الإرشاد العام الفرنسية. و خلال الرحلتين أقام هوبير علاقات جيدة مع حاكم المنطقة محمد بن الرشيد، و تبادل معه الهدايا و السيوف، و بدوره قام ابن الرشيد بتأمين حراس و أدلّاء لمساعدة هوبير خلال تجواله.

و بعد مرور سبع سنوات على مصرع هوبير، صدر في باريس سنة 1891، كتاب بعنوان «يوميات رحلة في شبه الجزيرة العربية 1883- 1884» تضمن كتابات هوبير خلال رحلته الثانية، و التي كان أودع قسما منها لدى القنصلية الفرنسية في جدة قبل بضعة أيام من مصرعه. و كانت الكتابات عبارة عن خمسة دفاتر صغيرة الحجم ضمنها هوبير يومياته و انطباعاته، و رسومه للنقوش الحجرية. و أشار نائب القنصل الفرنسي في رسالة الى ظروف مصرع (Fe ?lix de Lostalot)في جدة فيلكس دو لوستالو هوبير فقال إن هوبير غادر جدة مساء 26 تموز 1884 يرافقه خادمه محمود و دليلين. و أن هوبير اغتيل في 29 تموز من قبل الدليلين الذين سجنا الخادم محمود لمدة يومين، إلى أن اغتنم هذا الأخير الفرصة المؤاتية للفرار باتجاه المدينة المنورة، و انتقل بعدها إلى حائل ثم إلى جدة. و بقي جثمان هوبير ملقيا في العراء لمدة يومين، الى ان تم نقله الى جدة حيث دفن. أشرف نائب القنصل الفرنسي في جدة بمساعدة ترجمان من أصل جزائري مقيم في مكة المكرمة يدعى سي عزيز على المفاوضات لاسترجاع أوراق هوبير و حجر تيماء، و كذلك الاقتصاص من القتلة. و قام سي عزيز بالمفاوضات مع ابن الرشيد بشكل سري، ذلك ان هوبير كان يقوم برحلته رغم معارضة السلطات العثمانية التي كان ابن الرشيد متحالفا معها. و يعتقد ان ابن الرشيد هو الذي كلف ابن شميلان بقتل هوبير خارج حدود إمارته في بلدة العلا.

و خلال مرحلة المفاوضات مع ابن الرشيد وصل الى جدة المستشرق الهولندي كريستيان

الذي كان ينوي السفر (ChriStian Snouch Hurgronje)سنوك هيروغرونيه سرا الى مكة المكرمة بهدف انجاز اطروحة حول المجتمع المكي و قام هيروغرونيه خلال وجوده في جدة بترجمة بعض الرسائل لصالح القنصلية الفرنسية، و بدوره قام عن المساعي (Julius Euting)بإبلاغ صديقه المستشرق الألماني جوليوس أوتينغ الفرنسية لاستعادة حجر تيماء.

و الجدير بالذكر ان أو تينغ كان برفقة هوبير في تيماء عند ما قاما سوية بشراء الحجر و ارساله الى حائل بعد ان قاما بنقل النص المحفور عليه. و تطورت الأمور فيما بعد عند ما التقى هيروغرونيه في مكة المكرمة بسي عزيز الذي أخبره بمراحل المفاوضات مع ابن الرشيد و قد حاول سي عزيز الحصول من هيروغرونيه على مبلغ يفوق الخمسة آلاف فرنك فرنسي الذي وعد به من قبل القنصلية الفرنسية في حال انجاز المفاوضات بنجاح.

و نتيجة شكوك القنصل الفرنسي من أن يكون هيرو غرونيه يعمل مع الألمان في (Le TemPS)»بهدف الحصول على حجر تيماء، قام بنشر مقال في جريدة «الوقت باريس في الخامس من تموز 1884 وصف فيه الأيام الأخيرة لشارل هوبير، و اتهم هيرو غرونيه المقيم في مكة المكرمة سرا تحت اسم عبد الغفار بالسعي للحصول على حجر تيماء لصالح أوتينغ الموجود في دمشق. و قد ترجم هذا المقال الى العربية و التركية، و على الفور أرسل قائمقام مكة المكرمة بعض الجنود الى هيروغرونيه حيث أمر بمغادرة المدينة خلال بضعة ساعات، و بالفعل تم ترحيله برفقة الجنود الى جدة.

هكذا تم افشال محاولة الألمان الحصول على حجر تيماء. و بعد حوالي العام على مصرع هوبير تم الحصول على الحجر و أرسل الى باريس حيث يعرض حاليا في متحف اللوفر.

ان هذا الحجر الذي يعود تاريخه الى القرن الخامس قبل الميلاد، و الذي يعود الفضل في اكتشافه الى هوبير، يعتبر من أبرز الاكتشافات الأثرية في شبه الجزيرة العربية خلال القرن التاسع عشر. و يظهر هذا الحجر الذي حفر باللغة الارامية أحد الكهنة الذي استقدم إلها جديدا الى تيماء، فأنشأ لهيكل الأله المعبود وقفا، و قد مثل الاله في زي أشوري، و ظهر في أسفل الرسم رسم الكاهن الذي شيد النصب.

أن المعلومات و الانطباعات التي سجلها هوبير خلال رحلته الأولى في شمال شبه الجزيرة العربية و التي نقدمها في هذه الترجمة، هي على درجة كبيرة من الأهمية بحيث إنها تعتبر بالاضافة الى سلسلة الأبحاث التي قام بها الرحالة الأوروبيون في المنطقة خلال القرن التاسع عشر أمثال و ليم بالغريف، و اروليخ سيتزن، جورج والين، الليدي آن بلنت، و لويس بوركهاردت، و شارل دوتي و غيرهم من أبرز النصوص التي تصف منطقة شمال شبه الجزيرة العربية خلال النصف الاخير من القرن التاسع عشر.

تنبيه الناشرين الفرنسيين [*]

في 29 تموز 1884، قضى الرحّالة المقدام الذي ننشر له اليوم بيانات رحلاته و مفكراته اغتيالا. فمنذ عام 1874، و ما ان بلغ السابعة و الثلاثين من العمر، حتى وقع اختيار شارل هوبير المدفوع بشغف الاستكشافات الجغرافية على الجزيرة العربية. و كان قد قام برحلة استكشافية أولى من 1878 الى 1882 دونت نتائجها في نشرة الجمعية الجغرافية[1].

(Le BulleTin de la Societe de Geographie)

ما شاهده في هذه الرحلة أثار فيه رغبة جامحة بإعادة الكرة. كان نقش تيماء . بوجه خاص، الذي اكتشفه منذ عام 1880، يقضّ مضجعه. و في حزيران 1883، انطلق من جديد برعاية وزارة التربية العامة و أكاديمية النقوش و الآداب و الجمعية الجغرافية، فتوقّف فترة في دمشق، و زار حائل مجددا و حصل على حجر تيماء ثم انكفأ الى جدّة واثقا من كنزه هذه المرة.

وحدها رسالة من السيد دولوستالو، قنصل فرنسا في جدّة [2] تعطينا بعض التفاصيل عن النهاية الغامضة التي وضعت حدا لمجرى هذه الحياة التي كان مبدأها الطاغي الجرأة البالغة حدّ المجازفة.

اغتيل السيد هوبير في 29 تموز 1884 خلال رحلة علمية على أيدي المرشدين» اللذين اختارهما للاستدلال على الطريق.

و قد شكلت الرغبة في الاستيلاء على اسلحة الضحية و أغراضه الثمينة دافع الجريمة.

كان هوبير قد غادر جدة في ليل 26 الى 27 تموز برفقة خادمه محمود و دليليه. و كان محمود يتبع الطريق و يقود الجمال المحمّلة بالأمتعة بينما يبتعد السيد هوبير و مرشداه باستمرار عن الطريق تارة الى اليمين و تارة الى اليسار، إمّا لتدوين بعض الكتابات القديمة أو لنقل رسم او لتسجيل ملاحظة علمية. ثم يتم اللقاء في المنطقة المحددة للتوقف لتناول بعض الطعام و أخذ قسط من الراحة. و انقضى يوما 27 و 28 تموز بلا عائق.

(*) مقدمة كتاب" يوميات رحلة في شبه الجزيرة العربية" الذي صدر في باريس سنة 1891 و تضمن ما خلفه شارل هوبير من ملاحظات و كتابات و رسوم. و قد رأينا ترجمتها لما فيها من معلومات مفيدة للقارىء.
[الناشر].

(1) الفصل الثالث لعام 1884، ص 289- 363 468- 531

راجع ف. برجيه" الجزيرة العربية قبل النبي محمد بالإستناد إلى النقوش" باريس، 1885، ص 22- 23

(2) المذكرة الوحيدة التي نشرت عن هوبير وردت في رأس كتالوج بيع مكتبته الذي صدر عام 1885 في ستر سبورغ عند المكتبي بيغان. و تتضمن بعض النسخ من هذا المنشور و صورة ليتوغرافية لهوبير.

في التاسع و العشرين، ولدى وصول محمود الى محطة الاستراحة، وجد الجميع في المكان و رأى المرشدين يؤديان الصلاة و السيد هوبير ممددا على مسافة قريبة تحت معطف عربي. فاعتقد ان سيّده نائم و شرع ينزل حمولة الجمال. فجأة شعر بندقيتين مصوّبتين الى صدره و سمع صوت أحد المرشدين يقول له: «حذار، إلق سلاحك و إلّا عاملناك كسيّدك ههنا لدى أدنى حركة عدائية». فنظر و رأى السيد شارل هوبير ممددا على الجانب الايسر بينما كامل الجانب الأيمن من الرأس مدمّى، لكن الوجه هادىء و مرتاح و كأنه نائم. من المرجّع ان تكون طلقة مسدّس أطلقت من مسافة قريبة جدا فيما هو نائم، هي التي حتّمت الموت.

بقي محمود أسير المجرمين مدة يومين ثم تمكن من الفرار. فتوجّه الى المدينة ثم الى حائل و عاد أخيرا الى جدّة ليضع نفسه بتصرّف نيابة القنصلية الفرنسية المكلّفة بمتابعة انزال العقوبة بالمجرمين. و هو لا يزال فيها.»

بقيت جثّة السيد شارل هوبير معرّضة للهواء بضعة أيام و قيل ان بعض المارة حفروا أخيرا حفرة و دفنوه فيها.

و بعناية جديرة بخالص الثناء، تسلّم السيد دو لوستالو ذخيرة الميت. و بعد سنة و في خضم صعوبات جمة تمّ التغلّب عليها بالاصرار على العمل و بالرغم من نقص لا يصدّق في الامكانيات، سلّم السيد دو لوستالو وزير التربية العامة حجر تيماء الجديد بأن يقارن من حيث قدمه و أهميته بنصف ميشا [1]. و عند ما درست لجنة Corpus inscriptionum semiticarum و أمين عام الجمعية الجغرافية الملاحظات، فقد أقرّوا أهميتها البالغة حتى بعد نشر عدد كبير من النصوص النقوشية المدوّنة فيها [2]. و بالفعل، لا يتناول هذا النشر سوى جزء من النقوش النبطية، أما النقوش من النوع الصفيتي (Safai ?tique) فلم تمسّ، كما و ان الناحية الجغرافية من العمل تحتفظ بكامل جدّتها. مما حدا بالجمعية الآسيوية و الجمعية الجغرافية ان تتولى طباعة هذه المفكرات. و قد قامت المطبعة الوطنية و وزارة التربية العامة بسخائهما المعهود بتسهيل مشروع لا اعتبار فيه إلّا للمصلحة العلمية.

الى ذلك، كانت مهمتنا محدّدة بوضوح، اذ كان المطلوب منا ان نعيد نشر الدفاتر الصغيرة الخمسة التي وضعت بين أيدينا كما هي بالضبط. خلال جزء من رحلته الثانية، اصطحب السيد هوبير السيد اوتينغ، و هو عالم يتمتّع بتقدير. فإلى أي مدى امتد تعاون

---

(1),Journal des de ?bats 26 كانون الأول 1884.
(2) أنظر Corpus inscriptionum semiticarum الجزء الثاني، النقوش الآرامية، ص 107 و الصفحات اللاحقة.

السيد اوتينغ في المفكرات التي ننشرها؟ هذا ما لم يكن في وسعنا تقصيه. اننا لا نكفل سوى أمر واحد، و هو ان الاشخاص الذين سيستخدمون هذا الكتاب يمكنهم ان يركنوا اليه كما لو انه من مدوّنات هوبير الاصلية. و سيقول السيد اوتينغ، اذا رأى ذلك مناسبا، ما كانت حصته في العمل المشترك. لقد كانت رشمات النقوش النبطية بحوزته. بالاستناد الى هذه الرشمات [1]. و إذ Nabatoeische Inschriftenو قد نشر كتابه Corpus inscriptionumرغب السيد دوفوغيه، مفوّض الجزء الارامي من ال semiticarum استخدام هذه الوثائق الثمينة لإنجاز الملزمة المقبلة، فقد سارع السيد اوتينغ الى ارسالها لنا و من دواعي سرورنا ان نشكره على ذلك.

في تنفيذ عملنا بالتحديد، و اجهتنا صعوبات مع كل خطوة. فالسيد هوبير لم يكن فقيها لغويا بالمهنة. و في نقل الكتابات لم يكن مصرّا على التوافق مع نفسه دائما. و أخيرا، أفسحت الصياغة المستعجلة للمفكرات المجال للكثير من التردّد. فإذا لم نأخذ بعين الاعتبار سوى انتظام الخط، و تماثل لون الحبر و العناية التي رسمت بها الرسمات و كتبت بها النقوش، لحملنا ذلك على الاعتقاد بان السيد هوبير استفاد من احدى إقاماته في حائل او في جدة لكتابة يومياته. و في الواقع، لا يبدو انه بامكان مسافر ايجاد ترتيب ملائم لتنفيذ أعمال بهذا الوضوح خلال تجواله في مناطق صحراوية. و لكن لا مجال للشك، فقد وضعت المفكرات بالشكل النهائي يوما بيوم تقريبا. و هذا ما يحرص المؤلف على ذكره في مناسبات مختلفة. و إذا اعترف أحيانا بتأخره بضعة أيام في عمله، بدا و كأنه يعتذر لا خلاله بالبرنامج الذي خطّه لنفسه. من جهة أخرى، يصرّح قطعا بان مفكراته الخمس قد أرسلت الى باريس في 27 حزيران 1884 من مرفأ جده الذي وصل اليه في 20 من الشهر نفسه، مما يجعل فرضية صياغة يوميات رحلته في هذه المدينة أمرا مستحيلا عاما.

ان الملاحظات السابقة تجيب فكرة تخطر على البال ازاء الكلمات التي تركت مواضعها بيضاء في مخطوطة هوبير. و اننا في الواقع نتساءل كيف ان المؤلف الذي لا يزال موجودا في الموقع و المحاط بمرشديه من سكان البلاد لم يستطع اعادة تركيب اسماء عدة بلدات بالاستعانة بذاكرة الاشخاص الذين يحيطونه. صحيح ان الاسم مكتوب بالرصاص أحيانا، و لكن في الغالب نجد الثغرة كاملة أو يملأها جزء من الكلمة كتب بالحبر. فلو ان

---

(1) اوتينغNabatoeische Inschriften aus Arabian ,Euting برلين 1885. كانت هذه النقوش قد نشرت قبل ذلك بالإستناد إلى رشمات السيد دوتي في Notices et extraits des manuscrits لأكاديمية النقوش و علم الأدب (القسم الثاني، (نشرت في طبعة مستقلة صدرت عام 1887

هوبير كتب مفكراته في نهاية رحلته لجاء التفسير طبيعيا، و لكن بما ان هذا الامر مستبعد بالتأكيد، فلا بد من إيجاد تفسير آخر لهذه الشكوك.

عند ما نرى العناية الدقيقة التي دوّنت بها الملاحظات، و عند ما نجد الاشارات الى محطات التوقف لدقيقتين او ثلاث دقائق، لا يمكننا الاعتقاد بان الاغفالات المشار إليها ناتجة عن اهمال المؤلف. بل يمكن الافتراض بان هوبير كان يأمل بتوظيف المواد التي جمعها و التوسّع في استقرائها. كما يجدر ان ننسب الاهمال الذي يشوب الصياغة لجهة الأسلوب إلى السبب نفسه، و هو إهمال ترك عمدا حتى عند ما كان بالامكان تصحيحه من دون خوف من ارتكاب خطأ.

و مع انه كان متآلفا جدا مع لغة العرب الذين كان يتجوّل بينهم، الا ان إلمام هوبير باللغة الفصحى كان غير كاف. ففي دفتره الاول بدأ يكتب بنفسه اسماء البلدات بالأحرف العربية لكنه سرعان ما اكتشف مساوىء طريقة العمل هذه فقرّر لاحقا ان يسأل السكان الاصليين أنفسهم ليسجّل مباشرة على دفتره املاء الكلمات التي كان يسمع لفظها. الا ان الكتبة البدو الذين استعان بهم لم يكونوا ضليعين بلغتهم. فهم بالتأكيد لا يخطئون في لفظ الاحرف الصامتة التي تختلط بسهولة على الاوروبيين كالقاف و الكاف مثلا، و لكنهم في المقابل، كانوا يرتكبون الخطأ الشائع جدا بين العرب الاميين بحذف اللام في أل التعريف أمام الاحرف الشمسية مكتفين بوضع الشدة على أول حرف صامت في الكلمة.

و يحذفون Prosthe ?tiqueكما كانوا يكثرون و يبالغون في استخدام الألف ال الاحرف الصوتية الطويلة و بالعكس يطيلون بعض الاحرف الصوتية القصيرة.

كان من السهل تصحيح العدد الاكبر من هذه الاخطاء البسيطة و لكن في بعض الاحيان كان من المستحيل اعطاء القراءة الصحيحة. لذا، بدا من المستحسن عدم اخضاع املاء الكتبة البدو لمراجعة صارمة. فمن شأن التصحيح الكبير الايحاء للقارىء بأنه يستطيع التذرّع بطريقة الكتابة المعتمدة في المفكرات لتصحيح الاملاء الوارد عند أحد المؤلفين العرب او عند رحّالة اوروبي آخر. و لكن هذا غير ممكن، اذا لا يجوز تصحيح قواميسنا التي تكتب اسم نبتة صحراوية «ضومران»، و هي نوع من النعناع البري، بحجة ان مفكرات هوبير أوردتها بشكل «ضمران».

كما اننا لم نر من المفيد اخضاع طريقة الكتابات الفرنسية المعتمدة من قبل هوبير لانتظام تام. اذ لم يكن بإمكاننا التأكد من ان تمثيل الهاء في نهاية الكلمة تارة على سبيل المثال، لا يعود الى رغبة الرحّالة في ahأو ال h? eو تارة اخرى بال yوبال تسجيل تنوّع اللفظ الذي كان يسمعه، فتنظيم هذه الاختلافات انه يرى ضرورة في ذلك. هناك بالتأكيد

حالات حيث يلزم التصحيح منذ المقاربة الأولى. فنجد مثلا «أبيث» او «أبيت» محل «أبيض» مكتوبة بالأحرف العربية بدقة. و لكن عند التفكير نتساءل ما اذا كان ذلك يعود لخطأ في اللفظ من النوع الذي نلاحظه في اللهجة الجزائرية حيث غالبا ما يقال «مريته» و ليس «مريضه» بدلا من ان نرى في هذه الشواذات نتيجة للفظ الجرماني للمؤلف. لقد حملنا هذا السبب الى الاحتفاظ بالنقل الذي اعتمده هوبير بالرغم من شوائبه.

و تشمل المفكرات عددا كبيرا من الكلمات العربية المستخدمة تارة محل الكلمة الفرنسية المقابلة (راس، سنة ... الخ)، و تارة أخرى لغياب مرادف و مطابق في لغتنا (نفوذ، هاء).

لم يكن بالامكان استخدام ملاحظات شارل هوبير الفلكية التي لم تحتسب بعد، و التي اعتمد واضع خرائط الشمال الحقيقي في اتجاهها دون مراعاة الميل الزاوي للبوصلة.

أما الارتفاعات (المقاسة بالمضغاط) فقد اعطيت من دون الاخذ بعين الاعتبار الفارق الذي كان سيطرأ عليها بفعل المقارنة مع الملاحظات التي أجريت عند سطح البحر.

لذا، لا يترتب على الجغرافيين اعطاء هذه الخرائط صفة نهائية، و لو تسنّى للرحالة مراجعتها لعدّلها بلا ريب في اكثر من نقطة. إلّا انها كانت ضرورية لفهم يوميات الرحلة و قد وضعها السيد م. ج. هانسن بمنتهى الدقة و العناية.

في الختام، لا بد من شكر المطبعة الوطنية على مساهمتها الكريمة التي منحتنا اياها و على الاهتمام المتأني الذي بذلته في هذا العمل العسير. و راقب السيد فيليب برجيه تنفيذ الصور طبق الاصل بنظرة الباليوغرافي الماهر. و أخيرا راجع السيد م. و. هوداس، الاستاذ في مدرسة اللغات الشرقية، النسخ بصفته مستعربا متمرسا. فإذا حظي هذا الكتاب كما نأمل ذلك، بموافقة المحكمين المختصين، فإننا نطلب منهم ان ينسبوا الجدارة الى هؤلاء المعاونين الممتازين و بالأخص الى الاخير الذي أخذ على عاتقه المهمة الاكثر صعوبة و أنجزها على أكمل وجه.

أرنست رينان باربيه دومينار ك. مونوار

منذ بداية تكليفي بمهمة علمية في الجزيرة العربية في عام 1878، اصطدمت بعقبات أخرتني و بصعوبات أشرت إليها في تقريري إلى سيادة الوزير.

فقد اجهضت المحاولة الأولى للوصول إلى الجوف مع الشيخ محمد طوخي بسبب ثورة الدروز، و الاتفاق الذي عقدته من ثم مع سطام بن شعلان، شيخ الرولة لم يسفر عن نتيجة بسبب نكث هذا الأخير بوعده. و تكرر الأمر في الاتفاقية التي أبرمتها مع الشيخ علي القريشي.

اخيرا عثرت على الأدلّاء اللازمين لي عند شيخ البصرة، محمد الخليل، حيث كانوا في ضيافته. و هم بواقان [1] و رجلان من سكان كاف. و اتفقت معهم بالرغم من تحذيرات شيخ البصرة المعترضة و الذي بيّن بأنه لا يستطيع أن يضمن بأي شكل تنفيذهم لوعودهم و بأنني أعرض نفسي في أبسط الاحتمالات للسلب و التخلي عني في الصحراء. كنت أستعجل التخلص من سماع هذه النصائح الحكيمة. و غادرت البصرة دون إبطاء في اليوم التالي مع رفاقي الجدد. كان ذلك في 14 مايو (أيار) و كانت عنز محطتنا الأولى بعد اجتياز أم الرمان.

عنز، القرية المؤلفة من 300 نسمة و الرابضة على تلة صغيرة، هي آخر بلدة مأهولة في الصحراء. و من هنا نلفت الانتباه إلى أن عنز تضم سكان نصارى بمجملهم بالرغم من موقعها بصفتها مركزا متقدما، أي بين الدروز و البدو المسلمين.

هنا التقينا خمسة من العرب يخيّمون خارج الأسوار و يرغبون في الذهاب إما إلى

---

(1) البواق هو عربي طرد من قبيلته و حكم عليه بالنفي المؤبد بسبب الغدر أو أي جرم آخر يمس الشرف فلا يعود أحد يثق بكلامه. يمتهن عادة المهن التي لا يمكن الإفصاح عنها، عند حدود الصحراء ملجأه الدائم. راجع نشرة الجمعية الجغرافيةBulletin de la Socie ?te ?de Ge ?ographie
الفصلين الثالث و الرابع 1884 ص. 289 و 468

كاف أو إلى جوارها. كانوا ينتظرون مسافرين آخرين لينضموا إليهم و ليشكلوا قافلة صغيرة. فغادروا معنا في اليوم التالي.

و لما كنا قلة، فقد سعينا إلى تجنب لقاءات خطرة دائما في بداية دخولنا الى الصحراء. فسرنا ابتداء من 15 مايو (أيار) بشكل متعرج تحاشيا للقاء العرب، بناء على المعلومات التي جمعناها في البصرة و في عنز بشأن مختلف المخيمات.

في صبيحة 16 مايو (أيار)، خيّمنا على بعد 3 كيلو مترات شمال شرق القصر الأزرق.

و للأسف لم أستطع الاقتراب منه أكثر من ذلك لأن جميع الأراضي المحيطة بالقصر المبني في منخفض كانت لا تزال موحلة بسبب أمطار الشتاء. و من بعيد رأيته عبارة عن برج مربع مبني من الحجر المنحوت، معزول تماما و قد بدت لي أعاليه أطلالا.

من المرجح أن القصر قائم منذ اقدم العصور، و لا بد أنه كان إحدى محطات الطريق المؤدية إلى وسط الجزيرة العربية عبر دومة الجندل.

كان قبلي المؤلفين العرب يطلقون على الأراضي المحيطة اسم عميري أو عامري.

و ذكر ذلك الدرويش المجهول، الذي ترك كتابا عن طريق الحج من القسطنطينية إلى مكة، و أضاف: إن النبي محمد (صلّى اللّه عليه و سلّم) تقدم إبّان حملته إلى الشمال حتى بلغ هذا القصر و مسيله المرجح بأنه وادي الرايل؛ المكان مثير للاهتمام، فمن هنا يبدأ وادي سرحان الممتد جنوبا حتى آبار جراوي على مسافة يومين من الجوف.

صادفت وادي الرايل بعد ظهر اليوم نفسه و لما يزل في بعض الحفر ماء بالرغم من تقدم الموسم.

لم نتوقف على مرأى من القصر إلا مدة تناول الغداء ثم انطلقنا فورا؛ إذ لا تقترب المجموعات القليلة العدد كمجموعتنا عادة إلى هذا الحد من هذا المكان الذي اشتهر بأسوأ سمعة. فاللصوص يرتادون باستمرار القصر الأزرق بصفته نقطة عبور.

يمتد سهل الأزرق على عدة كيلومترات و كل الأرض صالحة و التربة التحتية صلصالية فيما شجيرات الصحراء، التي تشكل غذاء الإبل، كثيفة و قوية.

ما إن غادرنا هذا المكان حتى عادت الأرض مضطربة و تظهر آثار عديدة بركانية الأصل. من حين إلى آخر اجتزنا أجزاء من الصحراء حجرة كليا تزداد و عورة كلما

اقتربنا من كاف التي وصلناها في اليوم التالي من 17 مايو (أيار) قرابة المساء، كنا قد مشينا معظم الليل.

الكاف

استنادا إلى أحد أدلائه، يوسف الملكي، خط (Seetzen),و يقدم الرحالة سيتزن سير يضع كاف على مسافة خمسة أيام سير من البصرة. إلا أننا نلاحظ الخطأ فورا لدى ذكر اترا و قراقر على أنهما تقعان قبل كاف.

بالمقابل، فإن سيتزن يعطينا المعلومات الأولى التي نملكها عن هذا المكان، حيث يقول إن كاف هي قصر بات أطلالا على قمة تلة محاطة كليا بمستنقع يمنع الاقتراب منه. و يوجد هنا بعض الآبار و شجر نخيل بري لا يثمر.

كنت قد علمت لدى وصولي عند الدروز، بأن كاف هي اليوم قرية صغيرة مأهولة و قد حمّلني شيخ الدروز، نجم الأطرش، رسالة الى شيخها.

عند ما وصلنا إلى الواحة كنت بالطبع ضيف دليلي محمد، و لكن نظرا الى فقره و فقر أهله، عرض علي بنفسه منذ اليوم التالي إسكاني عند الشيخ الذي كان ينتظر إستضافتي عنده.

عبد الله الخميس [1] شيخ كاف، رجل في الخمسين من عمره تقريبا (هو نفسه يجهل عمره بالضبط) يدل غياب العضل و ملامحه الهزيلة و النافرة على أنه بدوي الأصل.

بشأن تاريخ القرية أخبرني عبد الله بأن والده، دغيري الخميس، كان أول من استقر فيها قبل خمسين عاما لما كان هو عبد الله لا يزال طفلا صغيرا. أما أنّ ينابيع المكان العديدة الصغيرة كانت تشكل آنذاك مستنقعا عند سفح التلة كما قال يوسف الملكي، فأمر لم يعد عبد الله يتذكره. و مهما يكن من أمر فإن الينابيع الاثني عشرة الموجودة هنا باتت كلها تحبس في أحواض صغيرة. و إذا قست في الرابعة صباحا

(1) الليدي آن بلانت تسمية عبد الله الخميس.

حرارة عشرة منها، وجدت ان معدّل الأحواض المعرّضة للشمس يبلغ + 50□ 24 درجة و معدل تلك المحمية تحت النخيل يبلغ + 10□ 21 درجة. و من ثم فإن معدل حرارة المنطقة مرتفع جدا. و قد أكّد لي عبد الله أن الحرارة بالفعل أكثر ارتفاعا في كاف في الصيف منها في الجوف، و أنه نادرا ما تمطر في الشتاء. و المؤشر الآخر لهذه الحرارة يكمن في وجود النخيل المزدهر تماما في كاف أما الماء المشوب بملوحة طفيفة فطيّب المذاق.

تمتد القرية الهلالية الشكل من الشرق إلى الغرب و تتألف من مجموعتين، واحدة من ثمانية منازل و الأخرى من تسعة تفصلهما الينابيع و ال 450 نخلة. إلى جانب النخيل لا نجد سوى شجرتي رمان و عدد من شجرات الاثل. يستخدم خشبها في صنع عارضات خشبية لصناعة الأبواب و أسقف المنازل. أما السكان البالغ عددهم 90 شخصا فيملكون ثلاثين جملا و ما يوازيها من الماعز و خمسة عشر خروفا بالإضافة إلى بضع دجاجات. و ليس لديهم ثيران أو خيول.

ان وجود هذه الواحة الصغيرة مدين لوجود الينابيع أولا و من ثم لوجود منجم ملح يعود دخله إلى الشيخ نفسه. و يأتي هذا النتاج من جبل صغير يبعد 5 كيلومترات إلى جنوب كاف و تحمله الإبل إلى مقربة من القرية في تجاويف تحوي ما بين 40□ 0 م إلى 50□ 0 م من الماء يذوب الملح فيها ثم يتبلور بالتبخر. إنه شديد البياض لكن طعمه شديد المرارة. يباع لقبائل الصحراء و تنقله جمال الشيخ بالتهريب إلى البصرة و حوران و جبل الدروز.

البيوت نظيفة من الخارج و لكنها و سخة في الداخل. الجميع يرتدون الزي البدوي.

لا أحد يعرف القراءة أو الكتابة. و كالعادة فإن أمراض العيون كثيرة.

في صبيحة 19 مايو (أيار) جاءني عبد الله و هو متزوج ثلاث نساء، مصطحبا ابنه الوحيد و قد أصيب بتلبك معوي. كما جلب معه في الوقت نفسه فنجان قهوة مملوءا بالماء طالبا مني أن أقرأ عليه الكلمات الضرورية ليشفى المريض الصغير.

سأكون أول أوروبي تسلق الصخرة التي يقوم عليها قصر السيد. إنها صخرة وحيدة، و ثمة صخرتان اخريان أصغر حجما موجودتان حول كاف. قدرت ارتفاعها بقرابة 80 مترا فوق السهل. أما قمتها فعلى شكل مائدة مستديرة و يبلغ محيطها 3000 متر. و هي مكونة كليا من كتل بركانية ضخمة سوداء صلبة جدا غارقة في

غلاف ترابي تتداخل فيها بضع طبقات من الجير الجميل الشديد الصلابة و البياض، و كنت قد صادفته على الطريق بين الأزرق و كاف.

تتألف الأطلال التي تتوج الهضبة العليا من حائط بارتفاع 3 إلى 4 أمتار و بسماكة تتراوح ما بين نصف متر و متر واحد يحاذي حدود القمة الشرقية للصخرة. أما الجوانب الثلاثة الأخرى فليس لديها جدران و من المرجح انها كانت عامودية.

الطريق المؤدية إلى الهضبة و المقوّضة كليا تقع أيضا في الجهة الشرقية و تبدأ من مقبرة كاف الواقعة عند قاعدة الهضبة.

باب حائط الدفاع هذا كان مقفلا بمصراعين من الحجر الأسود شبيه بتلك الأبواب التي نصادفها بكثرة في اطلال المدن في لجا و جبل الدروز و حوران و التي رأيتها دارجة الاستعمال في بعض الحدائق في تدمر. كان أحد المصراعين على الأرض تحت المدخل.

على الهضبة كذلك غرفتان صغيرتان دون سقف تستندان إلى حائط السور، و إلى الشمال تبدو جدران مبنى صغير يضم أيضا غرفتين. باتجاه باب حائط السور، حوض مدوّر مسوّر قطره 4 أمتار و عمقه متر واحد. و على مسافة قريبة يبدو في الأرض تجويف طبيعي على شكل مغارة. و لا بد ان يكون هذان التجويفان قد استعملا كحوضين للماء. بين الحوضين حجر حممي ضخم، متعرج الشكل، بقياس متر مكعب تقريبا حفرت عليه بعض العلامات الشبيهة بتلك التي لا يزال البدو يستخدمونها حتى يومنا هذا لدمغ إبلهم و يسمونها" وسم" أي علامة.

و بما أن الصخرة خالية من أي آثار بنيان أخرى، اعتقد بأن ما كان قائما هنا لم يكن سوى مركز محصن في موقع طبيعي و من الممكن إعادته حصنا منيعا.

من قمة هضبة قصر السيد نكتشف هذه الأرض و هذه الجبال الجرداء المقفرة في كامل قباحتها و قد زاد من وحشتها شظايا الحجارة السوداء التي تغطيها. لذا فإن العين تنظر بارتياح إلى الواحة المنتشرة في سفح الجدار الجنوبي للصخرة. و في البعيد، على مسافة ستة أميال (1)، نرى منظر من وادي السرحان (2).

---

(1) يستعمل دائما الميل الجغرافي الموازي ل 1852 مترا.

(2) اجتزناه في المكان نفسه للوصول الى كاف و قد استغرق الاجتياز ساعة و 30 دقيقة مما يعطي الوادي قرابة 5 كيلومترات من العرض بالخط الذي كنا نسير به انذاك.

على مسافة ستة أميال جنوبا و بانعطاف 70 درجة شرقي كاف، توجد واحة صغيرة أخرى تدعى اتسرا [1]. و المساكن فيها مبنية من الحصى الأسود كمساكن حوران و ليس بالآجر كمساكن كاف. و هي بلدة قديمة هجرت على غرار كاف و سكنت من جديد من بعد كاف بعشر سنوات. و هي تعد اليوم 20 بيتا و حوالي 100 نسمة يتمتعون بمياه النبع كل السنة كسكان كاف. يوسف الملكي، في بيان رحلته، يطلق على هذه البلدة اسم إثرا.

في 20 مايو (أيار) 1880، قمت بقياس حرارة الجوفي كاف، ساعة بعد ساعة في ظل النخيل و سجلت هنا نتيجة القياس:

الساعة 4 +50 13 درجة/ الساعة 10 +70 28 درجة/ الساعة 4 +10 33 درجة

5+ 10 15/ 11+ 80 30/ 5+ 32

6+ 90 16/ 30 90 +6 /31 60 +ظهرا

7+ 80 19/ 1+ 50 32/ 7+ 40 26

8+ 22/ 2+ 70 32/ 8+ 20 26

9+ 40 26/ 3+ 80 33/ 9+ 80 25

منطقة كاف- إثرا مثيرة للاهتمام إذ إنها الأقل ارتفاعا بين حوران و الجوف. و هنا تنتهي الجداول النازلة من حوران، و الشعيب القادم من الجنوب يجري في خماد و وادي سرحان. هذا ما يفسر أيضا بقاء منسوب الينابيع ثابتا بالرغم من ندرة الأمطار. و هذا المنسوب ليس كبيرا كما رأينا أعلاه و يكفي لسقي 450 نخلة.

و من خلال معدل الضغط الجوي في كاف أدركت أن ارتفاعها 498 مترا.

لا استطيع مغادرة هذه الواحة من دون ذكر غوارماني [2] مر بها عام 1864 و ذكر أن.

كاف التي دمرت في القرن الخامس عشر و أعيد بناؤها في القرن الثامن عشر، كانت فيما مضى محطة للقوافل من دمشق إلى المدينة. و بالإضافة إلى كاف التي يقدر سكانها ب 250 نسمة و إثرا التي يطلق عليها اسم ايتيرا و عدد سكانها 300 نسمة

---

(1) أنظر: أحمد شرف الدين: «المدن و الأماكن الأثرية في شمال و جنوب الجزيرة العربية» ص 34 35 [المترجم].

(2) Itine? raire de Je? rusalem au Neged Septentrional par M.

Guarmani, Bulletin de la socie? te? de Ge? og- raphie, Septembre 5681)

فإن هذا الرحّالة يذكر أيضا: اكيله

AKeile

نسمة- El Ekder 150نسمة- الأخضر El Gotti 150نسمة، الجوتي 15 نسمة[1]) El Uscevuasce 200الاوسفواسيه[1].

اما بالنسبة الى العصر الذي شهد تدمير كاف، فمن الصعب نفي أو تأكيد حصوله في القرن الخامس عشر لأن أيا من المؤلفين لم يأت على ذكر ذلك على حد علمي.

و أما بالنسبة لتاريخ إعادة إعمارها فقد أوردت رواية الشيخ الخميس ابن الرجل الذي أحيا الواحة. و أخيرا فيما يتعلق بمحطة للقوافل فإنني لا أعتقد بوجود مثل هذه الطريق المارة بكاف بين دمشق و المدينة في أي وقت، فالقافلة تتحرك ببطء شديد و لا يمكنها اجتياز هذه الوجهة حيث، لا بد من البقاء خمسة أيام دون العثور على ماء كاف. و بالنسبة الى البلدات الأربع الأخرى التي ذكرها غوارماني فإني لم أسمع بها قط. و أما بالنسبة الى السكان فإنني أصرّ على أرقامي فالتعداد كان في غاية السهولة بحيث لا يمكن أن أكون قد أخطأت.

كنت قد اتفقت مع الشيخ عبد الله الخميس على أن يكون هو دليلي إلى الجوف و حددنا انطلاقنا بتاريخ 21 مايو (أيار). و انضم إلينا اثنان من سكان الجوف كانا ينتظران منذ وقت ان يتسنى لهما مسافرين ينضمان إليهم و غادرنا كاف عند شروق الشمس يودعنا كل رجال كاف حتى مسافة بعيدة عن الواحة.

مع أننا كنا نسير على أرض مستوية، فقد كنا في منطقة جبلية إنما شكلها خاص جدا. المنطقة مكونة من هضبة حجرة شاسعة خرجت من أرضها كمية من الارتفاعات (الجيولوجية) على شكل إهليلجي و مخروطات و شعفات منفصلة كليا بعضها عن بعض و لا يربط فيما بينها أي رابط بينما قممها على شكل طاولات.

و علاوة على ذلك لا يسودها أي وحدة اتجاه، فهي إثرا من الشمال إلى الجنوب و من الشرق إلى الغرب و يتراوح ارتفاعها ما بين 20 و 100 متر.

من المدهش أن نكتشف أن كل هذه الارتفاعات مصنوعة من الكلس الأبيض الذي ينتج رملا جميلا جدا من اللون نفسه و قد سقط عليه سيل من الحصى الأسود المفحم. و هي على أي حال الأرض نفسها التي صادفتها قبل الوصول إلى كاف بيوم.

(1) يرى التحرير من المفيد التذكير بأن السيد غوارماني قد نقل الأسماء العربية كما تيسر له ذلك بالإيطالية التي حافظ عليها هوبير في ما أورده.

كل هذه التلال المميزة و خاصة بين إثرا، كاف و وادي سرحان تحمل اسم القدير [1] أو وريق [2] الشامل.

عند الظهر مررنا بواقعة لا تزال للاسف تتكرر كثيرا في الصحراء. فما أن أوشكنا أن ندخل مجرى وادي سرحان حتى صادفنا شخصا معه ثلاثة أشخاص يحتضرون و على مقربة جثة. كانوا أربعة دراويش تجرأوا على مغادرة الجوف منذ ثمانية أيام سيرا على الأقدام قاصدين كاف و منها دمشق دون ماء و دون مؤن تقريبا. كانوا يعتمدون على مصادفة مخيمات بدو و الوصول إلى محطتهم الأخيرة متنقلين من مخيّم إلى آخر. أصبحوا" جلدا و عظما" كما يقال بالعامية. أما الميت المحمّص فقد اقتسم رفاقه أسما له بالرغم من إشرافهم على الموت هم أيضا.

أعطيت كل واحد منهم ليترين من الماء و قليلا من الطحين الذي استهلكوه فورا.

و لاحظت بأن عبد الله بدلا من أن يدلّهم على وجهة كاف و هي أقرب نقطة، دلّهم على إثرا و ذلك لتجنيب بيته واجب إطعامهم. عند الظهر، كما قلت أعلاه، دخلنا مجرى وادي سرحان حيث سرنا حتى الساعة الثالثة. ثم تركناه إلى الغرب و دخلنا من جديد منطقة جبلية مغطاة كليا بالحجارة السوداء و تدعى المسما El Misma و هي أخذت اسمها من الجبل الرئيس الكائن في الجوار، و الذي شاهدته صبيحة اليوم التالي على مسافة 12 ميلا الى الشرق. و هو عبارة عن سلسلة طويلة تمتد من الشمال إلى الجنوب الغربي [3].

في هذا اليوم دخلنا مجددا الى وادي سرحان و شاهدت هنا مشهدا رائعا. فعلى مد النظر، كانت الأرض المستوية تماما مغطاة بطبقة رقيقة من الملح الناصع البياض.

إذ تركنا هذه الأرض إلى يسارنا، التففنا حولها لمدة ثلاث ساعات فما كان يجوز حتى التفكير باجتيازها، ذلك أن الأرض تحت طبقة الملح تبقى رطبة و شديدة الانزلاق و لا تستطيع الجمال السير عليها. هناك درب ضيقة تحاذي هذه السكّة و لكن في بعض الأماكن أجبرتنا صخور على يميننا على اجتياز بعض الأجزاء ففعلنا باتخاذ أوسع

---

(1) القدرة الصغيرة [ملاحظة التحرير].

(2) يوجد أيضا جبل وريق شمال مقاق.

(3) هذا الجبل يدعى أيضا المسما السرحان لتمييزه عن جبل مسما الكائن في منتصف الطريق بين جبل أجا و تيما. السيد غوارماني يدعوه خطأ نسمه- السرحاني و خارطة السيدة بلانت تحمل اسم مزمه.

الاحتياطات و بترك الحرية الكاملة للجمل الذي يحرص على عدم الابتعاد عن الدرب و لا عن خطوات الرجل الذي يسير أمامه و يشجعه.

و إلى جانب خطر الانزلاق و الوقوع من على ظهر جمل، هناك خطر السقوط في أحد الثقوب الموحلة المكسوة بطبقة ملح رقيقة جدا و هي كثيرة في هذه المستنقعات. هذه المنطقة تدعى الحاصوته El Hac ?otah .

عند المساء أقمنا مخيمنا بالقرب من أربعة آبار تدعى المالحات و قد أحسنت تسميتها لأن مياهها التي لا تبعد أكثر من 5 1 متر عن الأرض شديدة الملوحة.

و في الغد، 23 مايو (أيار)، أخذنا في الصباح ماء من آبار قدير المازر Gedeir El Mazer و في المساء أخذنا ماء من آبار القدير على أرض الميسري [1]، و مخيمنا لتلك الليلة كان في النبع Nebay و هو اسم المنطقة كلها ابتداء من آبار قدير المازر.

مصدر اسم النبع هو حصن صغير بات أطلالا يقع على مسافة كيلومتر تقريبا جنوب غربي آبار القدير Gedeir .

الآبار التي صادفتها حتى الآن لا تخلو عموما من المياه طوال السنة و لكنها تميل إلى الملوحة و تنبعث منها رائحة كريهة جدا. هذه الآبار هي مجرد حفر غير مسورة.

بيان رحلة يوسف الملكي يذكر أيضا آبار قدير المازر و لكنه يسميه كدير.

في 24 مايو (أيار) وصلنا في الصباح إلى آبار قسايم و مساء إلى آبار الجراوي [2] التي خلت من المياه فيما كنا نعتمد عليها.

من كاف إلى النبع، الطريق السارية في كثير من الأحيان في مجرى الوادي ممتعة جدا، فالأرض رملية باستمرار و يعمّها الاخضرار. ابتداء من النبع تندر النباتات و تصبح الأرض صخرية و المنظر رتيبا. في بعض الأحيان يبرز الصخر و غالبا ما نسير على حصى مدحرجة مكتلة. و ابتداء من آبار الجراوي تتلاشى النباتات كليا و يحل الرمل و الحصى محلها.

عجلنا في سيرنا و لم نضرب الخيام إلا بعد منتصف الليل في و لمى Ouelma لأننا لم نعثر على ماء في آبار الجراوي.

---

(1) الموسري لدى غوارماني و معزرة لدى السيدة بلانت.
(2) الجراني عند كارلو غوارماني و يراني عند السيدة آن بلانت.

إلى الجوف

الخامس و العشرون من مايو (أيار) كان يوما شاقا إذ لم يتبق لنا من الماء إلا ما يكفي لصنع الخبز. و بما أنه لا يوجد آبار بعد الجراوي فكان لا بد لنا من السير دون توقف حتى الجوف. هكذا بقينا اثنتين و عشرين ساعة على السرج. كنا قد انطلقنا في الرابعة صباحا و وصلنا إلى نهاية مطافنا في 26 أيار في الثانية فجرا و قد عانيت من العطش كثيرا.

منذ الصباح أصبحت الأرض حجرة كليا فهي مغطاة بشظايا صغيرة شبيهة بصوان البندقية، قاتمة اللون، تلمع و كأنها مطلية بالبرنيق و منظرها متعب جدا للعيون. هنا الأرض خالية من النباتات. في الثامنة مساء هبت علينا ريح شرقية دامت ساعتين و رفعت ميزان الحرارة الى + 42 درجة. كان الحر خانقا و تلبدت السماء بالغيوم كليا قرابة التاسعة و لكن بالرغم من بضعة قطرات من المطر ظل الجو حارقا طوال الليل.

لا يعتمد خط السير في الصحراء مطلقا على طبيعة الأرض المتفاوتة الملاءمة، و لا حتى على الكلأ الضروري للجمال، بل يتوقف على الماء التي نجده في الطريق. لذا، فإن وجهات السير ليست سوى خطوط آبار.

غالبية هذه الآبار حفرها البدو على أراضي مراعيهم. و عند ما كانت المصلحة التجارية أو السياسية أو الدينية تفرض مرورا متكررا عبر مختلف اراضي القبائل العربية التي ليس لديها آبار عند حدودها منعا للغزوات العدوة المغيرة، كان يتم حفر بئر أو بئرين إضافيتين للوصل بينها.

فيما عدا ذلك من الواضح أنه كلما قّلّ العمل لحفر بئر كلما ازداد عددها. هذا ما ينطبق على الآبار في وادي سرحان، و هذا ما يفسر العثور على أسماء جديدة في كل مرة تجري مقارنة بين ضاربي الطرق المعروفين حتى يومنا هذا من حوران الى الجوف.

في سبيل إبراز أوجه التشابه و الاختلاف فيما بينهم، سأورد هنا المعروف منها حتى اليوم:

بيان رحلة يوسف الملكي/ طريق م. غوارماني/ طريق السيد و السيدة بلانت/ طريقي أنا

البصرة/ كاف/ ملاخ/ البصرة

Habkeh

حبكه/ البريده/ كاف/ عنز

Esrak

اثرا/ وادي الرايل Ithery/رسيبا Rseba/اسراك

Ittra

شاحبه/ ازرق Shadjbeh/ابو طريفيان Abou Terifian/اثرا

Kerakor

كراغيز/ كاف Kerraghiz/العضيمات El Adeimat/قراقر

كاف/El Meheder المهدر/Mahiyeh ماهيه/El Melkhat

Kader

مازره/ الملخات Maazreh/وسط Weset/كادر

Unimel Phenadschi

/ الميسري/Schaybeh شايبه/El Mazer

Kleia

النباش/ قصر/ المازر El Nebach/قليعة

جدير Gedir/الشيبا/ جراوي / El Scebaرشوف

El Uescece

الوسيسه/ الميسري

El Nebece

النبش/ الجدير

El Gerani

الجراني/ القسايم

Sbeha

سبيحه/ الجراوي

Al Scegar

الشجار /

Giof

الجيوف

الى خطوط الآبار الأربع هذه، اضيف خطا خامسا سجله لي شخص جوفي المولد يقيم حاليا في حائل و هو صانع الاسلحة غانم:

Wic ?-الأرزق- الحريم- العمري، جبل العربي- المعاصر- المشاش- قراقر- وصت eth البيضا- التياج- شعار- شقير- النبك أبو قصر- صبيحة.

من السهل العثور في الخريطة على نقاط التقاء هذه الخطوط المختلفة و على نقاط تقاطعها و من ثمّ على الوجهات التي تتبعها.

Miqou'aميقوعه هي بئر أخرى معروفة جدا في الوادي.

في الجوف، نزلت عند الشيخ سلطان بن حبوب ابن أخ غافل الذي استضاف فيما مضى بالجريف و رفيقه و الذي توفي منذ عشر سنوات. سلطان هو صهر عبد الله الخميس شيخ كاف.

استقبلني بكل حفاوة، جوهر الذي يحكم الجوف باسم سيده الأمير محمد ابن رشيد.

و هو زنجي جميل قامته 75 1 متر، في العقد الخامس من العمر تقريبا، ينضح وجهه ذكاء. لا تفارق الابتسامة شفتيه و تصرفاته في غاية اللباقة و قد استقبلني دوما بكثير من الترحاب كما و أنه أجلسني دائما في مقعد الشرف ليس في مضافته فحسب بل ايضا عند ما كان يقصدني.

في كل زياراتي كان يطلب تقديم الماء المحلّى الساخن (و هو الشاي البدوي) و القهوة بوفرة ثم يطلب جلب أفضل التمر مع الزبدة. و قبل كل شيء كان يطلب إعداد نارجيلته الخاصة خصيصا لي. و هو يدخن بالفعل، و إذا كان يسمح لنفسه هذا الخرق الخطير لمعتقدات الوهابيين المتزمتة فهو في المقابل شديد التقيد بتلك التي تحرّم الموسيقى و الغناء.

الجوف التي كانت في منتهى المرح فيما مضى حسب بلجريف، لم تعد تحوي اليوم ربابة واحدة. و قد ذهب في حفاوته في محادثتنا الأولى إلى حد القول لي:" "مسلم أو نصراني سوا سوا" أي" المسلمون و المسيحيون سواسية".

الجوف، إحدى أقدم واحات الجزيرة العربية، حملت لقبها هذا مع بطليموس و قبل ذلك بكثير تحدث عنها عدد كبير من المؤلفين العرب. فقد أطلق عليها أو لهم اسم" دميثه" فيما سماها الآخرون دومة الجندل [1] و هو الاسم الذي تعرف به عند العرب الحاليين. و أحد النصوص الآشورية التي أوردها م. رولنسن تذهب إلى حد افتراض وجود هذه البلدة في القرن السابع قبل الميلاد تحت اسم" دومات" مع ملك يدعى" أكبر" [2] هزم في حملة شنتها الجيوش الآشورية في عهد اسوراحدين (680- 669 ق. م).

لكننا لا نعرف عن هذه البلدة سوى اسمها و لا بد لنا من الوصول إلى الهجرة لنخرج إلى النور. ففي ذلك الحين كان ملكها من قبيلة كنده يدعى عقيدر Okeider أكيدر) و كان نصرانيّا أرسل إليه النبي محمد (صلّى اللّه عليه و سلّم) جيشا مؤلفا من أربعمئة فارس لإخضاعه و جعله يعتنق الإسلام. هذه القلة من الرجال حاصرته و أجبرته على الاستسلام مما يعطي فكرة هزيلة عن قوة أو شجاعة الأمير، أو عن حب

---

(1) يأتي اسم جوف عمير الذي تحمله عند بعض المؤلفين، من قبيلة بني عمير الذين رفعوها من اطلال دومة الجندل القديمة.

(2) J. Havlevy, Essai Sur les inscriptions du Safa, Extraits du Journal Asiatique, Septie? me Se? rie, Tome IV, Ernest Leroux, Paris, De? cembre 4781

.

رعاياه له. فقد افتدى شخصه الثمين مقابل ألفين و ثمانمئة جمل، و أربعمئة درع و ما يعادلها من الرماح و حضر شخصيا أمام النبيل في المدينة بثوب من الحرير و الذهب و قد علق صليبا من الذهب على صدره. و اعتنق الإسلام هو و شعبه و حافظ على عرشه بدفع الجزية[1].

و بحسب ما اورده بعض المؤلفين فإن الجوف كغيرها من البقاع ضمت سكانا بدلوا مرارا معتقداتهم الدينية عبر التاريخ، و تنقلوا من الوثنية الى اليهودية فالنصرانية و أخيرا الإسلام.

اعتبارا من ذلك الزمن فقدت الجوف دورها و لم يعد الجغرافيون العرب الإدريسي و ياقوت أو حمداني يذكرونها إلا بالاسم.

في أواخر القرن الماضي، ضمت الجوف الى الوهابيين بعد ان شهدت حربا أهلية و أرسل إليها ابن سعود حاكما لوقف الاضطرابات و خطباء لتوعية الناس.

و جاء تدمير الامبراطورية الوهابية على يد محمد علي، باشا مصر، فعادت الفوضى الى الجوف. و قد دام هذا الوضع حتى عام 1838 و هي الحقبة التي احتل فيها عبد الله بن الرشيد مجددا الجوف لحسابه الخاص لدى قيامه بنجدة مواطنيه شمّر المقيمين في حي الخراوي و Delhemiat الذين كانوا في صراع مع سكان سوق دلهمية كانوا قد أصبحوا في فترة معينة الأكثر ضعفا. و بذلك وفق بين الجميع.

كان هذا الوضع الجديد ضاغطا على الجوفيين و ما أن أدركوا ضعف حكم ابن سعود حتى فكروا في استغلاله لاسترداد استقلالهم. فثاروا و طردوا الأمير الشمّري. و قد دفعوهم إلى ذلك إذ إن قبيلتي نايف و شعلان Rouala من المرجح أن يكون الرولا كانتا منذ أمد بعيد تستفيدان من ضريبة صغيرة من الجوف كما و أنهم إلى جانب عداوتهم الدائمة لشمّر لم يكونوا يوما حتى في عصرهم الذهبي أصدقاء الوهابيين.

و مهما يكن من أمر فإن الأمير الشمّري طلال بن رشيد الذي كان يحكم آنذاك لم

---

(1) ذكر ابن هشام في السيرة النبوية ج 2 أن رسول الله (صلّى الله عليه و سلّم) بعث خالدا بن الوليد الى أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة و كان نصرانيا ثريا، فترصد له خالد و انقض على فرسانه فقتل أخاه، و أسر أكيدر و أرسله الى النبي محمد (صلّى الله عليه و سلّم): «فحقن دمه، و صالحه على الجزية، ثم خلى سبيله فرجع الى قريته». ابن هشام: «السيرة النبوية» ج 2 ص 526.

يكن ليتحمل ذبذبات الاستقلال. النفود صعب و لكنه لا يشكل عقبة كما و أنه لا وجود للعقبات بالنسبة الى العرب عند ما يتعلق الأمر بحملة عسكرية.

كل هذا جرى عام 1853. و لم يكد يمضي شهر على الثورة، حتى كان طلال بن رشيد مع رجاله من شمر أمام الواحة. و قد استقدم من حائل مدفعين صغيرين على الأرجح من أجل النيل من معنويات المحاصرين. و بالفعل أطلقت بعض الطلقات. روح المقاومة كانت في سوقي أدرع مارد و عين ام سالم المأهولين من عرب Erheimatارحيمات و أصلهم من جوار النجف في بلاد ما بين النهرين.

بعد حصار دام عشرين يوما، هو جمت السوقان و دمّرتا كليا. و قد رأيت أطلالهما.

و ظل برج مارد الشهير المجصص حديثا و المسقوف، مسكونا. أمّا السكان المتحمّسون فمن لم يقتل منهم في الهجوم اضطر إلى مغادرة الواحة نهائيا إلى المنفى. و منذ ذلك الحين استتب السلام.

ما يفسر هذه الانقسامات الداخلية هو أن الجوف ليست وحدة موحدة. فهي تتألف من خمس عشرة مدينة صغيرة بنيت متلاصقة، إنما يحيط بكل واحدة منها سور و لا وصول إليها إلا من باب واحد. كل مدينة أسستها قبيلة مختلفة و لها شيخ خاص.

فيما يلي لائحة بها:

الوادي، على بعد ميلين شمال شرق مارد.

Qerathinقراثين، في أسفل الواحة .

عين أم سالم، أطلال، سكنها فيما مضى بدو الرولا (عنزه).

أدرع مارد، في أسفل السابقة، أطلال، كان اصل سكانها من شقرا جنوب القصيم.

هذه السوق التي يسميها مؤلفون آخرون ببساطة الدير هي أشهر سوق بسبب برج المارد الموجود فيها و المرجح أنه كان مبنيا كليا من الحجر الكبير المقصّب و كما ذكرت أعلاه، فإن هذا البرج قد رمم مؤخرا و قد أعيد انشاء الجزء الأعلى المدمر بالآجر.

El Q'aidالكايد إلى الغرب.

El S'aidinالسعيدين التي يسميها و الين السيديجين. مع برج حصين القصير.

سكانها المؤلفون من خمسة فصائل من قبائل مختلفة كانوا أعداء سوق أدرع مارد.

السلمان، في وسط الواحة تقريبا.

الحبوب (الحبوه) عند غوارماني.

السعيدان الموقع نفسه و السكان لغروتي Ghroththy .

الرحبيين، كان يسكنها قديما بدو تميم أما حاليا فيسكنها مهاجرون من رحيبة في سورية.

علاج اسسها و سكنها بنو طفيلة.

عشيب.

خزما مأهولة ببدو سرحان الذين لا يزال قسم منهم رحّلا مع شمّر في بلاد ما بين النهرين. و فيها بئر تعطي أفضل ماء في الجوف. كما فيها أيضا متولدون و هم زنوج منحدرون من عبيد جاؤوا فيما مضى من مكة.

دلهمية التي دمرها الأمير الشمّري لدى غزوة 1838 في هذا الحي بنى الحاكم الشمّري منزله و هو حصن قوي.

غوطة، في اسفل الواحة يسكنها بشكل حصري عمال جاؤوا اصلا من جبة فهم من شمّر.

تلاحظ تباينات طفيفة في لائحة الأسواق هذه إذا ما قورنت بلائحتي و الين و غوارماني و مرد ذلك يكمن في تعدد أسماء هذه الأسواق، و على سبيل المثال فإن عين أم سالم تدعى أيضا غرب.

منذ أن أصبح الأمير شمّر ملكا مطلقا في الجوف، تراجعت علاقات الواحة مع الرولة عما كانت عليه في السابق خاصة و أن الأخيرين غير مربكين في تصريف نتاج قطعانهم من الصوف و الزبدة. و على أي حال فإن هذه المواد ليست مفقودة عند الجوفيين الذين يتسلّمونها حاليا من الشرارات الخاضعين بأجمعهم لشّمر و يدفعون لهم جزية.

علاقات الرولة كانت بإستمرار أكبر مع سورية منها مع الجوف. ففيها يبيعون منتوجاتهم و يشترون الأصناف القليلة التي يحتاجون إليها كالثياب و الأرز و القمح.

و هم إلى ذلك يبيعون في سورية جمالهم بأسعار أفضل بكثير.

في القرن الماضي و قبل أن يغزو الوهابيون الجوف، كان بدو الحسرة El Hessere و بنو صخر يترددون أيضا على الواحة.

في المقابل لا بد للشرارات من أن يبتهجوا لأنهم أجبروا على وقف حملات النهب بين الجوف و فلسطين، و بين تيماء و الجبل، ذلك أنهم محاطون كليا بالصحارى و ليسوا على اتصال بأي مركز مهم بحيث لا سبيل لتصريف أصوافهم و لا جمالهم الممتازة الأصل.

الآن يزودون الجوف بالصوف و الزبدة و حتى بالحليب عند ما لا يبعدون عنها أكثر من مسافة يوم الى يومين سيرا. و يتسلمون مقابل ذلك تمورا و أقمشة و بعض الحاجيات الضرورية لحياة المخيمات و التي لا يستطيعون صناعتها بانفسهم كرحال الجمال و الجلود المدبوغة، إلخ ...

لا تنتج الجوف سوى التمور التي تضاهي أفضل أنواع تمور الجزيرة العربية، و قليلا من القمح بكمية غير كافية. أما الصناعة فتقتصر على صنع عباءات خفيفة بنية، تباع بحسب نوعيتها بمجيدية أو اثنتين، و صنادل و مصنوعات جلدية أخرى و أسرجة و بعض الأغراض الحديدية غير المتقنة.

بسبب ندرة العملات، تجري عمليات البيع و الشراء بالمقايضة. لدى وصولي إلى الجوف، توقفت عند المنازل الأولى لمعاينة الوقت في ساعتي و تسجيله بالقلم.

كانت الساعة الثانية صباحا. و بالرغم من أن الوقت كان مبكرا جدا، فقد خرجت امرأة شابة من منزل مجاور و قدمت طاسة من الماء إلى الرجال الذين كانوا برفقتي. فقالوا لها تهذيبا بأن تقدم لي الماء أولا ففعلت. و بعد ما شربت و أعطيت الطاسة لرفاقي، أعطيتها قطعة نقود بقيمة ربع مجيدية [1] عرفانا لها بالجميل.

فأخذتها و سألت عما تكون و عند ما علمت بالأمر ابدت دهشة كبيرة. فسألها عبد الله عندئذ ما إذا كانت قد رأت نقودا من قبل فأجابت" أبدا".

الماء، سبب وجود النخيل و من ثمّ الإنسان في الواحة، و يجري الماء من الينابيع و من الآبار و من الخزانات، التي لا تستقبل الماء إلا فيما ندر فقلما تمطر السماء. و الماء عديم الطعم أو كريه المذاق و عسير الهضم. الاستثناء الوحيد هو بئر غخزمة في السوق التي تحمل هذا الاسم كذلك. فماؤها أطيب مذاقا.

العديد من السكان اكدوا لي أن الماء يتناقص، و أنه كان أغزر بكثير في الأزمنة

(1) المجيدية الفضية تساوي 4 فرنكات و 44 سنتيما.

الغابرة. مما يفسر بشكل طبيعي تناقص السكان فتعدادهم لم يعد كما كان عليه في سالف الزمان.

في الشرق حيث لا يوجد أي إحصاء، يجري تقدير عدد سكان بلدة ما، تبعا لعدد مواقد النار أو لعدد البالغين الذين يستطيعون حمل البندقية أو بالاستناد إلى المعلومات التي يمكن الحصول عليها. كل هذه الوسائل تسمح بالتوصل إلى تعداد تقريبي عند ما يمكن اللجوء الى هذه الأساليب. و على العموم يمكن استعمالها في كل مكان إلا في بلد عربي حيث أي سؤال بهذا الصدد يثير الشكوك دائما.

هناك وسيلة تخمين طريفة إلى حد ما و دقيقة جدا لم أر أي رحالة يذكرها إنما لا يمكن استعمالها بيقين إلا في نجد نفسها، و هي الاستعلام عن عدد الأماكن في الجامع الرئيس.

أحدى النقاط الأساسية لدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب هو أداء صلاة الظهر يوم الجمعة التي تقام في الجامع. اما الصلوات الأربع الأخرى ليوم الجمعة و صلوات أيام الاسبوع الأخرى تقام في المساجد الموجودة في كل سوق، و قد شجع ذلك إنشاء جوامع في شبه الجزيرة العربية الوسطى بحيث وسع البناء ليستوعب جميع الذكور البالغين. و على العموم الجميع يعرف عددهم، و علاوة على ذلك فإن كل واحد منا يستطيع تقدير العدد بنفسه؛ بما أننا نعرف أن الناس يقفون جنبا إلى جنب في صفوف تتباعد فيما بينها بمسافة 70□ 1 متر تقريبا. إذا كان كل رجل يشغل بالضبط في الجامع المساحة التي يحتاج إليها لينام، فلنقسم مساحة الجامع الكاملة على هذا المستطيل و نحصل على عامل صالح لعدد السكان.

على أن هذا الأسلوب لا يمكن تطبيقه في الجوف تحديدا. ذلك أنه على الرغم من وجود جامع في قصر الحاكم إلا أنه يتعذر على كثير من السكان الوصول إليه.

أول رحالة خمّن عدد السكان من دون أن يزور الجوف هو وليم بوركهاردت. و ذكر سبع أسواق بمعدل مئة بيت لكل سوق أي 6000 نسمة في الحد الاقصى. بلجريف قدرها عام 1862 ب 34000 نسمة و بعد سنتين قدرها كارلو غوارماني عام 1864 ب 6000 نسمة مع ثلاث عشرة سوقا.

بناء على ما عرفته خلال إقامتي في الجوف و في الجبل فيما بعد، هناك 1500 بندقية تقريبا و مع ذلك فأنا لا أعتقد أنه يمكن تقدير سكان الجوف بأكثر من 12000 نسمة.

فيما يلي اسماء البلدات الواقعة في محيط مدينة الجوف بالتحديد:

سكاكاSekaka و تبعد 45 كيلومترا تقريبا Hamamiehفي سفح جبل حمامية شمال شرق الجوف و فيها 8000 نسمة تقريبا و هي موجودة منذ قرن فقط، و مع أنها آخر مدن الجوف، إلا أنها في أوج ازدهارها، و منذ ضمت إلى الشمر لا تنفك تجتذب سكان المدن الأخرى. الماء فيها و فير جدا و على عمق أقل منها في الجوف.

قاراQara و تبعد حوالي 32 كيلومترا إلى الشمال، 70 درجة شرق الجوف مع 1000 نسمة تقريبا.

سحاراSehara و تبعد 10 كيلومترات شمال غرب الجوف و فيها 50 نسمة.

حسيّةHasia على مسافة 7 كيلومترات شمالا، 35 درجة غرب الجوف و فيها 50 نسمة.

البلدتان الأخيرتان القديمتان قدم الجوف نفسها، كانتا كبيرتين فيما مضى و لكنهما تلاشتا.

جاوا على طريق سكاكا، تبعد 21 كيلومترا من الجوف.

مويسنMoueisen أبعد بقليل من جاوا تقع في منتصف الطريق تماما ما بين الجوف و سكاكا.

مويسن و جاوا المعاصرتان للجوف و سحارا و حسية هي اليوم اطلال و مهجورة.

منذ لقائي الأول مع جوهر، حاكم الجوف، أطلعته على نيّتي بالذهاب الى حائل.

فصوّر لي فورا أن الرحلة مستحيلة و وصف لي أهوال النفود و استحالة اجتيازها في الصيف. و قال لي:" النفود هو الآن بحر من النار التي ستلتهمك و لن يقبل أحد بأن يكون مرشدا لك"، فأجبته بأنني أعلم علم اليقين أن بعض البدو يجتازونها أحيانا في عز الصيف و أنه بإمكاني أن أفعل مثلهم.

لم أزد إلحاحي في ذلك اليوم و لكنني أثرت هذه المسألة مجددا في اليوم التالي بعد ما قدمت له هداياي اذ ذاك تبددت بالفعل معظم العقبات. و لم يعد يستوقفه سوى مسألة الدليل، و لكني عند ما كررت طلبي في أن يجد لي دليلا في الذهاب إلى الأمير محمد ابن رشيد، سيده، و عدني بسهولة بتأمينه.

و عثر على الدليل في آخر يوم من شهر مايو (أيار) و حدد الرحيل في اليوم التالي. هذا

الدليل اسمه محارب و هو رجل مسن صغير القامة ضامر الجسم بوجه" مهرج" يرافقه صهره صايل. و هما من الجوف و قد اجتازا النفود مرارا.

نحو النفوذ

في الأول من يونيو (حزيران) نهضنا جميعا قبل الفجر بوقت طويل، و بدأنا ملء القرب، و تجهيز المؤن في أكياس، و آخر التوصيات و وداع الأهل و الأصدقاء، و بالأخص التردد الشديد الذي ينتاب العربي دائما لحظة الغياب في رحلة طويلة جعلت مسيرتنا تتأخر حتى السادسة و النصف صباحا.

و ما أن خرجنا من وادي الجوف، أي بعد ربع ساعة، حتى وصلنا إلى هضبة حجرة ليست سوى تكملة للهضبة الممتدة من شمال الواحة حتى آبار جراوي. و بعد نصف ساعة من السير على هذه الهضبة تراءى لنا في البعيد أمامنا خط أبيض في البدء ثم تحوّل إلى لون الزهر الباهت لدى اقترابنا منه. إنه النفود! لقد بلغناه في ساعة و نصف الساعة.

كل من قرأ وصف النفود بقلم جيفورد بلجريف [1] يتذكر اللوحة المحبطة التي يعكسها الرحالة الإنكليزي عن هذه الصحراء. يقول:" لكثرة ما سمعنا من روايات عن النفود رواها لنا البدو و غيرهم، بتنا نتوقع أشياء رهيبة، لكن الواقع تجاوز في هوله كل ما روي لنا و كل ما تخيّلناه". ثم يصف الصحراء وصفا خياليا. فالصحراء عنده مجرد تلال رمال متحركة بارتفاع يتراوح ما بين 200 و 300 قدم. لا ترى العين من قممها سوى بحر هائل من نار. و قال:" يمتد أمامنا سهل شاسع تكوم رمله الاحمر في تلال يبلغ ارتفاعها ما بين 200 و 300 قدم تسري متوازية من الشمال إلى الجنوب.

و تشهد منحدراتها المائلة و قممها المدورة بأخاديدها العميقة في كل الاتجاهات على عنف عواصف الصحراء. يبدو المسافر و كأنه سجين في هاوية من الرمل ترتفع من

---

(1)

W, G. Palgrave. Une anne? e de voyage dans l'Arabie Centrale(2681- 3681). Paris. Hachette Cie.

المجلد الأول، ص 87. 1866

حوله أسوار التلال الحارقة، و إذا نظر أمامه فهو لا يرى سوى بحر واسع من نار تنفخه السموم التي ترفع أمواجه المحمرة إلخ...".

لذا فقد كانت مفاجأتي سارة لدى اكتشافي أن في كل هذا مبالغة متمادية و أن اجتياز النفود متعب للإبل على أبعد حدود و لكنه إلى جانب هذه النقطة السلبية يتمتع بميزات عديدة تحدوني إلى الاعتقاد بأنه لا يوجد بدوي واحد لا يفضل النفود على أي صحراء أخرى.

و تكمن ميزة النفود في أفلاجه [1] إلى جانب كونه صحراء ذات رمل صاف كليا لا يشوبه أي خليط من التراب أو الحصى أو أي مادة غريبة أخرى. و الفلج في النفود هو تقعير بشكل نصف بيضاوي ينغرز عند انعطافه عميقا في الرمل. و يشبه إلى حد بعيد الأثر الذي يتركه حافر حصان عملاق، هذا الحافر المفرغ قليلا من تحت على شكل قوس دائرة يبلغ قطره ما بين 300 و 400 متر و يغوص عند رأسه فقط إلى 50□ 60□ 70 و حتى 80 مترا في الرمل. و الوجهة هي وجهة سير هذا الحصان باتجاه الشمال- الغربي. إن انحدار الجدران الداخلية لنضوة الحصان مدهش بسبب نعومة الرمل. فهو يبلغ ما بين 50 و 60 درجة. لذا فإن أصغر شيء يرمى على هذا المنحدر يتدحرج إلى الاسفل مثيرا جرفا رمليا. و لكن على الرغم من إحتمال انهيارات متواصلة، يبقى الفلج ثابتا و يحافظ باستمرار على مظهره. بعض هذه الأفلاج تخرق كل سماكة طبقة الرمل و تكشف في القعر تارة تربة صلصالية و تارة أخرى صخورا و حجارة كلسية و صوانية، و يمثل فلج عيون قفيعة و فلج البيضا المسجلتين على الخريطة هذه الحالة بالتحديد و هما في الوقت عينه من أعمق الأفلاج.

بناء على هذا الوصف ندرك مغالطة وصف بلجريف، فنزول و صعود هذه الأفلاج غير وارد، ذلك أن منحدر جدرانها لا يسمح بالصعود و لا بالنزول. و الطريق التي تسلك تلتف حولها أو تجتازها من الوراء عند وتر القوس.

تعلو عددا كبيرا من الأفلاج و عموما الكبيرة منها، في الغرب و في الغالب في الجنوب الغربي قمة عالية من الرمل متوجة هي الأخرى بقمة بارتفاع 3 إلى 4 أمتار و عرة

---

(1) فلج و بالجمع Fouldj.-مع المصوت القصير Fouldjلقد احترمنا كتابة السيد هوبير، إذ يفترض كتابة مطبقة على نفس العارض Feldjaهو اسم منطقة في نجد، و هي كلمة عربية نجدها بصيغة فلجة Afladj.الأفلاج [الأرضي في المدونة الطوبوغرافية لعرب الصحراء لقسطنطين [التحرير

المنحدر. و كما لاحظت الليدي آن بلانت، فإن هذه القمم تتمايز بلونها الأبيض عن لون باقي النفود و لكنه مجرد خداع البصر، اذ تبين من مقارنة عينية كنت قد جلبتها معي بعينات أخرى من النفود، أنها لا تختلف عنها في التركيب و اللون.

إلى جانب هذه الأفلاج و هذه القمم العالية التي تتوجها، لا بد من وصف ميزة أخيرة للنفود ألا و هي الأمواج الكبيرة التي تقطعه في بعض الأماكن، و تمتد من الشرق إلى الغرب و تعلو عن المستوى العام عموما بارتفاع 60 15 و حتى 20 مترا. و قممها تبدو هي أيضا بيضاء. و نصادف ثلاثا أو أربعا على الطريق المؤدية من الجوف إلى الجبل.

يخيل إلينا أن صحراء من الرمل الصافي كهذه لا بد أن تكون أبشع وحشة وجدت، و لكن الواقع مغاير تماما بفضل نباتات كثيفة و قوية نسبيا تؤمن غذاء للجمال على طول الطريق تقريبا.

عند ما لم يتسن لنا أن نرى سوى الحماد بشجيراته الصغيرة النحيلة كالأدر و الغضا التي لا يتجاوز ارتفاعها قدمين، تسرنا المفاجأة لرؤية هذه الشجيرات نفسها بارتفاع 3 و 4 أمتار في النفود. النفود هو جنة الجمل.

و بالإضافة إلى الشجرتين أعلاه المشتركتين بينها و بين الحماد و باديات أخرى فإن النفود يملك شجرتين خاصتين هما الأرطي و الحمضي الرمث. أولى هاتين النبتتين لذيذة جدا و الأخرى يبلغ طولها ارتفاعا لا بأس به. و من النباتات العشبية نذكر الأفضل منها و هي وفق تدرج النوعية: النصي noc ?y السبط Sabath الصرفج Sarfadj و الحمرا (1).

كل هذه النباتات، و بالأخص العشبية منها، تحب التجمع، و في بعض الأحيان لا تنتج مقاطعات شاسعة إلا نوعا واحدا. النصي نبتة اجتماعية بامتياز لكن النفود يكشف عن مزاياه بصفته مرعى صالحا بشكل خاص في شتاء ماطر (2). بضع

---

(1) الأرطي yerta هو ال Colligonum Comoserm المرجح أنه مماثل لأرض الصحراء، و النصي Noc ?y و الصبات و الحري Sebot هو Arthratherum Plumosum الصحراوي المطابق بالتاكيد لل neci راجع (Arthratherum Pungens ص 1044) هو ال I المجلد Dictionnaire Arabe كازيمرسكي، القاموس العربي كل هذه النباتات هي جزء من النباتات الصحراوية و كذلك Anvillea Radiata هو ال Arfej أو Sarfadj الصرفج الفرا و الحمرا اللتان لا نستطيع ان نعطي مرادفا دقيقا لهما [التحرير].

(2) الأمطار ليست كثيرة في النفود، لكنها أحيانا غزيرة جدا. السيد غوارماني يروي أنه خلال اجتيازه الصحراء (هطل المطر مدة 36 ساعة في 11 و 12 مايو (أيار).

ساعات من المطر تكفي لتبرعم الحبوب التي يعج بها رمل النفود و بعد خمسة عشر يوما يغطي الأرض بساط من الخضرة من مختلف أنواع النباتات بأوراق سميكة و يمكن فيها إطلاق الإبل و Asoub(مملوءة بالعصارة. هذه الفترة هي" العشب" (1 الخراف في النفود دون الاهتمام بإروائها. فطالما" العشب" قائم لن تحتاج إلى تناول الماء.

أول فكرة تتبادر إلى الأذهان حول أصل طوبوغرافيا النفود، هي أن الأفلاج تكونت بفعل الأعاصير أو الأمطار المدرارة التي لا بد أنها تجتاح المنطقة من وقت إلى آخر، و لكن سرعان ما نتخلى عن هذا الافتراض لدى رؤية تواتر و تماثل الأفلاج. و إذا افترضنا أنها تكونت بفعل الريح فبفضل الريح أيضا تزول. غير أن شيئا من هذا القبيل لا يحصل. البدوي يؤكد لك أنه لا وجود أبدا لرياح عاتية في النفود فحسب، بل إنه لم يلاحظ تغييرا في وضع أو موقع فلج طيلة عشرين و ثلاثين و أربعين سنة من التجوال فيه. لكن ثمة أفلاجا لاحظها البدوي بسبب أحجامها الكبيرة و شكلها أو أعماقها و من بينها عيون قفيعة و البيضا المذكورتين آنفا و المعروفتين منذ أجيال.

و بالرغم من ذلك فإني لا أجرؤ على القول مع العربي أو مع دليلي إن النفود ثابت لا يتغير بل إنني أؤكد عكس ذلك مستندا في ذلك على الوقائع الآتية:

1) لقد صادفت مرات عدة مساحات ممهدة تبلغ 40 50، و 60 هكتارا لا يمكن تفسير وجودها بغير الأفلاج المردومة. و قد استطعت على سهلين كبيرين منها تتبع الحدود العليا لجدران الفلج القديم إلى الغرب.

2) الرياح السائدة في النفود هي الرياح الغربية [2] و الدليل على ذلك يتمثل أولا في انحناء كل النباتات نحو الشرق، ثم في الحاجز الرملي الموجود شرقي كل الدغال أو الشجيرات و الجذوع العارية في الغرب. هذه الملاحظة تبرهن في الوقت نفسه أنّ النفود ينتقل من الغرب إلى الشرق. و إذا كان ينتقل فمن الواضح أنه لا ينتقل بكليته، و أن الريح لا تحرك إلا الطبقات السطحية و أن الجزء الاكبر من الرمل المجروف يقع في الأفلاج. يمكننا الاستخلاص من هنا أن حركة النفود الانتقالية

---

(1) العشوب: موسم المراعي [التحرير].

(2) حول رمال و رياح الصحراء في مجلد Duveyrierقارن من أجل ظواهر مماثلة تقرير السيد دوفيريه

La Comission suPe? rieure Pour l'examen du Projet de mer inte? rieure de M. le Commandant Roudair, 2881

ص 279- 295 [التحرير].

بطيئة جدا حاليا بسبب العقبات التي تصادفها في التلال و الكثبان العالية و لأن معظم الرمل المنقول، إن لم يكن كله، تبتلعه الأفلاج. إذا صحت هذه النظرية، يفترض أن تكون الأفلاج قليلة أو معدومة في الطرف الغربي من النفود إذ لا بد أنها ردمت أولا. غير أنني لا أملك أي واقعة مؤكدة لأوردها بهذا الشأن و البدو الذين استعلمتهم لم يقدّموا سوى معلومات متناقضة كما أن الوضع في شرق النفود، لا يضيئ مطلقا على الموضوع إذ إن بعض نقاط الاستدلال فيه معروفة منذ وقت قصير جدا لنتمكن من إعطاء إيضاحات.

تبقى مسألة واحدة للإيضاح و هي الأهم. و مرد عدم معالجتي لها في البدء هو أنني لا أملك معلومات لحلها و أريد طرحها فقط ألا و هي أصل النفود. لقد ظننت فترة من الزمن أن هذا الركام الهائل من الرمل قد يكون نتيجة تحلل صخور من الصلصال الرملي تقع غربا و بالأخص جنوب- غربي النفود و التي تشكل بقاياها جبال مسما، عوجا، حلوة، عدنان، حلوان، خلا إلخ ... و لكن إلى جانب كون حجم النفود الضخم يبدو لي أكبر بكثير من الصخور التي قد تكون قد وجدت في المناطق المذكورة أعلاه، لا بد من افتراض سيطرة رياح مختلفة عن الرياح السائدة حاليا. و أخيرا الاعتراض الأكبر يكمن في تفسير تكوين الأفلاج. في هذه الظروف، أعتقد أن الحذر يقضي بانتظار ملاحظات جديدة سعيا وراء تفسير ظاهرة تكوين النفود.

علماء الجغرافيا العرب القدامى كانوا يعرفون النفود تحت اسم الضاحي و الطعوس و يتذكرون خصائصه المتمثلة بهذه التلال الرملية و غياب الماء و شجيرة الغضا و النصي. أما اليوم فاسما الضاحي و الطعوس اصبحا مجهولين و لكن في المقابل يستعمل البدو حاليا اسم الرمل العالي [1] بينما سكان المدن في الجبل يطلقون عليه اسم النفود باستمرار.

فور الخروج من الجوف و خلال اجتياز الهضبة الصخرية، نشاهد على مسافة عشرين كيلومترا في الجنوب- الغربي، رأس سلسلة من الجبال تمتد من الشمال- الشرقي إلى الجنوب- الغربي على امتداد 40 كيلومترا. إنه جبل ثوي Theoui الذي يحيط به النفود و لا يحبس الماء أبدا عند ما تمطر.

هل يجب مطابقة هذه الصحراء مع الدهناء؟، و هي أرض شاسعة تعود لبني تميم

---

(1)Ramel Aaly [أي" الرمل العالي" [التحرير.

و تقع شمال- شرق جبل شمّر في مكان آخر، يصفه هماكر على النحو الآتي بالاستناد إلى قاموس عربي قديم [1]" الدهناء الواقعة في أراضي تميم تمتد من حرانHaran حتى رمل يبرين". إنها من أخصب مراعي الله بالرغم من افتقارها للماء.

و لكن عند ما تكتسي الأرض بالخضرة في الربيع، يقيم العرب فيها تجمعا كبيرا و يقولون إن هواءها صاف جدا و إن أحدا لا يصاب فيها بالحمّى إلخ ... هذه مسألة احتفظ لنفسي بمعالجتها لاحقا.

لم نحثّ الجمال و لم نقطع في اليوم الأول سوى 22 ميلا في عشر ساعات سير. لأننا لم نكن في عجلة من أمرنا، و على الرغم من الريح الشرقية فقد كانت الحرارة محتملة جدا بفضل نسمة خفيفة ظلت تنفح كل النهار. فقد كان مشهد النفود جديدا و غريبا و قد وجدته ساحرا.

في اليوم التالي، وصلنا إلى وادي شقيق في التاسعة. اذ انطلقنا منذ الثالثة و النصف للاستفادة من برودة الصباح.

يتراوح عرض وادي شقيق ما بين كيلومتر و كيلومترين و حركة أرضه مضطربة جدا و قعره حجر و منخفض عن مستوى النفود بمسافة 40 إلى 50 مترا. في بعض الأماكن من مجرى النهر، يبرز الصخر و في أماكن أخرى تتكون الأرض من شظايا صغيرة من صوانات قداحات البندقية (صوان عسقلي) و تتناوب التلال الحجرة مع تلال من رمل النفود. و بقدر ما سمح لي مظهر الأرض بتكوين رأي، فلا بد أن يكون وادي شقيق يستقبل جزءا كبيرا من مياه النفود المحيط، مشكلا نوعا ما قمعا للآبار التي تحمل الاسم نفسه و ربما أيضا لآبار الزهيري El Zehry .

وصلنا إلى بئري الزهيري في الحادية عشرة. و بالرغم من قطرهما الذي يجاوز المترين، فإن نور النهار لا يصل إلى قعرهما و لم نتمكن من رؤيته. و قبل إنزال السطل و الحبال، رمى محارب حجرا للتأكد من وجود الماء في البئرين فرد صوتا أصمّ.

و الحجر الثاني و الثالث و الرابع أعطت النتيجة إياها في البئرين. لقد امتلآ بالرمل بفعل هبوب الريح. و بعد ما تأكدنا تماما من ذلك غادرناهما متجهين نحو الغرب، فوصلنا بعد ساعتين إلى بئري الشقيق و كان فيهما ماء.

---

(1)

H. A. Hamaker, Specimen Catalogi Coc. Oriental. Bible Acad. Lugduno- Batavae, Lug.

Bat ., ص. 101 1820

بئرا الزهيري اللتان تتساويان في عمقهما مع بئري الشقيق، تغوصان في التربة نفسها و من المرجح أن تاريخهما يعود إلى الحقبة نفسها، غير أننا لا نعرف لهما سوى اسمهما الأخير و في حد علمي لم يجر قط ذكر اسم البئرين الأوليين.

السيد غوارماني الدقيق جدا في اصطلاحات الصحراء لم يرهما، لذا فهو لم يذكر سوى بئر" شقيق" الذي يقول إن طلال بن رشيد قد دمره ليمنع غزوات الرولة. كل الرحالة الآخرين يقولون إن لهذه الآبار جدرانا. و الحقيقة هي أن عبر طبقة الرمل التي تبلغ سماكتها ما بين 7 و 8 أمتار، تتألف الجدران من حجارة مقصّبة وضعت دون ملاط. أما باقي البئر فقد حفر في الصخر بشكل بدائي. حافات الآبار بليت و باتت مصقولة بفعل الحبال التي ترفع السطول منذ قرون.

بالقرب من البئرين كانت بعض الأسمال مبعثرة على الأرض، روى لي محارب بشأنها قصة محزنة تدعوا الى الرثاء. ففي الأيام الأخيرة من شهر نيسان الماضي، غادر درويش جبه قاصدا الجوف سيرا على الأقدام وحيدا لا يحمل معه سوى قربة صغيرة فيها بضعة ليترات من الماء و قليلا من الطحين. و يبدو أنه وصل إلى بئري الشقيق و لكن لافتقاره الى الماء منذ يوم أو يومين و من دون حبال و لا دلو لسحب الماء من البئر مات ميتة تدعو للشفقة. و قد رأى جثته بعض الفرسان الذين انطلقوا من حائل بعد عشرة أيام. هل فسدت المياه لطول ركودها بسبب عدم سحب الماء منها منذ فترة طويلة؟ أم ربما بسبب رمي جثة الدرويش في البئر سأل محارب؟ فالواقع هو أن مياه البئرين كانت تفوح منهما روائح نتنة لا تحتمل من حامض الهيدروجين المكبرت و حتى الجمال اشمأزت. و مع ذلك فقد اضطررنا إلى ملء القربة التي أفرغناها منذ مغادرتنا الجوف.

كانت حرارة الماء في الدلاء الأخيرة التي رفعت+ 10 23 درجة. إذا كان النفود مرادفا احيانا في الحديث في البلاد العربية لصحراء خالية من الماء، فإن هذه الصحراء تبدأ فعليا من آبار الشقيق و الزهيري و تنتهي في قرية جبه. غياب الماء هو نقيصة النفود الوحيدة. و هذه النقيصة الوحيدة تجعل اجتيازه مضنيا. و لو لا ذلك لتمتّع الناس و الحيوانات فيه لوفرة العلف و الخشب.

أعتقد أن بوركهاردت هو أول من لاحظ أنه باستثناء الصحراء الكبرى في الجنوب و الربع الخالي و النفود ما بين آبار الشقيق وجبه، لا يوجد في باقي الجزيرة العربية مسيرة أخرى بهذا الطول دون ماء. كان بإمكانه أن يضيف خط الجوف نحو العراق

و هو أكثر طولا إلى درجة يتعذر معها استخدامه. و لاجتيازه لا بد من القيام بانعطافة كبيرة عبر آبار الهازل و لوقه للوصول إلى آبار شبيكة على درب زبيدة (درب الحج العراقي).

ما إن تزوّدنا بالماء حتى استأنفنا مسيرتنا بسرعة. في اليوم التالي، أي في 3 حزيران، لمحنا من مخيّمنا المسائي و من قمة فلج كبير إحدى قمتي صخرتي العليّم الشهيرتين و في 4 حزيران في الحادية عشرة صباحا كنا نخيّم بجوارهما.

انقضى جزء من يوم 3 حزيران و من صبيحة 4 حزيران في اجتياز منطقة النفود المسماة" الفلوح" [1] و هي الأكثر اضطرابا على طول الطريق من الجوف الى جبه و التي تشتمل على أكثر الأفلاج عمقا و أكثر أمواج الرمل إرتفاعا و من ثمّ فهي أشد الأفلاج إرهاقا لدى اجتيازها. و هي في الوقت نفسه أصعبها بالنسبة إلى العرب، إذ إن الانعطافات الكثيرة تجبرهم على الالتفاف حول الأفلاج و اختيار أسهل الأماكن منالا لاجتياز القمم، كثيرا ما تجعلهم يضيّعون الاتجاه و تطلقهم في مسارات خاطئة متسببة بهدر للوقت و بكثير من التعب دون جدوى.

يسبق الفلوح منطقة موجيان و هي أكبر من الفلوح و تستمد اسمها من تلة كبيرة جدا ترتسم بخط أبيض في الأفق من الشرق إلى الغرب خلال عدة ساعات و تحد الفلوح من الشمال.

في هذه المرة على الأقل لم يرتبك دليلي محارب. منذ انطلاقنا من الجوف كان قد سألني ما إذا كان لدي بوصلة و كلما انتابه شك حول الوجهة، التفت إلي سائلا باقتضاب:" الدرب؟" (الطريق)، و بعد مراجعة جهازي كنت أجيبه بمزيد من الاقتضاب مشيرا إلى هدفنا على الطريقة العربية، أي بشق الأفق بخط عمودي و يدي مفتوحة و ذراعي ممدودة.

صخور عليّم السعد أو عليّم النفود و المسماة عادة عليم هي عبارة عن قمتين من الحجر الرملي [2] تتباعدان بقرابة 200 متر و تتجاوزان بحر الرمل، الجنوبي بأربعين

---

(1) الفلوح هي الجزء الأكثر و عورة من النفود و الأصعب للاجتياز. إنها سلسلة من التلال الوعرة و من الوديان» العميقة حيث لا بد من القيام بالتفافات كثيرة في كل الاتجاهات و الابتعاد في كثير من الأحيان عن الخط المستقيم و اللحاق به فيما بعد بصعوبة كبيرة» (ص. 20 غوارماني).

(2) بلجريف يقول خطأ إنهما من الغرانيت.

مترا تقريبا و الشمالي بضعفها تقريبا. من بعيد و حتى مسافة قريبة نوعا، تذكّر قمتاهما برؤوس الأهرام كما تبدو من القاهرة. أما منحدراتهما التي تشكل مع الأفق زاوية تبلغ 45 درجة، فصعبة التسلق لأنها مغطاة بأنقاض الصخور التي تعطيها عن قرب هيئة كومة من الحصى. و على مسافة 4 كيلومترات شمال- شرق صخور العليّم، تلة أخرى طولها كيلومتر واحد و تتجاوز بعض قممها الرمل بعشرة أمتار تقريبا.

رؤية هذه المنارة في بحر الرمل هذا، يولد فرحا إذ بالإضافة إلى أنها تدل على أننا في الطريق الصحيح، فهي تلفت المسافر القادم من الجنوب لحظة رؤيتها إلى أنه قطع ثلث طريقه.

هذه الطريق التي كانت بدءا من الجوف تتجه إلى الجنوب الشرقي، ستتجه الآن انطلاقا من صخور العليّم إلى الجنوب و تميل بضع درجات إلى الغرب.

بعد توقف دام ساعة تابعنا طريقنا. كانت الطريق سهلة نسبيا طيلة باقي هذا اليوم و لكن النباتات شحت عن السابق. الغضا غاب كليا تقريبا و في المقابل" الأرطي" النادرة شمال العليم أصبحت شائعة في الجنوب و لكن نباتات الجمل المفضلة أي النصي و حامض الرمث فلا تزال وافرة.

بدت لي السماء صافية عشية هذا اليوم، فاتخذت موقعا لقياس ارتفاع نجمة القطب و قد منحني ذلك فرصة مراقبة ظاهرة غريبة. كنت لم أزل أضبط أفقي في الزجاج عند ما هب نسيم غربي ناعم. و عند ما أصبحت في وضع المراقبة تعذر علي الحصول على تماس أطراف النجمة التي لم تكن واضحة. من جهة جهاز المسح و لولب التوقف كانا لا يعملان إلا بصرير. فتوقفت حالا و اكتشفت انه مهما كان النسيم ضعيفا فهو يحمل رملا في غاية النعومة يشوّش الصورة المعكوسة بتراكمه على الأفق و في الوقت نفسه يملأ كل أجزاء جهاز المسح بالرمل.

في اليوم التالي (5 حزيران) انطلقنا منذ الثانية فجرا للاستفادة من البرودة. و لكن بعد نصف ساعة اضطررنا إلى التوقف. كان الليل حالكا و قد اختفى كل أثر للدرب فجأة فعدلنا عن السير حتى بواسطة البوصلة. و انتظرنا بوادر الفجر الأولى ممددين على الرمل فيما كانت جمالنا التي لم نتركها تغيب عن نظرنا، ترعى و هي محمّلة.

قرابة السادسة و النصف صباحا التففنا حول فلج كبير يحمل اسم عيون قفيعة لأن

قعر الصخرتين يشبه عينان طويلتان ضخمتان. و بعد ربع ساعة فلج ثان بأحجام الفلج الأول نفسه و لكنه لا يحمل اسما. قعره هو أيضا من الصخر العاري. قرابة الثامنة مررنا في طريقنا بقرب كومة من الحطب أضاف إليها محارب بضعة أغصان و تدعى" سميحة". و أضاف دليلي أن قصة حب ترجع إلى ألف عام ترتبط بها. هذا النصب الخشبي الذي شيّد تخليدا للموت يخدم منذ ذلك الحين على أنه مرقب لاجتياز النفود.

قرابة الواحدة و النصف من بعد الظهر، التففنا حول فلج كبير يحمل قعره بقعتين ضخمتين بيضاوين. إنه عمق سجيلي يطفو هنا و يبدي مظهر الأرض المحيطة بآبار الزهري و الشقيق. هذا الفلج يدعى البيضا.

أسجل هنا للمستكشفين في المستقبل خصوصية لافتة للانتباه. فبين سميحة و فلج البيضا نمرّ على تلة رملية نستطيع من قمتها أن نرى في آن واحد قمة جبل جبة و قمة أعلى صخرة للعليم.

الطريق التي قطعناها اليوم تجتاز منطقة من أهدأ مناطق النفود. فلا وجود لذيول الرمل شرقي الشجيرات، و لا الشجيرات محنية بفعل الريح في أي اتجاه. و لكن اللافت أكثر هو أننا رأينا طوال اليوم آثارا عديدة لأخفاف الجمال و أظلاف الغزلان و بقرات الواحات (1) التي لا تلبث الريح أن تمحوها. و قد أزالت هذه الآثار العديدة كل تردد بشأن الاتجاه الذي يجب أن نسلكه، فما علينا إلا أن نتبعها.

اليوم السادس و الأخير منذ مغادرتنا الجوف كانت إلى حد ما نظير اليوم الذي سبق وصولي إلى هذه المدينة. فمياه بئر الشقيق تسببت بجعلي مريضا بالرغم من أني غليتها مع الفحم و خففتها بالشاي. صرت أعاني التعب و القيظ و أود الخروج من النفود. تلك كانت أيضا حال رفاقي الذين أصبحوا فجأة شديدي التجهّم.

انطلقنا في السير في الواحدة بعد منتصف الليل و لما كان الليل حالكا طلب مني محارب قنديلي فأشعلته و راح يسير في الطليعة على قدميه. سارت الدرب الآن دون انقطاع و ما كان علينا سوى أن نتبعها. النباتات أصبحت أكثر ندرة منها في الأمس و كذلك بقيت آثار الجمال عديدة. في الثانية عشرة و النصف ظهرا، وصلنا فجأة أمام

(1),Alcelaphus bubalus ,le Bubale de Pline [التحرير].

جبل جبه. و أبعد بقليل، رأيت الى اليسار في منخفض أرض، سهلا كبيرا ناصع البياض كأنه" سبخة". في هذا القعر قرية جبه التي لا نراها بعد إذ تخفيها كتل صخرية. نسير ساعة بعد و فجأة من قمة آخر تلة رمل نكتشف كل الوادي. في العمق يبدو شريط طويل من شجر النخيل محاطا بجدران، تختبئ فيها القرية.

عند ما نطل فجأة على هذا الحوض الشاسع بانعكاساته الفضية الكامدة التي يتمايز عليها اخضرار النخيل الجميل بعد ما توالى أمام أعيننا على امتداد أيام لون النفود الزهري الرتيب و عند ما تنير كل هذا شمس الظهيرة نظل مبهورين أمام لوحة تبدو خلابة.

قبل دخول جبه أسمح لنفسي بإبداء بعض الآراء حول النفود.

من الصعب جدا تحديد مسار الخط المتبع لاجتياز النفود لأننا نلف باستمرار تقريبا حول الأفلاج، فلا شئ سوى تعرجات و صعود و هبوط. أما الطريق الفعلية أو الدرب المتبعة كتلك التي كثيرا ما تشكل الطرق في الصحراء، فلا وجود لها إنما نتبع دائما اتجاها. و مع إقراره بأن هذا الاتجاه" يحمل الاسم غير الملائم، الطريق" إلا أن السيد غوارماني يروي أن" الدرب من جيوف- عامر هي من صنع بني هلال" (1). و في سبيل ذلك ردمت و ديان و سطحت تلال و سويت أرض النفود الرملية المضطربة كبحر هائج قدر الإمكان.

راضي، دليل السيد و السيدة بلانت روى لهما أنه تحت الرمل، طريق معبدة بالحجارة أنشئت بحجارة جلبت من جبل شمّر. و كان بإمكان المسافرين أن يسألاه لماذا أتت هذه الحجارة من جبل شمّر طالما أن حجارة جبل الجبة هي أقرب بمسافة يومين سيرا على الأرض، و لكن من الواضح أن هذه المعلومات فيها خطأ.

لاجتياز النفود هناك درب واحدة هي بعرض قائمة الجمل 25 إلى 30 سنتمترا علما بأن هذا المسار يختفي في الأماكن التي تلعب فيها الريح. لدى اجتيازنا الفلوح، رأيت آثار جمال ممحية فورا مع ريح ضعيفة نسبيا. فالرمل كان قد عاد منسابا كبحيرة ماء على مسافة مترين و راءنا.

أفضل دليل و الدليل الوحيد في هذا العبور المضني هو بعر الجمل. فالجمل ينتزع

---

(1)

Itine? raire de Je? rusalem au Neged Septentrional, par M. Guarmani, Bulletin de la Socie? te? de Ge? o-

1856 504 .صgraphie ,Novembre

و هو يمشي لقمة من كل النباتات الموجودة على طريقه. فهو يمضغ و يجتر و يهضم باستمرار دون ان يتوقف. و بعره هو الذي خطط الطريق عبر النفود. و شكل البعر و حجمه هو شكل و حجم تمرة أو زيتونة كبيرة. إنه أسطواني، مخروطي، متماسك جدا، يجف بسرعة و يصبح قاسيا جدا و يظل تحت سماء الجزيرة العربية الرؤوفة سنوات عديدة.

في مناطق النفود الوعرة و المعرّضة للرياح يغطيها الرمل بسهولة، و هذا مفهوم، و لكن النسيم التالي يعود فيكشفها بالسهولة نفسها.

تحمل وجهة عبور النفود هذه اسم خط أبو زايد و أيضا اسم ضيعة عيّاش، و يستعمل الأول في شمال النفود و الثاني في الجنوب.

قضى و الين ستين ساعة لاجتياز المسافة بين الجوف وجبة. و السيد غوارماني قطعها بتسع و أربعين ساعة و نصف الساعة. و حسبت السيد بلجريف أنه قد صرف على الأقل خمسا و ثمانين ساعة. أما أنا فقد اجتزت المسافة في ست و سبعين ساعة. من هنا ترى مدى صعوبة وضع خطوط سير أو خريطة منطقة عند ما لا يشير المسافر إلى السرعة التي سار فيها.

فيما يخصني، على الرغم من جودة مطيتي، كانت لدي أسباب لعدم الاستعجال اذ كنت ارغب في رؤية النفود على راحتي و مراقبته، لذلك فقد سرت تقريبا باستمرار على الأقدام بمعدل 4 كيلومترات تقريبا في الساعة. و لكن أن يكون السيد بلجريف الذي عانى كثيرا في هذه الصحراء و كان مستعجلا للخروج منها قد قضى خمسا و ثمانين ساعة فلا بد أن يكون مرد ذلك الى ركوب جمال من نوعية متدنية جدا. و ما يفسر سرعة و الين هو أنه لم يكن لديه أي متاع و كان يتنقل على ظهر ذلول شراري أي على جمل من أفضل الأنواع في الجزيرة العربية الشمالية. بالنسبة الى السيد غوارماني، نعرف أنه اجتاز النفود مستعجلا على ظهر حصان. و في المحصلة مع ذلول جيد بالإمكان دون إرهاق المطيّة إنجاز هذا العبور في ثلاثة أيام بسهولة.

جبّة

ما إن هبطنا منحدر آخر تلة من النفود حتى وجدنا أنفسنا في سهل جبة التي لا تبتعد أكثر من 500 متر و التي يبدو مظهرها الجديد متعة للعين. بعض

هرمة خارج الجدران تنعش المنظر Ithelغرسات إثل.

على غرار الجوف فإن جبة مبنية من الآجرّ المطبوخ في الشمس. غير أن جدران بعض المنازل مصنوعة من الحصى. الانطباع الأول في منتهى الإيجابية. جدران الأسوار و الأبراج التي تتخللها محفوظة جيدا و مظهرها سار. أما الداخل فلا يتجاوب مع الخارج كما هو الحال في كل مكان تقريبا في الشرق.

الحوض الذي تقع فيه جبة له شكل طوبوغرافي خاص. فهو حوض يبلغ طوله ما بين 8 و 9 كيلومترات من الشرق إلى الغرب و عرضه 5 كيلومترات من الشمال الى الجنوب. أما قعره البالغ عمقه 835 مترا فيقع على مستوى أدنى من مستوى النفود ب 60 مترا تقريبا.

لقد تمت مطابقة جبة بأينا بطليموس [1] مما يثبت عراقة قدمها. و على أي حال فإن الاسمين ذوا دلالة واحدة و معناهما البئر أو النبع. و قد احتفظ السكان بذكرى نبع غزير كان يتدفق من جبل جبه.

السكان البالغ عددهم حوالي 800 نسمة يتحدرون من قبيلة شمّر الرمال. و هي سلالة صغيرة قليلة التطور. و هم غير محبوبين على الإطلاق في الجبل بسبب عدم انفتاحهم و اختلاطهم و بخلهم على الضيف. و تروي الليدي آن بلانت أنها شكت من معاملتهم.

لا وجود لأي زراعة بأستثناء النخيل التي يستخدمون من أجلها قرابة أربعين بئرا تقع مياهها على عمق 12 أو 15 مترا تقريبا، و لا يتبدل مستواها ابدا كما أكدوا لي. الدوالي، و هي عديمة الطعم، و لكنني أفضلها على ماء الجوف. بعض الآبار يعطي مياها مالحة غير قابلة للشرب. الحرارة التي قيست في بعض الآبار التي كانت تسحب منها المياه منذ عدة ساعات كانت في كل مرة تسجل + 9 22 درجة.

التمور صغيرة ورديئة، و يعزو السكان ذلك إلى المياه المالحة، و لكنني أعتقد أنهم هم وحدهم سبب ذلك لأن أشجار النخيل مهملة. الكميات القليلة من الأرز و القمح التي يحتاجون إليها يستقدمونها من حائل. و موقعهم في وسط النفود يسمح لهم لحسن الحظ بتربية بعض قطعان الإبل بسهولة.

---

(1)- A. Sprenger, Die Alte Geographie Arabiens. Aus Grundlage der Entwicklungs geschichte der Semi

1875 .171 .صtismus .Nachdruck D .Ausgabe ,Bern ,

على مسافة 3 كيلومترات غربي القرية، تنتصب بعض قمم الصلصال الرملي و أعلاها هي أم السلمان [(1)]. و قد تسلقتها غداة وصولي إلى جبه، بالرغم من تحذيرات السكان الذين قالوا لي إنه لا يوجد طريق اليها، و قد تأكد لي صحة ذلك. إلى مستوى ثلثي الارتفاع لا يواجه الصعود أي صعوبة. و لكن من بعد ذلك يصبح المنحدر وعرا جدا تغطيه شظايا من الحجر الرملي تبدو و كأنها متفحمة و تشبه في شكلها القرميد المكسّر.

و يبدو و كأن الجبل كان مغطى بقشرة بسماكة 3 الى 4 سنتيمترات تمّ تكسيرها في مكانها. هذه الشظايا هي في حالة انعدام توازن بسبب قوة انحدار القمة لدرجة أن أدنى ملامسة لها تجعلها تسقط جارفة معها كتلة ضخمة من الحجارة. و بديهي في هذه الحالة أن القدمين لا تكفيان وحدهما لبلوغ القمة و هما أقل كفاية للنزول.

عند بلوغي القمة بعد شروق الشمس بقليل، تسنى لي التمتع بمشهد رائع و مؤثر.

ان قمة أم السلمان بمنحدرها الوعر جدا من الجهة الشرقية، تنزل عموديا من الجهة الغربية. و على امتداد مترين، لا يتعدى عرض القمة مترا واحدا بحيث لا يتسع إلا لجلوس شخصين. كانت ريح الظهر تعصف قوية و لا تسمح بالوقوف، فجلست مستندا الى الصخر.

لحسن الحظ لقيت مكافأة على تعبي و آلامي (إذ تجرحت يداي و بالأخص قدماي) برؤية مشهد رائع و بالأخص في رأس أعلى صخرتي العليّم و هو الدافع الرئيس لصعودي.

فإن ارتفاع هذه القمة يسمح لي بالتأكد من مسار طريقي. كما استطعت أن أرى جبلا طويلا قرب الجوف و جبل شمّر في الجنوب و جبل عوثة على مسافة عشرة كيلومترات شرقي جبة.

تبدو لي أم السلمان فوهة بركان لم يتبق منها سوى جدارها الشرقي. هذا الافتراض يفسر و عورة المنحدر الخارجي للقمة من الجهة الشرقية و عموديّة الجدار الغربي.

مغادرتي المفاجئة لجبه لم تسمح لي بالتوغل أكثر من أبحاثي بهذا الصدد لكنني ألفت نظر المستكشفين المقبلين كما أوصي بتسلق القمة لهواة الانفعالات.

و قد سجل جهازي لقمة رأس سلمان، ارتفاعا بلغ 370 مترا فوق مستوى أرض جبة.

---

(1) و الين يسميها مسلمان، غوارماني أمّ سنمان، ام السلمان، كما و أن جبل جبة يشير الى مجمل الجبل الذي تبلغ مساحته ما بين 3 و 4 كيلومترات مربعة. و أعلى قمة فيه لا تزال تدعى رأس سلمان.

و استكمالا لما عرفته عن جبل جبة [1]، لا بد من الإضافة، وفق ما أورده السكان، لأنني لم أعثر على أثر لذلك لدى المؤلفين العرب، أن اسمه كان قديما القطيفة. و إلى ذلك فإن مظهره الموحش و منحدراته المكسوة بالردم أكسبته سمعة سيئة ساهم فيها الى حد بعيد الجن الذين كان لديهم قصر و كنوز مخفية على قمة هذا الجبل في غابر الزمان. لذا يجب عدم الإلحاح على السكان للحصول على دليل أو رفيق تسلّق. يكفي أنهم يسمحون لك بالقيام بذلك و أن يستقبلوك لدى عودتك بينهم إذ لا بد أن تكون رائحة كبريت تفوح منك.

لدى عودتي الى مضافة شيخ عقيل الذي كنت ضيفا عنده، وجدت بدويا يروي أن الأمير محمد بن رشيد قد غادر عاصمته حائل منذ بضعة أيام و أنه موجود حاليا في أم القلبان و هي قرية في النفود تقع على مسافة يوم شرق- جنوب- شرقي جبه التي جاء منها البدوي. فسألته ما إذا كان الأمير سيبقى بعض الوقت في هذا المكان و يعود بعد ذلك الى حائل أو إنه سينطلق في رحلة في الصحراء و لكنه لم يستطع إجابتي.

إلى أم القلبان

كنت أعلق أهمية بالغة على لقاء أمير شمّر. و لم اكن واثقا من الاستقبال الذي سألقاه من الأمير و إن كنت لا أشاطر دليلي المخاوف التي بدأ يكشفها تدريجيا بهذا الخصوص كلما اقتربنا من الجبل، لكنني كنت أفضل أن يستقبلني الأمير بنفسه. دون أن يعكر ذلك تصرف شخص من اتباعه يسيء الي و لا يريد الأمير منعه.

لاحقا، و بعد ما تعرفت بصورة أفضل إلي الرجال و شتى الأمور، تأكد لي أنني حزرت. و منذ عودتي إلى أوروبا، جاءت معرفتي بالمحن التي تعرض لها

---

(1) ليدي آن بلانت تفترض هنا وجود بحر قديما. و لكن من دون نفي هذا الاحتمال قطعيا، فإنني ألفت الى أن تآكل الصخور الواقعة غرب جبة و الذي قد يوحي بهذه الفكرة يمكن أن نعزوه الى سبب آخر. فقد لاحظت مرارا خلال أسفاري خطوطا أفقية عميقة على مجموعات صخرية توحي فورا و بالأخص من بعيد بأنها ناجمة عن ملامسة المياه بالرغم من استحالة القبول بهذا السبب. لذا، لا بد في الغالب من ان ننسب هذه الخطوط الى تفتت طبقة متوسطة تتفتت تحت تأثير كل العوامل الجوية. و إنني أعطي هنا دورا ثانويا للغاية لفعل الريح الذي أعتقد أنه ضخم في كثير من الأحيان.

السيد شارل دوتي في ظرف مماثل لترسخ قناعتي [1].

قررت المغادرة فورا الى أم القلبان. و بعد ما ضمدت كل جروحي التي أصابتني خلال تسلقي و نزولي لرأس سلمان امتطيت الرحل مجددا و غادرت جبة بعد الثالثة مساء.

و بعد ساعتين كنا نخيم قرب صخور عوثة لصنع الخبز. و لم تمض ساعة حتى انطلقنا للاستفادة من برودة المساء و سرنا لمدة ساعتين إضافيتين. و إذ بدا النفود صعبا من جديد أقمنا مخيما لقضاء الليل. ابتداء من جبة و حتى صخور عوثة تخلو الأرض من الرمل و لكنها محرومة أيضا من كل النباتات. إن مظهرها الأبيض يجعل اجتيازها صعبا جدا خلال النهار إذ إن انعكاس النور يرهق العيون.

في اليوم التالي 8 حزيران، انطلقنا في الثالثة فجرا. و على الرغم من تضاؤل عدد الأفلاج المنتظمة فإن النفود لم يكن سهلا البتة فأودية كثيرة تتخلله، و كثيرا ما يبرز الصخر العاري.

لم نتوقف إلا ساعة واحدة في الصباح لتناول الفطور ثم تابعنا سيرنا نحث الجمال باستمرار للوصول قبل هبوط الليل. كلما تقدمنا، كنت أرى محاربا يزداد قلقا من الاستقبال الذي ينتظرنا هناك. فإذا كان استقبالي سيئا ربما تأثر مثلي من غضب الأمير. و من جهة أخرى فإن محاربا يصلّي بانتظام، إذ هو مؤمن حقا و من ثم ليست قيادة شخص غير مؤمن إلى الأمير مسألة سهلة بالنسبة إليه. و قد سألني مرتين أو ثلاث مرات خلال اليوم الأخير بشيء من القلق ما إذا كنت متأكدا و جازما أنني سألقى استقبالا جيدا. فطمأنته و تمكنت من إقناعه تقريبا.

منذ ما قبل الظهر بدأنا نصادف بدوا، إمّا فرادى أو مع قطعان إبل أو ماعز أو خراف. و علمنا من هؤلاء الرعاة أنّ الأمير في أم القلبان لتفقد جزء من قطعانه و أنه باق فيها لبضعة أيام.

قبل وصولنا إلى مقصدنا بساعتين قال لي محارب إنه يستحسن أن يسبقني ليعلن

---

(1) دوتي وصل الى حائل خلال غياب الأمير و استقبله عنبر، أحد عبيده الذي عينه واليا حتى يعود. و قد أصدر عنبر، بالاعتداد الذي يميزه و الذي تبين لي فيما بعد، أمرا الى السيد دوتي بمغادرة أراضي شمر فورا و هدد الرجلين من هتيم اللذين أتيا به بالموت إذا لم يعودا أدراجهما معه من حيث أتوا مع العلم أن السيد دوتي كان مزودا برسالة توصية للأمير من والي المدينة.

(Wanderungen zwrischen Teima, Hail, Khaibar und Bereida, von Charles Mac Doughty Globus, 2881,

ص. 250)

وصولي إلى الأمير. و لكي يزيد من تشريفي و من أجل السرعة طلب مني استخدام ذلولي. كنت امتطي كما في كل رحلاتي جملا رائعا يسري في شراييته دم شراري.

كانت ناقة في السابعة من العمر تثير إعجاب البدو بشكلها الأنيق. فتبادلنا المطايا و رحل مسرعا، سعيدا بمطيته الرائعة.

كلما تقدمنا ازداد عدد القطعان و أصبحت الحركة أكثر نشاطا. كانت رؤية النفود فجأة عارما بالحركة، مشهدا جديدا علينا بعد ما أمضينا أياما في الصحراء المطلقة. و قد حافظت الصحراء على مظهرها الذي بدت فيه منذ مغادرتنا جبه أي إن الأفلاج كانت نادرة و كأن تلالا استبدلت بها كان جزء منها موازيا لطريقنا لحسن الحظ. فبدلا من أن نضطر إلى اجتيازها ما كان علينا إلا أن نسير بمحاذاتها.

قبل وصولنا بدقائق، رأيت محاربا يطل علينا من جديد منفرج الأسارير معلنا أنه قابل الأمير الذي بدا مسرورا و أراد أن يستقبلني على الفور. ما عاد دليلي يتوقف عن الثرثرة ارتياحا و فرحا و يصيح في كل لحظة" الحمد لله"، و هذا ما ردّدته كل مرة بورع.

كنا نهبط عندئذ فلجا ضخما، أحد أكبر الأفلاج التي شاهدتها في النفود حيث تقوم في قعره أم القلبان بنخيلها الأخضر المتمايز بشكل لطيف جدا عن الرمل الأحمر. كانت تسودها حركة هائلة. صفوف لا متناهية من الإبل تطلق كلها خوارها كما تفعل عادة لدى عودتها من المراعي في المساء، تروح و تجيء. و صوت السواني يشنف الآذان.

انبسطت أمامنا ملكية واسعة سرنا بمحاذاتها حتى وسطها و رأينا آنذاك بابا كبيرا بمصراع واحد مواجها الشمال. و بدا في المحيط بعض الرجال بقمصان ناصعة البياض. فمنذ غادرت سورية لم أعد معتادا على هذه النظافة الفخمة. كان هؤلاء الرجال بكوفياتهم الحمراء الصارخة، مزودين بعصي طويلة من أغصان النخيل يبلغ طولها حوالي 60□ 1 متر طردوا بها البدو الجالسين بالقرب من الباب بقساوة شديدة.

اخذ أحد هؤلاء الرجال ناقتي من اللجام و سار بها عبر ممر طويل إلى باحة كبيرة ثم فتح بابا آخر يفضي إلى فناء حيث ترجلت. كان بانتظاري هنا رجل يعتمر كوفية من الحرير الأصفر و عقالا مقصب بالذهب و على كتفيه عباءة سوداء مطرزة بالذهب

حول العنق، يحمل بيده سيفا بمقبض وزينة من الفضة الخالصة، و بادرني ب" السلام عليك" فرددت بتودد" و عليك السلام" فأبلغني تحية الأمير و أنه مكلف بمرافقتي إليه.

أخذني بيميني ليثبت لي أنني في أمان و جعلني أعبر بابا صغيرا فوجدنا أنفسنا أمام حوض يغذيه ماء جار. و أبعد منه يمتد بستان جميل، مزروع بشكل شبه حصري بالرمان يسود فيه ظل و برودة لذيذان.

درنا حول الحوض و وجدت نفسي في حضرة أربعين رجلا مصفوفين بشكل دائري يجلسون جميعا القرفصاء على الأرض. و يمتد السجاد أمام منزل صغير. هنا كان يجلس الأمير وحيدا و ظهره مسند إلى سرجه لدى وصولي، وقف اثنان من المساعدين ليسمحا لي بدخول الدائرة. حييت الأمير فنهض عندئذ و أضاف في رده على تحيتي:" مرحبا" ثم أعطاني يده على الطريقة العربية أي دون أن يشدها ثم قبّل السبابة و جعلني أجلس إلى جانبه.

و سألني بكثير من الاهتمام ما إذا كانت رحلتي موفقة و لم ألق مشقة أو تعبا ثم استفسر عن هدف رحلتي و تطرق إلى هذا الموضوع مرارا ليس في هذا المساء فحسب بل لاحقا أيضا. فهو لا يعتقد أبدا أن العلم وحده يدفع أيا كان للسفر في صحاري الجزيرة العربية حيث لا يرى هو فيها أي شيء علمي على الإطلاق. ثم طلب مني أخبارا سياسية و بالأخص ما قيل في دمشق و حوران بشأن الغزو الذي قام به قبل شهرين في وادي سرحان متوغلا إلى ما هو أبعد من القصر الأزرق إلى ما يقل عن مسافة يوم من جبل الدروز و قد شعر مدحت باشا، و الي دمشق في ذلك الحين، بقلق عميق من جراء ذلك. و حدثني أيضا عن السيد و السيدة بلانت اللذين امضيا ثمانية عشر شهرا في حائل. و قد احتفظ بذكرى طيبة عنهما و لكنه ابدى تعجبا شديدا لرؤية السيد بلانت لا يقبل أبدا فنجان القهوة إلا بعد زوجته و يجعلها دائما تمر قبله، و تجلس دائما في المرتبة الثانية إلخ ... و سألني ما إذا كانت الأمور تجري على هذا النحو عند جميع النصارى. و لكن أكثر ما أدهش الأمير و جميع العرب كذلك هو رؤية ليدي آن بلانت تمتطي حصانا و على اكمل وجه.

بلغ الأمير محمد بن رشيد من العمر ستا و أربعين سنة طوله 65 1 م. وجهه ينضح بالعزم و معبّر. نظره ثاقب و كثير الحركة و هو يتنقل باستمرار من شخص إلى آخر

مما يجعله يبدو دائم القلق. في المقابل ابتسامته سخية و عذبة جدا و لحيته الخفيفة الشعر و السوداء تشهد على أنه بدوي. و هو محدث و يحب الدعابة.

رأيته شديد الاهتمام باستمرار بضيفه، بأن يكون مرتاحا في جلوسه و يأخذ راحته تماما. و قد أوصاني دائما بألا أقلد مواطنيه بل أن أتبع تقاليدنا نحن مؤكدا لي أن ذلك يسعده.

و سرعان ما كسبت وده و قبل وصولي إلى حائل كنت متاكدا من أنه لن يضع أي مانع لإنجاز مهمتي. أما فيما يتعلق بعزمي على الذهاب إلى القصيم و أبعد منه، فقد حثني منذ اليوم الأول على عدم تحقيق ذلك فتلك البلاد سيئة من كل الأوجه كما قال. و أضاف:" ستبقى معنا" و لكي أتكيف فورا مع المحيط الجيد الذي سيصبح محيطي بعد الآن، شرع يعطيني أسماء ضباطه الرئيسين الماثلين أمامنا في الدائرة.

إنما هاكم سمة تصور المسلم، و هي من وراء المظاهر الأكثر توددا و لطافة تسمح ببروز الوهابي.

منذ اللحظات الأولى من محادثتنا، بعد تبادل اللياقات، و ما إن عرف نيتي بالإقامة في بلد عربي، حتى شعر بوخز ضمير إزاء البقاء طويلا على اتصال مع شخص غير مؤمن، لكن فكره المتنور من نواح أخرى دفعه إلى كتم هذا الوخز. و لكي يريح ضميره سألني بغتة ما إذا كنت أعرف شهادة الدين الإسلامي فأجبت بالإيجاب فقال" ردّدها" فتلوت في الحال بمنتهى الجدية:" لا إله إلا الله محمد رسول الله".

الدقة تقضي بأن اذكر كلمة" أشهد" قبل الجملة المقدسة، إلا أنه شاء التغاضي عن هذه الثغرة. و لم أكد ألفظ الشهادة العزيزة على المؤمنين و التي استقبلها كل الجمع بهمس مؤيد، حتى صاح الأمير فرحا:" و الله انت مسلم عندي". منذ تلك اللحظة التي لم يعد يخالجه فيها أي تأنيب ضمير، تحرر من كل قيد و عاملني كأخ في الدين، أي كندّ له.

و في ختام دراسة العادات الموجزة، أضيف أنه طوال إقامتي في الجبل و باستثناء مرة أو مرتين أصابتني بسبب حسد أشخاص آخرين، فقد تمتعت بحظوة الأمير و ابن عمه حمود و كل عائلتهما الثابتة. فكنت أدخل بحرية تامة إلى كل مكان و الجميع كانوا ينادونني بالأخ و الصديق. و في نهاية إقامتي، قال لي الأمير مرارا إنني اصبحت الآن واحدا منهم و إنني شمّري.

أوفر حظا من بالغرايف وليدي آن بلانت. لم أختبئ قطّ لتدوين ملاحظاتي و كتابة مذكراتي. و في كثير من الأحيان عند ما كنت أرغب في الحصول على الكتابة الصحيحة للأسماء الجغرافية، كان الأمير يكتبها لي بنفسه. الرسائل العديدة التي تسلّمتها من الأمير و من أصدقائي في الجبل منذ مغادرتي الجزيرة العربية تثبت لي أنني تركت ذكرى طيبة فعلا. و أنا مدين للأمير بكل ما أنجزته في مهمتي و سأحفظ له امتناني دوما.

لقد بذل جهده باستمرار لثنيي عن القيام برحلاتي في القصيم و في الحجاز لأن الخطر فيهما كان، كما تبين لي لاحقا، حقيقيا. و لكن عند ما أعطاني موافقته، بذل كل ما في وسعه لضمان نجاحي. فعلى الرغم من غرابة الأمر و خطره على هيبته كأمير مسلم و وهابي كان دوما يعطيني رسائل توصية عند ما كان يرى ذلك ضروريا.

بعد وصولي بأربعة أيام، غادر الأمير و حاشيته أم القلبان للعودة إلى حائل.

في فجر 12 حزيران كان الجميع ممتطين الرحال فسرنا ثلاث ساعات خببا باتجاه الجنوب الشرقي. في ختام هذا الوقت وصلنا إلى أحد حصون جبل شمر المسمى الاصور. و كانت مطابخ الأمير التي سبقتنا بوقت طويل، قد أعدت الفطور. تلت الوجبة قيلولة طويلة و بعدها وضعت علامة تسديد من ورق على صخرة مجاورة و مارسنا الرماية لمدة ساعة. و اكتشفت بهذه المناسبة أن الأمير كان في عداد رماة الجبل الماهرين.

الاصور هو مورد حيث تحبس مياه المطر على ارتفاع معين في الجبل في شق غرانيتي، بقي فيه ماء إلى ما بعد رحيلنا.

على مسافة ساعة سير من أم القلبان، توقف النفود فجأة كما بدأ. و الحد الفاصل حاد إلى درجة يمكن معها وضع قدم في النفود و الأخرى على الغرانيت الذي يليه.

عند الثالثة من بعد الظهر، امتطينا الجمال و غادرنا الاصور. و خببا وصلنا بعد ساعتين إلى اللقيثة [1] و هي قرية جميلة يملك فيها الأمير ملكية رائعة من النخيل و أشجار الفاكهة. فقضينا الليل فيها.

---

(1) و الين يسميها لقيطة، غوارماني ليشيته، السيدة بلانت الاميتت.

فور وصولنا، قدم لنا شيء من اللبن و الفاكهة: بطيخ و شمام لذيذان و عنب لم ينضج بعد.

حائل

في اليوم التالي انطلقنا في الرابعة و النصف صباحا و وصلنا بعد ساعتين إلى حائل [1] عاصمة شمّر.

عند ما نصل من الشمال، تكون حائل مخفية، بفعل ارتفاع بزلتي يبلغ 100 متر بالحد الأقصى و يمتد من جبل أجا إلى جبل سلمى شرقي حائل. نجتاز هذه السلسلة الصغيرة عبر ممر يعلو 20 مترا تقريبا عن الأرض. و عند ما نصل إلى ذروة الممر، يتراءى لنا فجأة منظر حائل الفرح. إلى اليسار و على مسافة قريبة جدا تهيمن كتلة سمرا السوداء على المدينة كليا. و إلى اليمين و على بعد بضعة كيلومترات، ينطلق خط أجا جنوبا على مد النظر. شمالا و غربا تتناثر خمسون خيمة تقريبا لكل قبائل شمر. يأتي هؤلاء الزوار لبضعة أيام لتصريف منتوجاتهم و شراء بعض الحاجات ثم يعودون الى الصحراء. إنهم ينعشون الجزء الخارجي للمدينة بطريقة جذابة جدا.

لرغبتي في تقديم لمحة عن الطريق من سورية حتى جبل شمّر، أسهبت حتى الآن في التفاصيل. أما اليوم فإنني لن أعطي سوى ملاحظة جغرافية عن المناطق التي قطعتها، لذلك سأرجئ إلى وقت لاحق فصل العادات و التاريخ و المعطيات الإحصائية. حاليا أقدم وصفا سريعا لمختلف خطوط سيري. و من ثم أقدم لائحة البلدات التي تؤلف حاليا إمارتي شمر و القصيم اللتين عبرتهما.

لقد جعلت حائل مركز عملياتي لأتمكن من تنفيذ سفرات طويلة جدا بسهولة اكبر.

و قد سمح لي ذلك بجعل متاعي خفيفا جدا فلا احمل إلى جانب أسلحتي و معدّاتي العلمية، سوى بساط و بطانيتين. أما المؤن و الماء فكان البدوي أو البدو المرافقون لي كمرشدين يحملونها.

---

(1) غوارماني Kail بلجريف Ha'yel .

كنت أترك صناديقي في بيتي في حائل خلال غيابي و يودع مفتاح المنزل لدى أحد ضباط الأمير الرئيسين المدعو حمود الإبراهيم المجراد[1].

و اني أعرض فيما يلي تعداد مختلف رحلاتي وفق الترتيب الذي أجريتها به:

(1) رحلة في عقده، وادي جبل شمّر (30 حزيران).

(2) في جبل سرا (9 تموز).

(3) في جبل شمّر (17 تموز).

(4) رحلة الى القصيم، الى عنيزه و العودة (31 تموز).

(5) رحلة في جبل جلديه (22 أيلول).

(6) رحلة في الحجاز، الى تيماء، الهجر أو مداين صالح، العلا و العودة عن طريق خيبر و الحايط (30 تشرين الأول).

(7) من حائل إلى بغداد.

(8) من بغداد الى دمشق عبر الحماد.

عقدة

عقدة [2] هي سلسلة من الوديان الصغيرة داخل جبل شمّر، و الممر الوحيد الضيق جدا الذي بعبرها يقع على بعد 9 كيلومترات تقريبا جنوبا، 70 درجة غربي حائل. و قد ظهر اسم عقدة هذا للمرة الأولى كاسم جغرافي في الجزيرة العربية في تاريخ الوهابيين ل كورانسيز [3] في مدونة أسماء بلدات الجبل. غير أن هذا المكان كما برهنت ذلك لاحقا، هو الأول و على الأرجح الوحيد على امتداد زمن طويل الذي سكنته قبيلة طيء التي قدمت من الجنوب.

---

(1) بديهي ان جيش أمير شمّر ليس جيشا بالمعنى الأوروبي للكلمة. فلا تجنيد و لا ثكنات. و هو يتألف من خمسمئة رجل تقريبا معظمهم من مدن الجبل يستخدمهم الأمير بشكل خاص للقيام بغزواته و لفرض و جباية الضرائب من القبائل الرحل و اخيرا لمواكبة قافلة الحجاج العراقيين من بغداد الى مكة ذهابا و ايابا. و هم لا يتقاضون اجرا ثابتا و لا يتلقون إلا ما هو ضروري لحياتهم. ما يقارب العشرين منهم الذين تميزوا بخدمات أسديت أو بالأحرى بذكائهم و الذين يلازمون القصر باستمرار و لا يفارقون الأمير، يلقون معاملة أفضل. من بين هؤلاء حمود الذي سبق للامير ان أرسله مرارا في مهمات استثنائية الى مصر لدى الخديوي.

(2) عقده عند: Ritter ,Die Erdkunde von Asien ,Arabien II ص. 353 و عند غوارماني اكده، و عند بلانت اجده

(3) Corancez, Histoire des Wahabis, ed. SyIvestre de Sacy, Paris, 1810 ص. 118 ص. 214

و لا بد من البحث في عقدة نفسها عن مكان سكن حاتم طيء أكرم قدامى العرب.

يتم الدخول الى عقدة من سهل حائل عبر ممر تضيق فتحته التي تبلغ بداية قرابة مئة متر تدريجيا حتى تصل ما بين 25 إلى 30 مترا. و قد بنى الأمير في هذه النقطة حائطا بارتفاع 3 أمتار و بسماكة متر لقطع الممر كليا. و قد تركت في طرف الحائط الجنوبي فتحة تبلغ 5 1 متر للمرور.

و ما ان نجتاز هذا السور حتى نجد أنفسنا في واد صغير يضم قرية القني

El Qeny

التي تعدّ 150 نسمة. و ابتداء من هذه البلدة، تنفتح الوديان من كل الجهات و جميعها على مستويات أعلى من الوادي الأول و من ثمّ أعلى من سهل حائل أيضا.

الوادي التالي، وداي القني، يضم قرية أكبر من الأولى تدعى الويبار و تعد 300 نسمة.

هاتان المقاطعتان الأوليان هما الكبريان من حيث تعداد السكان و من حيث مساحتهما. في الوديان الأخرى تتوزع ثماني مجموعات سكانية صغيرة مجموعها 500 نسمة و هذه هي أسماؤها: النبيتة، السقا، حسنا، المعا، غضيان، الحايط [1] رميض و العليّا.

في قرية الحايط جنوبي القني و الويبار جزء من ترسانة ابن رشيد. إنه مبنى من الآجرّ ككل مباني الجبل يحتل مساحة تقارب 80 مترا مربعا إنما تجاوره بعض المباني أكثر حداثة شيّدها الأمير الحالي.

الأمير طلال هو الذي شيد المبنى الرئيس مكان مبنى آخر هدمه و من المرجح أن قبيلة طيىء شهدت هنا اول استقرار لها منذ احتلالها الجبل لدى هجرتها من الجنوب. و حين وصل محمد، الأمير الحالي، الى الحكم، كان هذا المبنى الترسانة الوحيدة لسلالة شمر. لكن محمد الذي كبر القصر الذي بناه الأمير طلال، نقل إليه القسم الأكبر من الأسلحة التي كانت محفوظة في عقده. أما اليوم فإن هذا القصر ببابه الكبير المغطى بلوح من الفولاذ بات مجرد مخزن للطعام و لم يعد يحوي إلا مخزونا كبيرا من التمور و بعض السيوف و البنادق بفتيل التي لا قيمة لها. أما شجرات نخيل الحايط فملك الأمير ابن رشيد الخاص.

ما يميز عقدة هو النخيل الذي لا يحتاج إلى ري بفضل موقع الوديان بقاعها

(1) يجب تمييزها عن الحايث في حراه شرق- شمال- شرق خيبر.

الغرانيتي المملوء بالبطحا أو حصى الغرانيت [(1)] حتى ارتفاع 4 أو 5 أمتار و التي تشكل التربة. القاع على شكل أحواض تحجز ماء المطر الذي يهطل على عقدة في هذه الأحواض الطبيعية الصغيرة حيث تغوص جذور النخيل.

في كل الأماكن الأخرى، عند ما تكون المياه على عمق بالغ لا تستطيع جذور النخيل الوصول إليها، يجب حفر آبار واسعة جدا و سحب الماء منها عشرة أشهر على اثني عشر بمعدل خمس عشرة ساعة يوميا على الأقلّ. كما إن ذلك يجبر على شراء الإبل و العناية بها لهذا الغرض كذلك يلزم رجل لتشغيلها. و لكن سكان عقدة السعداء لا يعرفون شيئا من هذا و لا يأبهون. و جل تعبهم ينحصر في أن يتمنوا أن تمطر في الشتاء. و هم يتمادون في سعادتهم إلى حد الكسل إذ إنهم لا يبذلون أي عناية بشجرات النخيل التي كان بالإمكان ان تكون أجمل و اكثر إنتاجا. و على أي حال فإن ضعف نخيلهم كان و بالا عليهم خلال شتاء 1879- 1880 الذي انعكست قسوته على كلّ أرجاء الجزيرة العربية. فكثير منها مات و عدد أكبر منها لن يعطي سوى محصول لا يذكر لفترة طويلة.

و قد أكد لي حمود و المجراد بأن عقدة تملك سبعين ألف شجرة نخيل و قد يكون هذا صحيحا. يعود حوالي خمس هذا العدد إلى الأمير و خمسان إلى البدو المقيمين في البلدة طوال العام و الباقي يعود إلى شمر الرحل.

يأتي هؤلاء الأخيرون من الصحراء في شهر مايو (أيار) لإخصاب إناث شجرات النخيل فيبنون لأنفسهم أكواخا من ورق النخيل و يقيمون هنا حتى القطاف في أيلول.

أحد افراد العائلة يبقى في الصحراء مع القطعان. و يغتنم عدد منهم إقامتهم لزرع البطيخ و الشمّام و يسقونها من مياه الآبار. و يبيعونها في حائل.

بما ان جزءا من السكان بدو فإن عادات الصحراء هي السائدة في عقدة. و تتمثل بالنسبة للغريب الذي يصل إليها بالضيافة. خلال الأيام الثلاثة التي أمضيتها فيها، اضطررت الى الدخول إلى تسعة عشر منزلا أو خيمة حيث قدمت لي القهوة و طبق كبير من البطيخ أو الشمام المقطع مكعبات. أقول" اضطررت" إذ إن أحدهم ما ان يلمحني سائرا حتى يأخذ مطيتي من الرسن و يقودني الى بيته متجاهلا ملاحظاتي.

---

(1) كما كتبها السيد هوبير تعني باللغة الفصحى" مجرى Bathha ثمة خطا هنا على الارجح. فالكلمة العربية بطحا و يكون السيد هوبير قد خلط Wadai نهر واسع جاف مملوء بالحصى" و قد احتفظت بهذا المعنى حتى عند عرب الجزيرة العربية بين المحتوى و الحاوي. [التحرير]

صحيح أن ما كان يقدّمه لي قليل و أن هذا القليل كان يعوضه تعويضا سخيا استقبال الشيخ الفرنساوي، صديق الأمير و الذي سيكون له الحق لاحقا بأن يناديه الأخ. إلا أنه لا بد لي من التصريح بأن البدوي الذي كان يراني في المساء خلال سعينا لإيجاد مأوى، كان يبدي مسارعة مماثلة للتمسك بي مع علمه بأن هذا سيكلفه خروفا و إن حصته منه ستكون صغيرة نظرا لوجود رجلين من رجال الأمير معي.

من بعد ما ذكرته عن طوبوغرافية عقدة التي لا تملك سوى ممر مقطوع اصطناعيا بجدار، و المحاطة كليا بصخور من الغرانيت لا يمكن الوصول إليها من الخارج، ندرك كيف إن أمير حائل يعتبرها كمعقل و ملجأ منيع في حال الاجتياح لكونها موفورة التموين و في حماية فرقة شجاعة. و أنا من هذا الرأي شرط ان لا يكون المجتاحون قوات أوروبية و أن لا يكونوا متسلحين بمدفع لاقتحام الثغرة.

جبل سرا

في إحدى أولى السهرات التي أمضيتها عند الأمير علمت بوجود نقوش قديمة في الجبل و دلني الأمير على جبل سرا على مسافة يوم جنوبي حائل كنقطة يمكنني أن أعثر فيها على نقش. و قد استدعى مطوع شمّر، الشيخ عواد الذي نسخها ذات يوم على غلاف كتاب زودني به.

و عرفت في الحال انها كتابة حميرية و سمح لي بأن أفترض أنها ليست الوحيدة و انه بإمكاني العثور على المزيد منها.

في 9 تموز أعطاني الأمير رجلين ليقودواني إلى جبل سرا. اذ غادرنا حائل في السابعة صباحا من الباب الغربي، لم نلبث أن انعطفنا نحو اليسار تاركين جبل سرا إلى الشرق.

كان اتجاهنا جنوبا تقريبا، 10 درجات غربا بصرف النظر عن تبدلات العقرب.

بعد ساعتين من مغادرتنا حائل وصلنا إلى مستوى قفار التي تركناها إلى يميننا.

عند الظهر توقفنا لتناول بعض التمر أمام صخرة عرجان التي كانت ترمي بعض الظل الى الشمال و بعد ساعة استأنفنا مسيرتنا.

منذ مغادرتي حائل كان جبل أجا باستمرار إلى يميني و تقريبا على المسافة نفسها.

فقط جنوبي قفار ابتعدت طريقي قليلا عن الجبل. أسجل هذه الملاحظة بشكل عابر لأبرر الاتجاه الذي أعطيته لهذا الجبل على خريطتي و هو اتجاه جديد و مغاير على نحو ملحوظ للاتجاه الذي اعتمدته أحدث الخرائط.

إلى بضعة كيلومترات شمالي جبل سرا يستمر السير بثبات على حصى الغرانيت الكبيرة و اسمها البطحا كما ذكرت سابقا و هي قاحلة تماما. لكن طبقة الحصى ليست متساوية العمق في كل الأمكنة و من حين إلى آخر يسمح برؤية التربة التحتية المكونة من حجر صلصالي رمادي صفراوي صلب. في هذه الأماكن تظهر أحيانا شجرة هزيلة أو ساق حنظل زاحفة.

كانت الشمس تلامس الأفق عند ما وصلت أمام النقش في جبل سرا. و هو في Mestagged معبر يبلغ عرضه 80 مترا تقريبا و يفتح الطريق إلى مستجد و الحجاز.

كانت الكتابة محفورة في الصخر على الجدار الجنوبي للمعبر، على ارتفاع 6 أمتار من الأرض و تواجه الشمال. بفضل انهيارات الصخور يمكن الاقتراب منها حتى مسافة مترين تقريبا. أخذت فورا وضعية تمكنني من نسخها و تبين لي أن الشيخ عواد قد نسخ بالضبط نصف الأحرف تقريبا و هذا ما اعتبره مرضيا بالنسبة الى شمّري متعلم، خاصة بالنظر إلى حالة هذه الكتابة الخشنة و إلى التأثيرات البصرية التي يحدثها النور على هذا الغرانيت الفظ بحبوبه المتعددة الألوان و التي تتعب تموجاتها المتعرجة النظر بسرعة. و قد اغتبطت لاحقا بالعناية البالغة التي بذلتها في نسخ هذه الكتابة. فمن بين كل النقوش الحميرية التي صادفتها في رحلاتي اللاحقة، لم تكن و لا واحدة بهذا الحجم. فقد كانت تحوي 98 حرفا.

هذا النقش الكبير موجود كما ذكرت آنفا على جدار الجبل بالذات. و قد عثرت على خمسة نقوش أصغر حجما على كتل ضخمة من الغرانيت يبلغ حجمها عدة أمتار مكعبة كانت قد انهارت على جانب النقش و أمامه. و قد بدا على إحدى الكتل رسم حيوان لا بد أنه كلب سلوقي كبير أو غزال. خط هذا الرسم جريء، محدد و يدل على موهبة فنان. من بين مئات تماثيل الحيوانات المنحوتة في الصخر التي صادفتها، كانت هذه الأخيرة الفضلى.

هبط الليل فيما كنت أنجز نسخي. و امتطينا جمالنا التي لم ننزع عنها خروجنا (1)

---

(1) الخرج حقيبة سفر مزدوجة تتدلّى على جانبي الجمل [التحرير].

و اقتربنا من الآبار الواقعة على مسافة نصف كيلومتر شرقا. خيام بعض البدو الذين جاؤوا ليوردوا بعض الجمال و الخراف كانت مضروبة إلى الجنوب. و بينما كانت جمالي ترتوي، أخذت حرارة الماء التي بلغت + 21 درجة و هي بلا طعم و مستواها على عمق 7 أمتار. و بما أن التخييم قرب الماء ينطوي دائما على مخاطر حتى في أراضي شمر، فقد سرت ساعة أخرى إلى الشمال الغربي و توقفت أخيرا في ثنية أرضية [1]. صنع رفيقاي خبزا تناولناه مع الزبدة ثم التففنا بعباءاتنا لننعم براحة مستحقة. كنا قد بقينا إحدى عشرة ساعة راكبين و قطعنا 92 كيلومترا.

في صباح اليوم التالي نهضنا عند الفجر و سرنا مباشرة باتجاه الشمال. و قادتنا HOullaساعة و نصف الساعة من السير إلى جبل و الله حيث توقفنا أكثر من ساعة قرب الآبار لتناول وجبة الإفطار.

مياه آبار و الله الأربع تقع على عمق 7 أمتار. ثلاث آبار محفورة في البطحا و الآخر في الغرانيت. استأنفنا السير في التاسعة صباحا و وصلنا إلى قفار قرابة الرابعة مساء.

تقع الطريق المتبعة في جبل و الله حتى قفار غربي الطريق التي سلكتها للذهاب من حائل إلى جبل سرا و هي موازية لها تقريبا. و هي إلى ذلك تقع تقريبا في منتصف المسافة بين طريقي الأولى و جبل أجا الذي لازمتني كتله الغرانيتية الداكنة باستمرار على مسافة 2 أو 3 كيلومترات الى يساري. الأرض مكوّنة من البطحا باستمرار، و لكن جوار الجبل يحدد من حين إلى آخر تحت أقدامنا انتفاخا في الأرض يشير إلى وجود الصخر على عمق ضحل. عدة مرات ظهر الصخر و عشر مرات تقريبا اخترقت قمم طويلة من الرخام الأبيض المعرّق التربة في الاتجاه السائر من الشرق الى الغرب و كأنما يوجد انقلاب في الاتجاه المعاكس لاتجاه جبل أجا. تبدو الأرض من حين إلى آخر و قد ثلمتها جداول صغيرة تهبط من الجبل لتنزل إلى يميننا في وادي حائل.

لدى مغادرتي الأمير بالأمس، دعاني ابن عمّه حمود العبيد الذي كان قد حدثني عن أقطاع واسعة يملكها في قفار، إلى التوقف فيها لدى عودتي من جبل سرا و وعدني بأن يرسل الأوامر اللازمة لاستقبالي. هذه الملكية كانت الأخيرة في جنوب

---

(1) السيد هوبير يدلي هنا بقاعدة يجري التقيد بها في كل الاراضي المأهولة بالبدو الرحل و بالاخص في الصحراء.

حائل و من ثمّ فهي الأولى البادية أمامنا فيما كنا نقترب من المدينة. و قد تبينت نقطة بيضاء على مسافة بعيدة تتمايز على جدران قفار الزهرية اللون المسننة بالمتاريس.

كان ذلك طبعا رجلا لا لباس عليه سوى ثوبه بانتظارنا. و بالفعل فقد ظل واقفا حتى وصلنا إليه و انخنا جمالنا و ترجّلنا. ذاك كان عنبر عبد حمود المفضل و قد أرسله هذا الأخير إلى هنا خصيصا ليستقبلني. فرحب بي و قادني إلى الحديقة حيث أعدّ لي فراشا من السجاد و الأرائك.

بعد ما اغتسلت تجولت في البستان البديع الذي يحوي قرابة ألف و مئتي نخلة و بعض العرائش و شجر الدراق و التين و في الزوايا قرب الجدران شجرات أثل أو طرفاء.

ثم عدت إلى جانب حوضي حيث أعدّت لي القهوة و نارجيلتي خلال نزهتي. بقيت هنا أتمتع بالراحة حتى المغيب حيث أعلن البرغش حضوره. فصعدت إلى سطوح المباني حيث قدّم لي و لرفيقي طبق هائل من الأرز و لحم الغنم. و بصفتنا بدوا حقا فقد فضلنا قضاء الليل خارج القرية في الصحراء.

في صبيحة اليوم التالي انطلقنا عند الخامسة و بعد ثلاث ساعات كنا قد عدنا إلى حائل.

سأعود في عمل آخر إلى قفار و الى الدور المهم الذي أدّته هذه المدينة في تاريخ شمّر. و هي لا تزال اليوم الكبرى مساحة و تحتل المرتبة الثانية بتعداد سكانها في كل الإمارة.

جبل أجا

في 17 تموز، ذهبت في رحلة الى الجبل الذي أعطى اسمه للبلد بأسره. من زمان كان اسمه طيىء و فيما بعد أصبح اسمه رميضا و اليوم يطلق عليه عموما أسم أجا أو جبل شمر أو ببساطة الجبل.

هذه المرة انطلقت من شمال حائل متجها نحو الشمال 10 درجات شرقا، باتجاه قرية اللقيطة حيث وصلت بعد ساعتين من الخبب برفقة الفارسين الجديدين اللذين أرسلهما الأمير معي و هما علي المجراد و عيسى.

قبل اللقيطة بميلين تركنا الى يميننا قريتي الوسيد و الجثامية. توقفنا في اللقيطة في بساتين الأمير حتى بعد الساعة الثانية، ثم استأنفنا طريقنا و لكن هذه المرة باتجاه الغرب. و سرعان ما أصبحنا وسط أول الكتل المنهارة من الجبل الذي وصلناه بعد ساعة من سير حثيث عبر وادي غلغل. يتسع هذا الوادي تدريجيا و لا يلبث أن يتحول الى سلسلة من الوديان الصغيرة الجذابة جدا و كلها مملوءة بالنخيل الذي ينمو دون ري كنخيل عقدة و الذي يعود لبدو رحّل. بعد أن تبعنا غلغل لمدة ساعة و نصف الساعة وصلنا قرب مجموعة من تسع خيمات و ضربنا مخيّمنا على مسافة قريبة منها.

النخيل في هذه المنطقة جميل النمو. و الماء متوفر على عمق 6 أمتار.

استأنفنا سيرنا في صبيحة اليوم التالي عند الرابعة باتجاه الجنوب، 80 درجة شرقا، و لم نلبث أن تركنا غلغلا لندخل في وادي حقل الذي لا تتعدى مساحته بضعة كيلومترات. عند الخامسة و النصف كنا قد اجتزناه كليا و عدنا نسير غربا و دخلنا وادي قوارين الذي يقع على مستوى الوادي السابق نفسه.

في بداية الوادي تقريبا نجد الى اليسار نبع و تريمية الصغيرة التي تخرج من الصخر على ارتفاع عشرين مترا فوق الأرض يشكل الوصول إليها صعوبة. و منسوبها لا يكاد يصل الى ثلاثة ليترات في الدقيقة، تصب في حوض صغير حفر أمامها. ثلاث نخلات تظللها فيما بلغت حرارتها + 1□ 24 درجة.

ضربنا الخيمة على مسافة 4 كيلومترات منها قرب أطلال حصن صغير يسمى قصر الأصفر. و يحتل هذا القصر قمة خاصرة الجبل التي تنفصل بجرأة عن الجبل و تتقدم في الوادي في اتجاه الشمال الشرق، 4/ 1 شمال، الى جنوب غرب، 4/ 1 جنوبا. و يحتل البناء كل المساحة الحرة للهضبة على أرتفاع 40 مترا تقريبا. و هو على شكل متوازي الأضلاع مضبوط مع برجين كاملين عند الزوايا الشرقية. يبلغ طوله 20 مترا و عرضه 12 مترا. لم يبق من جدرانه المبنية من الحصى من دون ملاط سوى ارتفاع متر الى مترين.

على المنحدر الجنوبي للكتف التي تحمل هذا القصر بعض شجرات نخيل و آثار حقول و أقنية و بئر يقع ماؤه على عمق 10 أمتار و آثار منازل. و أخبرني علي المجراد بأن هذه الحقول لم تزرع منذ خمس سنوات.

على مسافة 500 متر غربي قصر الأصفر توجد في الوادي بقايا مبنى مربع كبير يبلغ

ضلعه 25 مترا تقريبا، مشيّد بالآجّر. جدرانه التي تتخللها أبراج لا تزال ترتفع الى 8 أمتار. كما أن هناك أيضا آبارا و حقولا مع بقايا سياج. كل ذلك مهجور منذ مدة طويلة.

على مسافة كيلومتر من هنا ينفتح واد صغير دائري و فيه بيوت من الآجرّ مهدومة و آبار و حقول مهجورة. يطلق على هذا المكان اسم مسجد و هنا على الصخور إلى اليسار اكتشفت بسرور للمرة الثانية نقوشا حميرية. كان هناك تسعة منها.

قرابة العاشرة خيّمنا تحت كتلة ضخمة من الغرانيت بقيت في سقوطها معلقة على كتلتين أخريين و تعطينا بعض الظل. منذ قرون طويلة يستعمل هذا المكان لحماية المسافرين العابرين لبضع ساعات. و ما يدل على ذلك هو بعض أحرف حميرية و رسوم عديدة أكثر من بدائية تمثل فرسانا يمتشقون سيفا أو حربة و الذين لا يزالون بمسافة تزيد عن ألفي سنة تماما كما كانوا و كما رسمهم لي الأمير مجيد في حائل على دفتر ملاحظاتي.

مما لا شك فيه أن وادي توارين هذا كان قديما مركزا مأهولا و مهما الى حد ما. و لا بد أن يكون الحميريون الأوائل قد استقروا هنا كما في عقدة في هجرتهم من الجنوب، في هذه الوديان التي تسهل حمايتها و تحتوي على المياه. و لا بد أن تكون انعكاسات الثورات التي ما فتئت تهز الجزيرة العربية في كل الأزمنة قد أصابت السكان و قد فرغت مناطق الجبل من أهاليها مرات و مرات. و من المرجح أن يكون هجر وادي توارن يعود الى الاضطرابات التي أعقبت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب أي قبل مئة عام.

ينتهي وادي توارين بطريق مسدود من جهة الجنوب لذلك أحجمنا عن اجتيازه بالكامل. و غالب الظن أن طوله يبلغ 35 ميلا من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي لكننا لم نر إلا نصفه وعدنا أدراجنا.

عند الثالثة من بعد الظهر كنا قد عدنا الى وادي حقل. و بعد نصف ساعة مررنا قرب كتلة من الغرانيت مخروطية الشكل يبلغ حجمها 5 أمتار مكعبة. و في سقوطها من الأعالي رست منتصبة على صخرة أخرى بحيث لا تلامسها إلا في ثلاث نقاط.

الصخرة مفرغة من الأسفل و ترن كجرس سميك جدا لدى قرعها بحجر أو بعصا.

اسم هذه الصخرة الدنان و كالعادة فإن الرنين المعدني يعني بحسب قول العرب أن هذه الكتلة تغطّي كنوزا.

على مسافة ثمانية أميال من هنا أقمنا مخيّما قرب جذع نخلة ربما جرفتها أمطار غزيرة ذات يوم إلى هنا. و قد استخدمناه لطهو عشائنا.

يقدّم الموقع الذي خيّمنا فيه منظرا جميلا. و هو عبارة عن واد متساوي العرض البالغ 500 متر ترتفع على جانبه جدران غرانيتية بشكل عمودي الى 300 متر و تلوّن الشمس قممها بالألوان الزهري و الأحمر و البني البنفسجي التي لم أرها من قبل قط. كان ينتابنا انطباع أننا في شارع بالغ الضخامة مرسوم بشكل واضح و منتظم ثم رش الرمل عليه حديثا و مشط.

في صبيحة اليوم التالي غادرنا هذا المخيّم الجميل حيث كان جذع النخلة الجاف لا يزال يحترق. على مسافة خطوات الى الشرق نخرج من وادي حقل لندخل وادي جو عبر مسيل ضيق جدا حفره السيل في الغرانيت و تهيمن عليه من الجانبين كتل صخرية عالية. مجرى المسيل معرقل بكتل ضخمة تعيق أحيانا حتى مرور جمل ركوب. في الأجزاء المظللة لا تزال هناك بقع ماء. و تستمر الطريق على هذا النحو مسافة ميل تقريبا صعودا باستمرار ثم يتسع المسيل تدريجيا و نصل بعد حين الى هضبة عالية هي بمثابة جنة حقيقية على الأرض. فشجرات النخيل كثيرة و قوية و باقي النباتات في منتهى الجمال. العصافير تتطاير في كل الاتجاهات و زقزقتها التي لم أسمعها منذ مدة طويلة تبهج النظر بشكل مثير. و وجود ينبوع صغير يبلغ دفقه ثمانية ليترات في الدقيقة جعل هذا المكان مريحا للغاية. و كانت حرارة مياهه + 27 5□ درجة.

من بعد هذه الهضبة الدائرية الشكل، يستمر الوادي بجادة طويلة مزروعة كليا بشجر نخيل رائع معظمها مريض بسبب حريق اجتاحها في العام الماضي.

حتى نهاية هذا الوادي تصعد الأرض رويدا حتى تصل الى هضبة ثانية بمساحة كيلومترين مربعين تقريبا تشكل نقطة توزع المياه. ما إن وصلنا الى هنا حتى انعطفنا الى اليسار و سرنا جنوبا، 67 درجة شرقا، و بدأنا بالنزول رويدا حتى أصبحنا في وادي بولثيث[1].

بعد نصف ساعة من السير وصلنا الى نبع بولثيث الصغير المظلّل بمئة نخلة حيث توقفنا لمدة ثلاث ساعات بانتظار ان تمر ريح حارقة تحمل بعض الرمل.

---

(1) أو بولتية [التحرير].

في الثالثة عصرا استأنفنا سيرنا. و انطلاقا من هذه النقطة كان كالآتي: ميل جنوبا- غربا، 7 أميال جنوبا- شرقا و 3 أميال شمالا 65 درجة شرقا حتى قفار. كنا ننزل بثبات حتى وادي حائل.

في قفار التي رأيتها للمرة الثانية، نزلت عند الشيخ منصور، أحد رجال الأمير الذي خصني باستقبال رائع. و صباح اليوم التالي عند الساعة الرابعة غادرت هذه المدينة المضياف جدا بالنسبة إلي. و بعد ثلاث ساعات كنت قد عدت الى حائل.

في كل جولاتي في جبل طيء كنت أجد باستمرار الغرانيت الرمادي أو الزهري أو البني المائل الى الاحمرار و لكن دائما بحبيبات خشنة. و هو مكوّن من الصوان و قطع زهرية و بيضاء. كل منحدرات الجبل و عرة جدا و في كثير من الأحيان عمودية. انحدار الطبقات الغرانيتية تشكل مع الأفق زاوية من 55 درجة عموما. لا يوجد في أي مكان أكتاف بالمعنى الصحيح و الجبل يخرج دائما من الأرض بكامل ارتفاعه مما يجعل تسلقه صعبا جدا و ممكنا فقط في بعض الأماكن النادرة.

القصيم

لم أتمكن من التوجه إلى القصيم إلا في 31 تموز. و قد غادرت حائل في هذا اليوم قرابة الظهر و سرت جنوبا، 50 درجة شرقا. و بعد خمس ساعات و مسافة 16 ميلا وصلت الى سفح جبل فتيت Fetet و هو سلسلة غرانيتية معزولة كليا و من عصر جبلي أجا و سلمى نفسه إنما لا يتجاوز طولها عشرين ميلا تقريبا من الشمال إلى الجنوب.

بعد عشرين دقيقة خلال اجتياز الجبل مررنا أمام ينبوع العدوة الصغير الذي لا يعطي في هذه الفترة من السنة سوى ليتر واحد في الدقيقة.

حالما نجتاز الفتيت نجد أنفسنا في سهل واسع يبلغ عرضه عدة فراسخ و تحدّه من الشرق على كامل طوله كتل جبل سلمى الداكنة. لدى وصولنا إليه كانت الشمس تغيب فضربنا الخيم.

في صبيحة اليوم التالي و قبل شروق الشمس بوقت طويل، تابعنا سيرنا محافظين على اتجاه الأمس. قبل الثامنة بقليل وصلنا أمام جبل سلمى. و قد احتجنا إلى أكثر

من أربع ساعات خببا لاجتياز الوادي الواقع بين جبلي فتيت و سلمى و الذي يحمل على غرار الينبوع الصغير المذكور أعلاه اسم وادي العدوة. هذا الوادي مغطى بالكامل بالبطحا. و تحتها يوجد تراب يشبه الموجود في وادي حائل. في بعض الأماكن النادرة يظهر الصخر، و احيانا اخرى الرخام الأبيض المعرّق بالأحمر أو بالرمادي أو بالأسود. النباتات هزيلة و الرياح السائدة دائما في هذا الجزء من الجزيرة العربية، هي الرياح الغربية.

بعد ساعة و نصف الساعة من السير في جبل سلمى، تتخذ المنطقة تدريجيا طابعا بركانيا، فالبازلت يكثر هنا و لا تلبث الطريق أن تجتاز فوهة بركان قديمة تدعى Aneaiعني . يبلغ قطر هذه الفوهة حوالي 800 متر. ولدى الفوهة ينبوع صغير في جزئها الجنوبي- الغربي تحمل الاسم نفسه و يبلغ منسوبه ليترا و نصف الليتر تقريبا في الدقيقة. و تبلغ حرارته + 2□ 26 درجة.

من جهة الينبوع تتكون جدران الفوهة من قضة حصى و كتل من البازلت و الغرانيت غارقة في غلاف من الرماد الترابي و المجموع بقساوة الصخر. على بعد خطوات يتألف الجدار من نضيد بازلتي أحمر.

شرقي الفوهة حيث تجتازها الطريق للذهاب باتجاه فيد يصبح المعبر صعبا و خطرا و لا يسمح بمرور أكثر من جمل واحد.

على بعد نصف ساعة من هنا، فوهة ثانية تدعى الرضيّة مع معبر ضيق للغاية و صعب يتسع تدريجيا من الجهة الشرقية. الطريق تتبع مجرى السيل. و قد كان المسافرون يخشون هذا المعبر على الدوام إذ كان يشكل عرينا يكمن فيه اللصوص وراء الصخور لقتل المارة و سلبهم. أما اليوم و بفضل حكم ابن رشيد فيسود أمن تام هنا كما في كل أراضي شمّر.

ابتداء من الردية يزداد اضطراب الأرض و الأمر الذي يشيد إلى أننا نقترب من مركز هذا الارتفاع البركاني. و بالفعل صادفناه على مسافة ساعة و نصف الساعة إلى يمين طريقنا على شكل فوهة جديدة. كل الأماكن المحيطة مغطاة بكتل البازلت الأسود.

المنطقة و الفوهة تحملان اسم جهنم و هذا صحيح إذ كل شيء فيهما جهنمي و خاصة الطريق.

ابتداء من الردية يصعد الاتجاه نحو الشرق.

فجأة قرابة الثالثة من بعد الظهر، لمحنا رؤوس شجرات نخيل فيد على مسافة ثلاثة كيلومترات و بعد نصف ساعة دخلنا المدينة الصغيرة.

قبل الوصول إلى فيد بدقائق معدودات تتوقف الحجارة البازلتية و ترى من حين إلى آخر الرمل الصلصالي.

فيد القديمة التي كتب العالم ريتر Ritter من أجل تحديدها ثلاثين صفحة دون أن يفلح تبدو اليوم متخلية عن روعتها القديمة و ليس فيها حاليا سوى أربعين بيتا.

تتألف فيد من مجموعة صغيرة من البيوت و من تسع ملكيات يفصل فيما بينها عدة كيلومترات و اسماؤها هي الآتية: عين، الحمرا، أبو شقرا، السنين، الغزيزة، الهويمل، الغطار، الماليك، برزان.

بين مختلف هذه الملكيات المشتملة كلها على شجر نخيل، لا يزال هناك عشر آبار فيها ماء، و بقايا مساكن قديمة باتت اطلالا.

على بعد 600 متر جنوبي عين تلة هناك حمم سوداء مع بقايا إنشاءات، و الأبرز فيها هي الأساسات الدائرية لبرج أو لبئر يبلغ قطرها 10 أمتار و اسمها خراش Khoras.

شمالا، 10 درجات شرقي هذه النقطة، بقايا برج مدوّر لا يزال ارتفاعه يبلغ 8 أمتار و جزء من جدار يسمّى القصر و أطلال مبنى مربع على بعد 800 متر جنوب-غرب عين كان فيما مضى جامعا. هذا كل ما تبقى لإثبات امتداد فيد القديمة و أهميتها.

على بعد بضعة كيلومترات جنوب- غرب المدينة جبل قفيل Qefeil البالغ ارتفاعه 70 مترا تقريبا و هو ليس سوى جزء لا يزال منتصبا من فوهة بركان قديم. و قد استطعت أن أحدد من قمته بواسطة البوصلة مختلف أجزاء فيد المذكورة أعلاه و الجبال الآتية:

- جبل خويت Khoueit جنوبا 74 درجة شرقا، حيث لا بد من وجود ماء على مدار السنة.

- جبل غميز الجو Ghemeiz el Gou.

- جبل أم الروج و هو فوهة بركان قديمة يوجد فيها آبار.

- جبل بوص الصعيلب و فيه ماء تقريبا طوال العام.

- جبل الهضب الوفير المياه.

كما أنني سجلت القمم الشمالية و الجنوبية لجبل سلمى و كذلك قمة جبل جلدية الذي زرته فيما بعد.

الصحراء المحيطة بفيد تدعى أبا الكروش.

تخترق آبار فيد أولا طبقة من الرمل و الحصى تتراوح سماكتها ما بين 5 و 10 أمتار تبعا للموقع، ثم مترين من البازلت الاسود الشديد الصلابة لتصل إلى الماء و هو طيب المذاق. هذا الماء العميق جدا و الذي يستلزم جهدا مضنيا لسحبه لري النخيل بات يتضاءل وفق أقوال السكان، و لا بد من ان نعزو تلاشي هذه البلدة إلى هذا السبب.

و اللافت جدا هو أن آبار فيد تتصل فيما بينها بسراديب جوفية.

غداة وصولي إلى فيد، غادرتها عند الرابعة عصرا متابعا طريقي نحو القصيم.

و كان قد رافقني إلى هنا أحد فرسان الأمير. و لكن إلى ما وراء هذه الحدود لم يبق معي سوى بدوي شمّري. و هذا ما قررته بنفسي أمام تردد الأمير في السماح لي بالذهاب إلى القصيم، و هي منطقة وهابية متشدده حيث كان يخشى كثيرا علي و بالأخص خلال شهر رمضان المبارك الذي بات قريبا.

بمغادرتنا فيد سرنا 9 أميال إضافية إلى الشرق و إلى الشمال الشرقي ثم خيّمنا.

و بعد استراحة دامت ست ساعات، تابعنا مسيرتنا إلى الشمال الشرقي منحرفين تدريجيا باتجاه الشرق. و عند الواحدة من بعد الظهر وصلنا إلى الكهفة Kehafa التي كنا نلمح رؤوس نخيلها منذ ساعتين.

من فيد إلى الكهفة تجتاز الدرب صحراء من الحث البركاني. العيّنة التي جلبتها معي عبارة عن رمل صواني أصفر مع بعض القطع الكلسية تتخلله حبيبات من الصوان و يحتوي على حبات مغناطيسية عديدة. يظهر الصخر العاري في كل مكان و له مظهر غريب. و يتكون الانطباع بأن كل هذه الكتلة التي كانت قديما سائلة و في حالة غليان قد تجمدت فجأة. و ما يوحي بذلك هو فقاقيع الحث الضخمة البالغ قطرها ما بين 8 و 12 مترا و المحدّبة قليلا التي نصادفها مع كل خطوة. بين الفينة و الأخرى نجد بعض الرمل في ثنية أرضية حيث تتمو بعض الأشواك، و لكن فيما عدا ذلك، إنها صحراء الحجر المطلقة و سماكتها تفوق الوصف. تلك المنطقة العربية الصخرية من Arabie Petrie حقا، و اسم هذه الصحراء هو الشرافه El Sarafah .

اشتهر عن الكهفة البالغ عدد سكانها 200 شخص تقريبا أنها بلدة صحية. الرياح السائدة فيها شمالية. و بحسب أقوال السكان و الشيخ عمار الذي استضافني، فإن المطر يهطل مدة عشرة أيام فقط في بداية الشتاء، أما باقي السنة فلا تهطل قطرة واحدة.

ليس شيخ الكهفة هو من يستقبل الغرباء العابرين لأنه فقير بل إن هذه المهمة تعود لأغنى مالك و هو عمار الذي يمنح لقب شيخ حتى لو لم يكن شيخا. و عمار هذا هو في الوقت عينه إمام البلدة. من هنا نرى كم كان وضعنا المتبادل دقيقا. فإذا كنت لا أعير اهتماما لكوني ضيف شيخ وهابي، فإن عدم اكتراثه لرؤية بيته المقدس مدنسا بوجود كافر تجاوز موقفي بكثير. و إلى ذلك فإن قامته الصغيرة النحيلة النافرة العظام و شفتيه المزمومتين و عينيه العميقتين و القلقتين و رأسه الأقرع لم تكن لتمنحه سمة الترحيب. كما و انه اشتهر عنه بخله مع الضيف. إلا انني كنت اسمع السكان الذين جاؤوا إلى المضافة لإلقاء السلام يتهامسون فيما بينهم بأنني على احسن حال مع الأمير محمد و انني ضيفه و صديقه، فرأيت للمرة الأولى هذا الاسم المحبب يحميني من بعيد. الاستقبال الذي خصني به عمار لم تشبه شائبة. لم يكن في الحقيقة ودودا و لا لطيفا على غرار ما نعمت به حتى ذلك الحين في الجبل. و لكن لا يمكن مطالبة شيخ وهابي بالودّ و اللطافة خاصة من قبل نصراني. عاملني معاملة جيدة و ألح كثيرا لحملي على العدول عن فكرة الذهاب إلى القصيم. و بما ان الكهفة هي آخر بلدة شمّرية فقد خشي من أن يصيبني مكروه إذ لا أمان من بعد هذه الحدود. عند ما غادرته كانت صداقتنا قد توطدت كليا و ما ان اصبحت على مطيتي حتى سمعته بسرور يودعني قائلا" الله معك" و هو الدعاء الاعتيادي لرحلة موفقة في نجد.

على بعد 6 كيلومترات جنوب شرق الكهفة مجموعة من أربع ملكيات فيها نخيل و حقول شعير تدعى الغميس أخذنا منها مؤونتنا من الماء الذي هو أطيب مذاقا من الماء الذي في الكهفة.

و على مسافة ساعة أم الخشبة و فيها أربع ملكيات واسعة هجرت بسبب اختفاء الماء.

في فصول الشتاء الغزيرة الأمطار يأتي سكان الكهفة إليها ليزرعوا فيها الشعير لأن تربتها صالحة جدا.

بين الكهفة و الغميس يوجد النفود.

إن موقع هذه الواحة يشكل ظاهرة جيولوجية شاهدتها للمرة الأولى هنا، و لكنها تكررت مرارا فيما بعد. فهي تقع في منخفض على شكل حوض هلالي الشكل يمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي و يبلغ طول محوره الكبير 24 كيلومترا تقريبا و طول محوره الصغير 12 كيلومترا. أما حافات هذا الحوض البالغ ارتفاعها ما بين 10 و 12 مترا فعمودية. و قد بدا لي الحوض بكامله منحنيا من الجنوب إلى الشمال. تقع الكهفة على خط المحور الكبير تقريبا باتجاه الجزء الشمالي.

غادرت الكهفة غداة وصولي إليها قرابة الساعة الثالثة عصرا و مررت على التوالي أمام الغميس و أم خشبة ثم عبرت باقي الحوض و خيمت على حافته الجنوبية الشرقية عند المغيب.

في الثانية من صباح اليوم التالي عند بزوغ أول نجمة من كوكب أوريون Orion البديع فوق الأفق، انطلقت من جديد و بعد عشر ساعات وصلت إلى قواره أولى بلدات القصيم.

قواره قرية صغيرة مؤلفة من اثني عشر بيتا و سكانها الفقراء جدا يعملون جميعا خدما في ثماني آبار (قلب) كبيرة تتباعد فيما بينها مسافة تتراوح بين 600 و 1000 متر على أرض تبلغ مساحتها 5 كيلومترات مربعة تقريبا و مجموعها في حوض تكوينه شبيه بالحوض الذي فيه الكهفة إنما أصغر حجما.

نخيل قواره هزيل شاحب المظهر و لا يحمل سوى ثلاثة أو أربعة و على الأكثر خمسة أقراط من التمر. و يعزو السكان ضعف الإنتاج إلى ضحالة عمق التراب. و قد رأيت بالفعل فيما كنت اتفحص الآبار، أن تحت طبقة التراب التي لا تتجاوز سماكتها مترين، يبدأ فورا الصلصال [1] الرملي بعمق مترين الى ثلاثة أمتار تجري من تحته الطبقة المائية الغزيرة جدا و التي لا تتبدل في أي موسم. للأسف ان هذا الماء الجميل و الصافي للغاية غير صالح للشرب لفرط مرارته. و لا يوجد سوى أربع آبار من مياه الشرب و بئر مضيفي ليس في عدادها و هو يشرب من مياه بئر أحد جيرانه.

و كما في الكهفة، فإن شيخ قواره فقير، لذا فقد استقبلني (رباح) مالك أحد القلب الثمانية. و اذ لم يكن لديه محل لاستضافة ضيف رفيع و هو على أي حال أمر نادر في هذه المنطقة، فقد استضافني في الجامع الصغير الذي بناه في حديقته مباشرة الى يسار باب المدخل الكبير. و ما ان استقريت هنا حتى فكرت بالأمير ابن رشيد الذي

---

(1) صلصال رملي صواني ناعم الحبيبات.

تردد طويلا في قبول سفري الى القصيم حيث كان يخشى أن أقع ضحية تعصب السكان الديني و إذ بهم منذ خطواتي الأولى في هذا البلد المتعصب جدا يستضيفونني أنا النصراني في الجامع.

مع ان قواره هي أول بلدة في القصيم و إنها اعتبرت كذلك منذ القدم، فإن سكانها يقولون إنهم من ذرية طيء.

و قد وجدت عند مضيفي رباح أحد سكان طابة، مدينة في جبل سلمى، هاجمه بالأمس فيما كان عائدا برفقة ابنه البالغ ستة عشر عاما من بريده مع جملين محملين بالأرز ما بين عيون و قواح، خمسة أشخاص يمتطون ثلاثة جمال. و في دفاعه عن نفسه جرح في رأسه و كتفه و قتل ابنه. و فر اللصوص غربا مع جمليه و حمولتهما. و يعتقد أنه عرف فيهم عرب من عتيبة. فضمدت جراحه و أعطيته ما يلزم لتغيير الضمادات. لكن روايته أثرت بشكل سلبي جدا على معنويات طراد الشمري الذي كان يرافقني و هو بالرغم من قامته البالغة 80□ 1 متر لم يكن يتمتع بطبيعة التحدي و ليس لديه أدنى رغبة في مقارعة عتيبة، أعداء شمر منذ الولادة.

لحسن الحظ كان لا يزال في قواره ثلاثة مسافرين ينزلون منذ بضعة أيام لدى السكان و هم من قوم الأمير حسن بن بريدة، كانوا ينتظرون مسافرين آخرين لينضموا إليهم لاجتياز المسافة البالغة الخطورة من قواره إلى العيون. و بفضل هؤلاء تمكنت من متابعة طريقي في اليوم التالي.

انطلقنا في الساعة الثانية من بعد منتصف الليل. و كانت مشاعل بنادق العرب الأربعة مضاءة. و تستمر الطريق كما بين الكهفة و قواره عبر صحراء محجرة حيث يظهر الصخر في كل مكان. خلال ال 32 كيلومترا الأول سرنا على صلصال رملي أصفر و خلال أل 8 كيلومترات الأخيرات يصبح الصلصال الرملي أحمرا. و لكنه دوما حجر رملي صواني حبيباته ناعمة جدا.

العيون

و بعد ست ساعات من السير، صادفنا تلتين إلى يسار الطريق فبدتا لي اصطناعيتين. و قال لي رجالي بأنها الحدود بين أراضي قواره و أراضي العيون. و بعد

ربع ساعة لمحنا من بعيد برجين تقع عيون عند قاعدتيهما لكنها لا تزال مخفية لأنها في حوض مماثل للحوض الذي يحوي الكهفة.

البرجان المطلان على مرتفعات العيون هما مركزا مراقبة لتفحص المحيط في فترات الاضطراب و لتفادي المفاجآت إذ يسمحان بالإبلاغ عن اقتراب أي قوة مشبوهة. و قد صادفتهما لاحقا في بلدات أخرى و بالأخص في قصيبا و حتى في الحجاز في خيبر.

في المكان الذي نرى منه هذين البرجين قرب العيون و من ثمّ على بعد كيلومترين وراء التلال الحدودية، تصبح الأرض شديدة الاضطراب و تكثر آثار فوهات البراكين.

أخيرا بعد مضي ثماني ساعات على مغادرتنا قواره، وصلنا إلى حافة الحوض الذي يضم العيون و الغوطة اللتين لمحنا نخيلهما من بعيد. و قد امضينا ساعتين إضافيتين لبلوغهما.

فور هبوطنا الى الحوض تركنا إلى يميننا صخرة رميلة معزولة يلفت شكلها انتباه من رأى أبو الهول أمام الأهرامات قرب القاهرة، فالشبه كبير. و قد رأيت عليها آثار أحرف حميرية و عربية شبه ممحية كليا و غير مقروءة. و على بعد عشر دقائق، يوجد إلى يمين الطريق أيضا صخرة أكبر بكثير تحمل عددا كبيرا من النقوش الحميرية الممحية جزئيا تمكنت من نقل بعضها. هذه الصخرة تحمل اسم الهراشي.

بعد مضي عشرين دقيقة على نزولنا إلى حوض العيون، وصلنا أمام الغاف و هي مزرعة نخيل واسعة جدا اجتاحها النفود كليا. و قد سرت بمحاذاة هذه المزرعة البديعة خببا مدة خمس و عشرين دقيقة. و بعد ساعة، أي في تمام الظهر، كنت أمام العيون.

من الناحية الغربية، و هي الجهة التي أتينا منها، يحجب كثب رملي هائل العيون كليا.

و يصد هذا الكثيب من جهة المدينة جدارا من الآجرّ يرتفع تدريجيا كلما ارتفع الرمل.

يبلغ عدد سكان العيون، أكبر البلدات ما بين حائل و بريدة، 2500 نسمة تقريبا و مساحتها كبيرة جدا إذ يبلغ طولها من الشرق إلى الغرب 5 كيلومترات تقريبا و يبلغ عرضها ما بين 1000 و 1500 متر. أشجار النخيل فيها جميلة و يعتبر منتوجها من أفضل منتوجات القصيم. و المياه يتفاوت مذاقها من مكان إلى آخر و إن كانت صالحة للشرب، فهي غزيرة جدا. و تقع المياه مباشرة تحت الصخر الذي يطفو على سطح

الأرض في كل المدينة و الذي تبلغ سماكته ما بين 8 و 12 مترا. و كما هو سائد بالنسبة الى الآبار المحفورة في الصخر، فإن فتحتها واسعة جدا هنا و يتراوح قطرها ما بين 4 و 8 و حتى 10 أمتار. و قمت بقياس حرارة الماء فكانت + 10□ 24 درجة، و مع أنني قستها بعد نهار كامل من سحب الماء إلا أنه لا يمكن اعتبارها صحيحة نظر الاتساع مساحة طبقة الماء المعرضة للجو المحيط.

أكثر ما يدهش المسافر القادم مثلي من الجبل في العيون حيث تبدو السلالة البشرية الرائعة الجمال بشعة هنا. فالرجال بشكل خاص لم يكتمل نموّهم و هم قصيرو القامة، قبيحون، هزيلون و وجوههم باهتة و ضامرة. شكلهم و مظهرهم بعيونهم الغائرة و وجناتهم البارزة و رؤوسهم المغطاة بكوفيّات حمراء دون عقال على طريقة الوهابيين يجعل مقاربة هؤلاء المتعصبين أمرا مزعجا للغاية.

أما الجنس اللطيف فيبدون لي أكثر توازنا. النساء اللواتي رأيتهن كن على قلّتهن جميلات و ممشوقات. عيونهن جميلة جدا كما في كل الشرق لكن لونهن كان باهتا و مرضيا.

عبد الله، شيخ العيون الذي يمنحه السكان لقب الأمير، رجل في الثلاثين من العمر و قد خصني باستقبال ممتاز.

على بعد عشر كيلومترات غربي العيون تقع غوده و هي بلدة أخرى مهمة تضم حوالي 1500 شخص.

غادرت العيون غداة وصولي إليها في الثالثة فجرا، و بعد أربع ساعات وصلت الى القرعا التي تتألف من قسمين يبعد أحدهما عن الآخر مسافة 1500 متر. قسم يشمل النخيل و الآخر يشمل القرية البالغ تعدادها 800 نسمة تقريبا. بالإضافة إلى ذلك هناك بعض الملكيات المتناثرة في الجوار و من بينها ملكية الشيخ و هي جديدة و مصونة.

سار رجالي حتى قرعا و مشاعل بنادقهم مضاءة و لكن اعتبارا من هذه النقطة لا لزوم لهذا الاحتياط إذ إن وجود بريدة في الجوار كاف لجعل المنطقة آمنة.

على بعد 3 كيلومترات من قرعا، على الطريق التي أسلكها بحيرة مالحة تبلغ مساحتها كيلومترين تقريبا. كانت جافة و تعلوها طبقة سميكة من الملح.

بعد مضي ساعة على مغادرتنا قرعا وصلنا إلى الشقه Eseqah في حوض يبلغ طوله

كيلومترا و المؤلفة من 200 منزل أي ما بين 1000 و 1100 نسمة. إنها 15 قرية فقيرة لتضاؤل الماء فيها منذ بضع سنوات. بالإضافة الى إن المياه مالحة إلى درجة تكاد تجعلها غير قابلة للشرب باستثناء أربعة أماكن. كما إنها على عمق ضحل، ما بين 4 و 6 أمتار على أبعد تقدير.

تملك الشقه إلى جانب القرية الرئيسة ستة قلب أورد أسماءها إذ يقال إنها قديمة جدا، حتى إنها أقدم من القرية بالذات و هي: رقيعة، راوي، غوا، العاصفات، الصفاه، الخب.

بريدة و عين ابن فهيد

من الشقه قادتني مسيرة ساعتين كاملتين (7 اميال) إلى بريدة حيث وصلت لحظة صلاة العصر بالضبط. المدينة مطوقة بجدران من الآجرّ و التبن بارتفاع 4 أمتار يجعلها التموج الزهري تبدو و كأنها حديثة جدا. المدخل إليها عبارة عن بوابة كبيرة بمصراعين مع عتبة من الحجر. تتخلل الجدران بين الفينة و الأخرى أبراج مدورة أو مربعة يزيد ارتفاعها على ارتفاع الجدران بمترين. لا يوجد سطوح وراء الجدران و الأبراج.

توجهنا إلى القصر مباشرة. و هنا وجدت الأمير حسن خارجا من المسجد حيث أدى صلاة العصر فاستقبلني بحفاوة. وضعت سجادات في الباحة فجلسنا عليها و تبادلنا السلام المعهود. ثم سلمته رسالة التوصية التي أعطاني إياها سيده أمير جبل شمّر.

و لأن حسنا لا يعرف القراءة فقد تولى أمين سره قراءة الرسالة بصوت منخفض بحيث لا يسمع الأشخاص الحاضرون شيئا. فكرر لي فورا ما كان قد قاله قبل القراءة إنه سعيد بالترحيب بي و بالأمير محمد و إن بيته هو بيتي و أنه ما علّي إلا ان اطلب ما ارغب. كما اوصاني بالا اخرج ابدا من القصر دون مرافقة اثنين من رجاله و بأن أحمل دوما سيفي وفق عادة المشايخ في البلاد العربية.

لقد خلف الأمير حسن والده مهنا الذي اغتيل وسط الشارع قبل ست سنوات. إنه رجل في الثانية و الخمسين من العمر مبتذل المظهر و لا ينمّ عن ذكاء متفوق. و في عينه

اليسرى بياض تمنعه من الرؤية من هذا الجانب، و هو يتمتع باستقلالية محدودة و لا يدفع لحائل سوى ضريبة واحدة بعضها من المال و بعضها الآخر عينيّ.

حكم الامير حسن المهنا عشر سنين و قبله شغل شخص يحمل اسم عبد العزيز المحمد منصب الامير لمدة أربعين سنة تقريبا أي منذ سقوط الوهابيين.

لا يربو وجود بريدة على مئة و ثمانين عاما و لكنها خلفت مدينة أقدم منها كانت موجودة على مسافة ميلين الى شمال البلدة الحالية و تدعى الشماس. هذه الأخيرة أسست قبل ثلاثة قرون و نصف. و المسجد الذي اعتبر بلجريف أنه شيّد قبل أربعمائة عام في الواقع شيّد قبل أقل من مئة عام و المدينة تملك أربع مدارس و ستة جوامع بما فيها الجامع الرئيسي في العاصمة. اما السكان الذين يعود أصلهم جميعا الى عنزة فيبلغ عددهم 10 آلاف نسمة.

بريدة مركز تجاري كبير و لكنه لا يعرف أوج ازدهاره إلا خلال الأشهر الأربعة من السنة التي تلي قطاف التمر. في هذا الوقت غالبا ما نرى، منتصبة خارج بريدة، ما يربو على ألف خيمة بدو يأتون للتزود بالتمر و القمح و الأرز و بعض الأقمشة القليلة التي يحتاجون إليها.

فيما عدا هذه الأشهر الأربعة، يكون ثلثا المحلات مقفلة مما جعل بلجريف يعتقد أن المدينة في انحطاط. بل على العكس اعتقد أنه بإمكاني أن أجزم بأن ثمّة ثروات في بريدة تفوق ثروات حائل عددا و حجما. و قد أعطاني الأمير حسن معلومات عديدة تؤيد ذلك.

المياه في بريدة ليست طيبة المذاق. فهي في كل الآبار تقريبا مالحة جدا لا تصلح للشرب و معكرة جدا في كل مكان. مستوى المياه الجوفية يقع على عمق يتراوح ما بين 5 و 10 أمتار تحت الأرض، و للوصول إليها يجب على العموم اختراق ثلاث طبقات من الصلصال الرملي تبلغ سماكة كل واحدة منها من متر إلى مترين.

منذ أن بنيت بريدة، اجتاحتها النفود، و قد اكتشفت أيضا بهذه المناسبة بأن النفود يسير من الغرب إلى الشرق. فالحدائق الواقعة غربي المدينة بات لديها اليوم من جهتها الغربية ارتفاع يتراوح ما بين 6 و 8 أمتار من النفود يحاول السكان تثبيته بواسطة زراعة شجر الأثل.

غداة وصولي إلى بريدة الذي كان في الثامن من آب و يصادف أول أيام شهر رمضان

المبارك، عشية ذلك اليوم فيما كنت أشرب القهوة مع الأمير، سألني إذا كنت عازما على الصوم و إذ اجبت بالايجاب انفجر ضاحكا و لكنه أكد لي ان هذا لن يحصل و أنه لن يحتمله و أنه علاوة على ذلك كوني مسافرا يعفيني من الصوم. و بالفعل فقد أعد الطعام لي و لرفيقي كالمعتاد و كذلك القهوة.

بعد وصولي بأربعة أيام، قمت برحلة شمالي بريدة إلى عين ابن فهيد و هي بلدة قديمة جداً يغذي نخيلها خمسة ينابيع. إنما مياهها الصافية و الجميلة المنظر غير صالحة للشرب لأنها متخمة بأملاح الكلس و الماغنيزيوم.

في منتصف الطريق تقريبا، بين عين ابن فهيد و بريدة، توقفت ساعة خارج قرية فقيرة تعد 60 شخصا تدعى الطرفية. فإثر اختفاء الماء من الآبار قبل أربع سنوات تفرق معظم السكان في بلدات أخرى و ماتت كل أشجار النخيل و ظلت جذوعها المجردة من الورق منتصبة في الهواء على نحو محزن و كأنها غابة من عصي المكانس. كانت جميلة فيما مضى فكلها أشجار نخيل يتراوح عمرها ما بين مائة و مائة و عشرين سنة.

يزرع السكان، بالماء القليل المتبقي و غير الصالح للشرب باستثناء مياه بئر واحد، الشمّام و البطيخ. و هم يعملون على جمع الخشب في الصحراء و يبيعونه في بريدة كما يبيعون الشمّام و البطيخ.

في المقابل، عين ابن فهيد في ازدهار مضطرد. و قد رأيت فيها عدة مزارع نخيل فتي تخص إحداها الأمير حسن.

على مسافة 3 كيلومترات شمالا 76 درجة شرقا من عين ابن فهيد أطلال قديمة تدعى قصر مارد. و هو عبارة عن مبنى كبير مربع، ضخم جدا، بني بالحصى و الملاط الكلسي طول أضلاعه 40 مترا تقريبا و أضلاع الباحة الداخلية 30 مترا. يواجه باب المدخل الغرب أي القرية الواقعة على قمة تلة صغيرة تشرف على المنطقة.

على بعد خطوات، من الجانب الشمالي للقصر، صخرة على شكل طاولة يتراوح طولها ما بين 40 و 50 مترا و يبلغ ارتفاعها مترين، تحمل نقوشا حميرية عديدة و لكنها كلها ممحوّة تقريبا و لم أتمكن من نسخ إلا بعضها.

من الناحية المقابلة للقرية تقريبا، على بعد كيلومترين إلى الشمال الغربي فوهة

بركان قديمة تشير إليها كتل كبيرة من الحث منتشرة على مساحة 500 متر مربع تقريبا و أحيانا مغطاة كليا بالنقوش. و لكن هذه النقوش التي سمعت الكثير عنها في بريدة و حتى في حائل، تعود إلى حقبة حديثة نسبيا و جميعها تقريبا مكتوبة باللغة العربية. و قد تفحصت كل الكتل تقريبا، حوالي 150 كتلة، و لم أعثر على شيء سوى أسماء علم أو الشهادة" لا إله إلا الله" غير أن بعض آثار أحرف كوفية و عشرة أحرف حميرية تدل على مرور فنانين أكثر قدما.

على غرار بلدات عديدة أخرى في الجزيرة العربية و بالأخص في نجد، فقد تحملت عين ابن فهيد نتائج كل الثورات التي هزت هذا البلد فأفرغت مرارا من سكانها و عادت آهلة. الإقامة الحالية ترقى إلى ثمانين سنة. و بالطبع فإن احدا من السكان الحاليين لا يعرف شيئا عن الذين سبقوه في هذا المكان. تأييدا لقدم عين ابن فهيد، غاب عن بالي ذكر وجود كهفين مقببين في الطرف الشمالي الشرقي للقرية و هما متلاصقان و لكنني لم أستطع تفحصهما عن كثب لانهما مملوءان بكل انواع الحطام. و في ذلك واقع لافت يستحق الذكر، ذلك انه من دمشق حتى عنزه و من الأحساء حتى البحر الاحمر لم أر مثيلا لهما و لا أعتقد أنه يوجد غيرهما.

و يبلغ عرض النفود الممتد شرقي عين ابن فهيد 65 ميلا بحسب إفادة الصلب المخيمين قرب القرية لدى مروري.

في اليوم الثالث من وصولي في 13 آب، غادرت عين ابن فهيد قبل الفجر بوقت طويل و بعد ساعتين قادتنا مسيرة عشرة كيلومترات جنوبا، 10 درجات شرقا الى آبارOusetah وسيطة المهمة لأنها تزود عين ابن فهيد بمياه الشرب.

كل ليلة قرابة منتصف الليل يذهب رجلان يقودان خمسة عشر حمارا من القرية حاملة قرب السكان و يملأونها من آبار وسيطة. و يسيرون يوميا مسافة 20 كيلومترا للحصول على كمية المياه اليومية اللازمة. و أي مياه! لم أر في حياتي ماء موحلة إلى هذه الدرجة. أما مذاقها فباستثناء مياه الشقيق في النفود، لا أذكر أنني شربت ماء بهذه النتانة. و مع ذلك يا للسخرية المرة، تجري مياه ينابيع القرية التي تسقي النخيل صافية كمياه الصخور عندنا.

تقع مياه الآبار على عمق يتراوح بين 4 و 5 أمتار تحت طبقة من الأرض الصلصالية.

و بما أن جدران الآبار من التربة فإنها تنهار بسهولة.

إن وضع هذه البلدة و الطرفية الهش فيما يتعلق بمسألة المياه و هي مسألة حيوية، يظهر بأن الصراع للبقاء في بعض مناطق الشرق يفوق الصراع عندنا في حدته بما لا يقاس.

من آبار وسيطة انعطفنا إلى اليمين قليلا و سرنا جنوبا 10 درجات غربا و وصلنا في ثلاث ساعات إلى الصريف و هو واد يمتد من الشمال إلى الجنوب على قرابة 8 كيلومترات طولا و كيلومترين عرضا. و في الجزء الشمالي لا تزال هناك آثار منطقة بركانية.

من بداية الوادي عبرنا على أطلال قصر بني جزئيا على الأقل من الحجر المقصوب و قد أصبحت بمستوى الأرض. و أبعد قليلا تنتصب ثلاثة قصور يبعد الواحد عن الآخر قرابة كيلومتر و نصف الكيلومتر و لكن القصور مبنية بالآجرّ. و حولها رأينا الكثير من الخضرة و حقول قمح أو شعير. مياه الآبار تقع على عمق لا يتعدى مترين أو ثلاثة أمتار. القصور من الآجرّ تتألف من مجرد أربعة جدران كبيرة و باب ضخم، أما داخلها فمقسم الى بضعة أكواخ بائسة تستخدم كمأوى. و القصور و الآبار و الحقول تعود لبضع خيام للصلب تقع مراعيهم الى الجنوب الشرقي من هنا، في النفود، إلى ما وراء وادي الرمة. من حين الى آخر و بخاصة إذا كان الشتاء ماطرا، يذهبون الى الصريف و يزرعون فيه الشعير و الذرة و أحيانا القمح.

تابعنا سيرنا باتجاه الجنوب وصلنا في الواحدة من بعد الظهر إلى قصر رقية في وسط فوهة بركان يبلغ قطرها ميلين. مظهر هذا القصر المبني أيضا من الآجرّ جميل من الخارج، و لكنه في الواقع مؤلف من جدران فقط تضم كوخين بائسين يبيت فيهما النواطير المزارعون.

البئر موجودة داخل القصر و هي من أجمل الآبار التي رأيتها في الشرق. لها فتحة تبلغ 24 مترا مربعا فيما يبلغ عمقها 22 مترا، حفرت الأمتار التسعة الأولى في الرمل و التراب بينما حفر الباقي في الحث. في السنوات الخيّرة ترتفع المياه عادة إلى 15 و حتى 20 مترا و لكن بما أن المطر كان قليلا في الشتاء المنصرم فإن مياه البئر منخفضة نسبيا. المياه التي تسحب من البئر بواسطة الجمال وفق العملية المتبعة في كل الجبل و القصيم، تمر عبر قناة خارج القصر و تروي حقول الشعير، و الذرة و القمح المحدودة.

هذه السنة نظرا لنقص المياه فعلى طول أقنية الري الصغيرة زرع الشمّام و البطيخ الأحمر. قام بتشييد هذه الملكية الجميلة التي تخص الأمير حسن والده مهنا قبل عشرين سنة.

الروضة

على بعد ثمانية كيلومترات الى الشمال الشرقي من قصر رقية يقع كفر النبقية الصغير الذي يضم 35 نسمة. و ما بين الرقية و النبقية تمتد صحراء حجرة ثم يعود النفود ليبدأ على مسافة قصيرة إلى شرق هذه القرية الأخيرة.

بعد توقف لمدة ساعتين في الرقية تابعنا سيرنا جنوبا، 15 درجة شرقا، و وصلنا بعد ساعتين إلى الروضة و هي قرية تعد 150 نسمة و مقر إبراهيم المهنا، شقيق الأمير حسن. كل واحد منهما يملك فيها مزرعة كبيرة من النخيل. للقصر الذي بناه إبراهيم لنفسه و إن كان من الآجرّ، مظهر مهيب جدا و خاصة من بعيد. و يخيل إلينا أنه بناء بابلي هائل.

إبراهيم أقل ذكاء من شقيقه حسن و للوهلة الأولى لا يختلف في شيء عن خدمه الذين ينام معهم على بطنه على الرمل و الغبار. أما فيما يتعلق بي فقد استقبلني بحفاوة.

كنت أعتزم قضاء يوم في الروضة لفحص الجانب الجيولوجي المثير للاهتمام للمنطقة المحيطة و لكن ذلك استحال عليّ. فمنذ مغادرتي بريدة كانت الرياح تعصف بقوة غريبة و السماء كانت باستمرار متلبدة و الجو ثقيلا ثقل الرصاص. إبان عصف الريح كان ميزان الحرارة يرتفع في الظل حتى + + + 50 درجة مئوية. إلا أنني كنت أتحمل كل هذا بشكل أفضل في العراء منه في بيت تحت النخيل. و إذ رأيت ميزان الحرارة يرتفع غداة وصولي بسرعة أكبر من البارحة و لدى شعوري بأن رأسي مطوّق بطوق من حديد، أعطيت أمرا بالمغادرة في العاشرة صباحا. و بعد نصف ساعة بدأنا سيرنا باتجاه الجنوب و قد لففنا الرأس و الجسم و كأننا في رحلة إلى القطب الشمالي لحمايتهما من الشمس و الريح الحارقتين. و بعد ساعة في هذه الوجهة وصلت الى وادي الرمة قادما من الغرب، و نزلت في مجراه و سرت فيه حتى الثالثة حيث غادرته متجها في طريقي نحو الشمال. و بعد ساعة و نصف الساعة كنت قد عدت الى بريدة.

من المكان الذي التقيت فيه وادي الرمّة قادما من الروضة، تقع على مسافة 3 كيلومترات جنوبا الى وراء الوادي قرية الشماسيّة الصغيرة و تضم 250 نسمة. هذا المكان الذي قيل لي إنه فقير كان موجودا في القرن الماضي.

على مسافة عشرة كيلومترات شمال غربي الشماسية تقع الثامية و هي مزرعة

صغيرة تضم 10 أشخاص. أمضيت اليومين التاليين في بريدة و في 17 آب غادرتها مرة ثانية لزيارة عنيزة.

تلبية مني لدعوة أحد السكان الأثرياء، الشيخ ناصر الذي كان يقطن قرية الخب، أخذت طريقي من هنا. كانت المسافة تبلغ ميلين فيما كانت الوجهة الجنوب، 67 درجة غربا.

غربي بريدة يشكل النفود تلالا طويلة تمتد من الشمال الى الجنوب. و الخب تمتد في الاتجاه عينه في الوادي الثاني ابتداء من بريدة على طول 4 كيلومترات و تضم ملكيات رائعة. ملكية الشيخ ناصر من أروعها تضم 700 نخلة يبلغ عمرها ستين سنة أي أنها في عز حيويتها. و هو يملكها منذ ثلاثين عاما و لكنه عازم على بيعها نظرا لتناقص المياه و قد عرض عليه هاو حاليا خمسة آلاف ريال أي حوالي 20000 فرنك مما يجعل سعر النخلة الواحدة اكثر من سبعة ريالات بقليل. في حائل يبلغ سعر النخلة إجمالا عشرة ريالات. يستفيد الشيخ ناصر من هذه الملكية دخلا سنويا يبلغ 2000 فرنك تقريبا و يجعله هذا المبلغ رجلا ثريا في القصيم.

لم أغادر الخب إلا عند صلاة العصر قرابة الثالثة عصرا و سرت الى الجنوب الشرقي. و بعد كيلومترين صادفنا أول بساتين حويلان و سرت بمحاذاتها مسافة 3 كيلومترات حيث تبدأ القصيعة التي تمتد أيضا من الشمال الى الجنوب على مسافة تتراوح ما بين 2 و 3 كيلومترات.

على الرغم من وجود هذه القرى الثلاث الخب، حويلان و القصيعة في قلب النفود إلا انها تقع في ثنية أرضية خالية من الرمل و هي من هذه الزاوية تشبه الجبة شمال جبل أجا و آبار الشقيق و الزهري جنوبي الجوف.

بعد مغادرتي الخب بساعتين، تركت الوادي الذي تمتد فيه هذه البلدات الثلاث و سرت مجددا في النفود إلى الجنوب 10 درجات شرقا. انطلاقا من هذه النقطة و حتى مدينة عنيزة تصبح الطريق شديدة الخطورة بسبب التجوال الدائم للبدو الذين يخيّمون في الصحاري شرقي هذه المنطقة و غربها.

وادي الرمة و عنيزة

و بعد سير دام من الخامسة حتى الثامنة ليلا في النفود، وصلت إلى وادي الرمّة و أولى

شجرات النخيل فيه. و قد لزمني نصف ساعة لاجتياز الوادي و بلوغ النفود مجددا على الضفة اليمنى. كان الوقت قد أصبح متأخرا جدا للدخول إلى عنيزة لذا خيمت عند حافة الوادي قرب كوخ فلاحين نواطير النخيل.

جزء من وادي الرمّة الذي يمر قرب عنيزة مزروع كليا بالنخيل الذي يخص سكانا في هذه المدينة. و من الإثمار حتى قطاف التمر يسكن فلاحوهم فيه مشكلين قرية تدعى الوادي. خلال الشتاء يقيم قسم من هؤلاء السكان في المدينة. لا يتجاوز عمق الماء في هذا الجزء من الوادي مترا أو مترين عن سطح الأرض بحيث لا يحتاج النخيل إلى السقي كما هو الحال في أماكن أخرى. فوضعها شبيه بوضع نخيل عقدة و حقل و جو و أماكن أخرى في جبل شمّر.

زراعة النخيل في وادي الرمّة قديمة جدا و قد كان فيها قديما مدينتان أو على الأرجح قريتان كبيرتان مزدهرتان تماما. إحداهما إلى شمال- شرقي عنيزة تدعى الوهلان، و الأخرى إلى الشمال- الغربي تحمل اسم العيارية. و قد اختفتا كليا اليوم و كانتا بالطبع مبنيتين من الآجرّ. إلا أن الشيخ غانم الذي تعرفت إليه في عنيزة أكد لي انه رأى قبل عشرين عاما في البلدة الأخيرة من البلدتين حجارة مقصبّة تحمل نقوشا. و قد اختفت منذ ذلك الحين. و لكن من المرجح إذا كان الخبر صحيحا أن وزنها جعلها تغوص في تربة الوادي الرخوة.

صبيحة اليوم التالي، سرت عند شروق الشمس و وصلت بعد ساعة أمام عنيزة التي تطل عليك بمظهر عظيم و أنت قادم من الشمال. ثم أمضيت أكثر من نصف ساعة لاجتياز البساتين و المنازل الأولى لبلوغ قصر الأمير زامل.

كان الأمير زامل الذي أدى دورا مهما في تاريخ بلاده قد بلغ الثانية و الخمسين عام 1880. و هو رجل صغير القامة، أعرج بسبب رصاصة أصابته خلال الحرب. جبهته عريضة و عيناه الحيويتان شديدتا الذكاء و مجمل ملامح وجهه هي ملامح ثعلب قديم داهية.

و بعد ما قرأ الرسالة التي حمّلني إياها محمد بن رشيد له، بدا محتارا و قلقا. فقلت له عندئذ محاولا طمأنته بأنني جئت لأمضي يومين أو ثلاثة لزيارة المدينة. بداية لم يشأ أن أخرج من القصر لكنني قاطعته مؤكدا له جازما بأنني لم أقطع المسافة لأبقى محبوسا في مضافته.

غير أننا توصلنا في النهاية إلى تفاهم و توافقنا على ألّا أخرج إلا بصحبة شمّري و اثنين من رجاله و فيما عدا ذلك لي الحرية المطلقة. و أوصاني كما فعل الأمير حسن في بريدة بأن أرتدي باستمرار زي شيخ شمّري كبير و السيف في يدي. و أضاف" آه، لماذا اتيت الى هنا في شهر رمضان المبارك؟" فطمأنته ما استطعت مؤكدا له أن كل شيء سيسير على ما يرام. فقال" إن شاء الله!".

ستدركون مدى المخاطر التي شكلها حضوري بالنسبة الى زامل عند ما تعلمون أن سكان عنيزة يعدون من الأكثر تعصبا و أن زامل ليس أميرا عظيم الشأن على غرار ابن رشيد في حائل. عنيزة اليوم هي مدينة شبه مستقلة، إنها جمهورية و هو مجرد رئيس منتخب فيها.

و بالفعل، كل شيء سار على ما يرام، و استطعت أن أقوم بكل جولاتي و مراقباتي، حتى إنني وجدت صديقين و هما: عبد العزيز ابن محمد البسام و هو تاجر ثري زار الهند و فارس و الآخر الشيخ غانم الذي أمضى سنتين في إستانبول.

قائد الحرس المدني، إذا صح التعبير، الذي يملكه زامل، و هو أحد الجنديين اللذين وضعهما لحراستي، يدعى ثقيل و يبلغ من العمر خمسا و أربعين سنة. و قد جال بصفة درويش على ما أعتقد، في بلاد ما بين النهرين و كردستان و سورية و مصر و لذلك فإن أفكاره أوسع من أفكار مواطنيه. و قد اسعفني كثيرا خلال الوقت القصير الذي قضيته في عنيزة و جنبني متاعب عديدة. و قد اضطررت مرارا إلى قمع حميّته عند ما كان يهاجم بقوة مبالغة بعصاه أو سيفه الحشد الذي كان يتبعني باستمرار و يضغط عليّ أحيانا.

وفق أقوال زامل و آخرين، فإن عنيزة أسست قبل 1050 سنة و البعض يقول 1150 سنة. لم تكن المدينة الأولى تشغل الموقع الحالي بل كانت على بعد ميل إلى الغرب.

و بعد ما هجرت أو دمرت بعد ثلاثمئة و عشرين سنة على وجودها، أعيد بناؤها في الموقع الحالي.

أرض عنيزة صغيرة جدا اليوم. و هي تتكون في الخارج من الشبيبية على مسافة تسعة أميال إلى الجنوب و هي قرية مهدمة لم يبق منها سوى القصر و هو أيضا بات أطلالا. في الشتاء تزرع فيها أحيانا حبوب.

على مسافة سبعة أميال شرقا، روضان العوشزية و فيها 1000 نسمة

و اخيرا الوادي في الشمال و يضم 500 نسمة تقريبا.

برأيي أن عنيزة بالذات تعدّ ما بين 18000 و 20000 نسمة على أبعد تقدير. و فيها خمسة عشر مسجدا و أربع مدارس واحدة منها للبنات.

بعد ما كانت منذ البداية تشكل جزءا لا يتجزأ من الإمبراطورية الوهابية، بقيت في هذه التبعية حتى وفاة فيصل عام 1865. ثم نشبت الحرب الأهلية مباشرة بين أولاد الأمير الراحل الأربعة: سعود، عبد الله، عبد الرحمن و محمد. عند وفاته ترك سعود ولدين محمد و عبد العزيز. و قد تنازل لهما عبد الله الذي خلف والده أميرا لنجد، عن أراضي الخرج.

فور وفاة سعود تقريبا، اندلعت حرب خلافة طويلة فيما بين شقيقيه عبد الله و محمد. و بعد مغامرات متنوعة أجريا السلم فيما بينهما و احتفظ عبد الله بالسلطة.

و لكن خلال الحرب الأهلية تفككت الإمبراطورية الوهابية، فأخذ جزءا منها الأتراك أما في الخليج الفارسي و في الداخل فقد استقلت عدة مدن كبرى و في عدادها عنيزة و الرس. أولى هاتين المدينتين لم تعد تدفع لأمير الرياض أي ضريبة منذ عام 1867. هذا ما هو عليه الوضع اليوم في نجد الذي أطرقه عرضا عازما على معالجة الجزء المتعلق بتاريخ الجزيرة العربية الوسطى في عمل آخر.

غادرت عنيزة في عشية 20 آب، بعد صلاة المغرب. و كان الأمير زامل قد اتخذ احتياطات استثنائية لمنع حصول أي حادث مزعج لي على أراضيه. فقد أخليت الساحة الكبرى أمام الجامع التي يفضي إليها الطريق المسدود الذي يسكن فيه زامل و وضع رجال مسلحون في الشوارع الخمسة المؤدية إلى الساحة مانعين كل اتصال. أخذت الطريق عينها التي أتيت منها. و من بعيد كنت أسمع رجالا آخرين منهمكين بصد أولئك المتوجهين إلى الساحة و كان صرخات الناس المدفوعين و صياحهم يتناهيان إليّ. لدى اقترابي رأيت أن جميع رجال الأمير قد استلّوا سيوفهم من أغمادها. و مع تقدمي تدريجيا مع شمّري كان الرجال الذين يقطعون الشوارع ينكفئون من ورائي.

لم يدهشني اهتمام الأمير البالغ بي و الذي تجسد بهذا العرض للقوى الذي لم يبلغني عنه على أي حال، بقدر ما أدهشتني فظاظة الجنود في تنفيذ الأوامر. أحد السكان الذي لم يعد أدراجه فورا راغبا في الحصول على مجرد تفسير وجد نفسه محاطا

بخمسة رجال من المواكبة بلمح البصر، و قبل أن أتمكن من التدخل كان قد أصبح طريحا بلا حراك على الأرض بعد ما انهالت ضربات مقابض السيوف على رأسه.

و ترك ممدا وسط الطريق و لم يكترث أحد به.

لدى خروجي من المدينة استطعت أن أعدّ حراسي و بلغ عددهم سبعة عشر. و أردت ان أصرفهم لكنهم قالوا لي إن أوامرهم تقضي بإيصالي حتى مشارف بريدة.

و توقفنا برهة فأشعل جميعهم مشاعل بنادقهم ثم تابعنا سيرنا. فانقسموا إلى ثلاث مجموعات سارت على مسافة عشرين مترا إلى جانبي و ورائي.

في غضون ساعة أصبحنا على مرأى من الروغاني و هي قرية مؤلفة من 120 نسمة، فتجاوزناها و بعد دقائق أقمنا مخيما في الوادي.

تابعنا سيرنا قبل الثالثة و وصلنا قبالة خطر في الخامسة حيث غادرتني المواكبة لتعود إلى عنيزة. و بعد خمسة كيلومترات بتنا على مرأى من صبيح و لم نلبث أن عدنا إلى بريدة.

إلى جانب البلدات التي ذكرتها خلال مساراتي في القصيم، لا بد لي من ذكر بعض البلدات التي لم أتمكن من الحصول على معلومات دقيقة بشأنها لأسمح لنفسي بوضعها على الخريطة. فليس في البلاد العربية أمر أقل حشمة بل و أخطر من الاستفسار عن معلومات جغرافية في الجزيرة العربية الوسطى. المستشرقون يعرفون ذلك و آمل ان يسامحني علماء الجغرافيا على الثغرات التي أشرت إليها لتوّي.

البلدات التي لم تذكر على الخريطة تقع في المثلث المكوّن من عنيزة و بريدة و غودة و هي الشيحية (على بعد 12 ميلا من بريدة إلى الغرب)، بكرية، الهلالية، الخبرا، رياض ابن حنايا.

إلى شرق بريدة و بين هذه المدينة و وادي الرمّة، أيضا بلدتان صغيرتان هما حنيظل و أبو الدود.

و أخيرا هناك قرية أخيرة اسمها دويرة تقع على مسافة قريبة من بريدة الى الغرب أو الجنوب- الغربي.

على بعد بضع كيلومترات غربي حويلان توجد الرويضيّة و هي قرية مهجورة.

بقيت يومين إضافيين في بريدة ثم غادرتها في 23 آب لأعود إلى الجبل.

انطلقت في التاسعة صباحا و وصلت بعد ساعتين إلى الشقة حيث توقفت هنا مدة ساعتين. و لدى مغادرتي هذه البلدة سلكت طريقا تقع أكثر إلى الشرق من الطريق التي سلكتها للذهاب الى القصيم مما سمح لي بمشاهدة بلدتين لم ازرهما من قبل.

إذ غادرت الشقة عند الواحدة من بعد الظهر متجها شمالا 65 درجة غربا، وصلت بعد ثلاث ساعات إلى أوثال Outsal و هي قرية مؤلفة من 250 نسمة و تحتل موقعا موفقا في حوض من الحث طوله ميلان و عرضه ميل واحد. و من أجل العثور على ماء لا يتبدل منسوبه طوال السنة ما علينا سوى أن نخرق طبقة الحث التي تشكل أرضية الحوض و التي تتراوح سماكتها ما بين مترين و خمسة أمتار. و قرية أوثال لا تشكل كتلة متراصة بل تتألف من ست مجموعات من الملكيات. و المياه ليست صالحة للشرب في كل مكان. و بين الشقة و أوثال تمتد صحراء حجرة حيث يطفو الحث باستمرار.

قصيبة

في صبيحة اليوم التالي غادرت أوثال و بعد سبع ساعات كاملة من السير عبر صحراء البطين الحجرة، وصلت إلى قصيبة.

صحراء البطين أبشع صحراء عرفتها. انطلاقا من أوثال نسير خلال ساعة تقريبا عبر صحراء من الحجر الرملي تعقبها مباشرة صحراء من الحصى المبروم تمتد حتى قصيبة. و في كل هذه المسافة الطويلة لا تشاهد العين نبتة خضراء واحدة مما يضفي عليها كآبة تفوق الوصف.

قصيبة تحتل أيضا حوضا طبيعيا شبيها بالأحواض التي وصفتها آنفا إنما أعمق منها. حافة الحوض ترتفع إلى 30 مترا مما يحجب رؤية نخيل القرية الذي لا نراه إلا لدى بلوغنا حافة الحوض. إلا أننا نلمح على بعد ميلين الأبراج المنتصبة على المرتفعات لمراقبة المناطق المحيطة.

قصيبة التي كانت ذات نفوذ كبير فيما مضى، لا تزال اليوم إحدى كبريات بلدات القصيم الجنوبي. و قد أكد لي الشيخ المحليّ أنها كانت تعدّ 2000 بندقية و لكن من الواضح أن هذا الرقم مبالغ فيه و أقدر بأن السكان لا يتجاوزون 3000 نسمة على أبعد

تقدير. للوهلة الأولى تميل بالفعل إلى منحها عددا سكانيا أكبر لأن البلدة بكاملها تمتد على أكثر من 4 كيلومترات على طول الجانب الغربي للحوض الذي تقع فيه.

و لكن ما إن نمعن النظر حتى نكتشف بأن جزءا كبيرا من الأملاك مهجورة و أصبحت أطلالا. و يتكرر هنا بوتيرة متزايدة انهيار بئر و اختفاء الماء بحيث لا مفر للمزارع من الابتعاد قليلا و حفر بئر جديدة و القيام بمزروعات جديدة.

و قد يحدث أمر غريب في قصيبة يتمثل في تحول ماء بئر كانت طيبة المذاق منذ أجيال و أجيال، بين ليلة و ضحاها، إلى مياه مالحة أو مرة. و علاوة على ذلك فالمياه غزيرة و ارتفاعها ثابت على مدار السنة.

يعتبر وجود ينبوع ماء حدثا نادرا في الجزيرة العربية لذا يعرف هذا الينبوع من بعيد. هكذا علمت في الجبل بوجود ينبوع في قصيبة حيث اكدوا لي ذلك. و قد قادني الشيخ بنفسه اليه. و بذلك تبيّن لي ان الينبوع عبارة عن بئر ارتوازية ذي منسوب منتظم يبلغ ليترا في الثانية. و بما أنه يرجح عدم معالجة البئر إطلاقا، فإن المياه غامقة اللون نتنة و غير صالحة للشرب. و بسبب الوحل لم أستطع قياس عمقها الذي قيل لي إنه يبلغ 20 مترا و هو رقم مبالغ فيه برأيي. حرارة المياه التي اخذت على عمق 5 أمتار مرتفعة جدا و قد بلغت + 10□ 29 درجة إلا انه من المحتمل ان تكون غير بعيدة عن المعدل السنوي للحرارة في المنطقة إذ يبدو ان قصيبة تخضع لتأثير عوامل مناخية خاصة. و قد أكد لي جميع السكان ان البلدة لا تعرف البرد إطلاقا و انه لا يلاحظ أي فرق في الحرارة بين الشتاء و الصيف. كما و ان الشتاء المنصرم الذي كان قاسيا جدا على شجر النخيل في الجوف و شمر و باقي نجد لم يشعر به هنا. لذا يمكن الاستخلاص من كل هذا بأن قصيبة لا بد أن تكون وسط منخفض واسع و على الأرجح على ارتفاع أدنى من مستوى باقي القصيم بعدة مئات من الأمتار.

و فرة الماء و ارتفاع الحرارة تغذيان في هذه البلدة على مدار السنة آفتين مزعجتين و هما البرغش و الحمّى.

تنعم قصيبة منذ القدم بشهرة وطيدة بأن لديها أفضل تمور القصيم.

في هذه الواحة التي يمكن لها أن تكون جنة يعيش سكان بائسون خاملون. لدى رؤية الملكيات العديدة المهجورة نسأل عن سبب الهجرة، أهو الهواء أم الماء أم الغذاء؟ من دون إنكار تأثير هذين العاملين الأخيرين، أعتقد أن العامل الأكثر فعالية هو الهواء

المتخم بالهوامّ المنبعثة من المياه الراكدة العديدة و الذي لا تجدده رياح الغرب المهيمنة لأن الواحة محمية كليا من هذا الجانب بجدار الحوض الذي تقع فيه. و مهما يكن من أمر فإنني لن أنسى لأمد طويل القسمات المشدودة و الوجوه الضامرة و الأجسام الضعيفة النحيلة و الصغيرة للسكان.

عند الطرف الشمالي- الشرقي لحوض قصيبة أملاك اسمها مشكوك.

و عند طرف القرية في الشمال تنتصب على كتف جدار الحوض أطلال مبنى قديم من الحجر المقصّب يعرفه جميع الناس في نجد تحت اسم قصر عنتر أخو مارد. و في ذهن سكان البلاد تعود كلمة أخو إلى كلمة قصر و تعني ان هذا القصر هو أخ قصر مارد في عين ابن فهيد.

لم يبق شيء يذكر من هذه الأطلال. خط الأسوار على الأرض و بعض الحجارة المتناثرة. لم استطع العثور على أي أثر للنقوش و قد أكد لي السكان أيضا انهم لم يلاحظوا وجود أي منها بتاتا.

الكهفة

في اليوم التالي غادرت قصيبة قبل الفجر. متوجها إلى الكهفة و بعد ساعتين من السير شمالا، 15 درجة غربا، بلغنا حوضا جديدا يدعى الحمودية يضم ست أملاك مهجورة. و هو لا ينتج نخيلا و يأتيه العرب البدو أحيانا ليزرعوا الحقول شعيرا و قمحا. منذ أكثر من عشر سنوات و هذه الحقول بور و لكن المنشآت و الآبار محفوظة تماما تحت هذه السماء الحليمة و المياه في الآبار وافرة. توقفت هنا لمدة نصف ساعة لتناول بضع تمرات.

و لم نلبث أن استأنفنا سيرنا، و قرابة الساعة التاسعة بدأت صحراء جديدة لا مثيل لكآبتها، مكونة فقط من حطام حث و خالية من أي شجيرة. و قد عانيت كثيرا من القيظ و بالأخص من ارتداد وهج الأرض. هذه الصحراء الحجرة الواقعة بين قصيبة و قوارة و الكهفة تدعى الترمص. أخيرا في الرابعة عصرا لمحنا الكهفة التي وصلنا إليها بعد ساعتين.

بشأن المسار على الخريطة بين قصيبة و كهفة لا بد لي من الملاحظة بأن الالتفافات التي نراها لم تستلزمها طبيعة الأرض القابلة للعبور من كل الاتجاهات، إنما حيرتنا حيال الوجهة التي يجب اتباعها. لم يكن في هذا الاتجاه غير المطروق إلا نادرا، على أي حال، أي درب أو أثر، فهذه الأرض الحجرة لا تحتفظ بأي أثر و رفيقي طراد لا يعرف سوى طريق القصيم الاعتيادية التي تمر بقوارة. و ما كان يربكنا هو أن شيخ قصيبة لدى إعطائنا وجهة كهفة في الصباح على طريقة الصحراء أي بقطعه الأفق بيده المفتوحة عموديا، أشار إليها متماديا إلى الشمال.

و قد أبدى لي الشيخ عمار ارتياحه لرؤيتي سالما و معافى و خصني باستقبال حار و لكنني لم أدخل منزله و بقيت مخيّما في الخارج على الرمل لأتمكن من المغادرة باكرا.

الا أنه أراد ان يعتبرني ضيفه، فأرسل لي بعد العشاء اثنين من رجاله لحراسة جمالي و أشيائي طوال الليل مع أن ستة من فرسان الأمير الذين التقيتهم هنا وضعوا أنفسهم فورا في خدمتي.

في اليوم التالي انطلقنا في ساعة مبكرة و لكن على مسافة فرسخين من كهفة ضيعنا قرابة ثلاث ساعات بسبب إنذار بوجود لصوص قمنا بمطاردتهم لكنهم أفلتوا منا بفضل الظلام، بحيث لم نصل إلى فيض إلا قرابة غروب الشمس.

لدى مغادرتي في صباح اليوم التالي، اجتزت جبل سلمى عبر وادي الاتسر و حينما مررت قبالة قصر عدوه و هو ملكية مهجورة حاليا، خيّمت لبضع ساعات قرب جبل فتيت وعدت إلى حائل في 28 آب بعد غياب دام ثمانية و عشرين يوما.

جبل جلدية

في 22 أيلول فيما كان الأمير يقوم بغزو جنوبي وادي الرمّة، قمت برحلة إلى جبل جلدية الذي يبعد مسافة يوم طويل إلى شرق حائل حيث ذكر لي وجود نقوش.

انطلقت في الساعة الرابعة عصرا من حائل و سرت مدة ساعة مع دليلي باتجاه الشمال، 77 درجة شرقا.

في صباح اليوم التالي انطلقنا قبل الفجر و وصلنا بعد ساعة إلى حدود الأرض الغرانيتية حيث يبدأ الحث فورا. و بعد قليل أقمنا مخيما قرب كتلة ضخمة من الحث تدعى أم الرجوم مغطاة كليا بنقوش حميرية محاها الزمن كليا تقريبا غير أنني استطعت أن أنسخ أربعا منها لا تزال مقروءة بشكل واضح.

على بعد خمسة عشر كيلومترا إلى الشمال، 80 درجة شرقا، صخور باعور حيث أيضا غدير يحمل الاسم إياه و حيث وجدت ثلاثة نقوش إضافية و صور حيوانات رسمت بشكل صحيح نسبيا.

أبعد من ذلك في الاتجاه عينه توجد صخرة البواب حيث خيّمت بعد ما نسخت ستة نقوش.

في صبيحة اليوم التالي، وصلت بعد شروق الشمس بساعتين أمام قمة معزولة كانت فيما مضى متصلة بجبل جلدية و تحمل نقوشا ما زال الجزء الأكبر منها محفوظا بشكل جيّد. هذا الجزء من الجبل يحمل كذلك اسم البواب. هنا نسخت ثمانية و عشرين نقشا جميعها حميرية.

عند قاعدة جبل البواب يتكون الوادي الذي يحمل الاسم عينه و الذي يجري نحو بقعا في الشمال- الشرقي على مسافة 5 أميال إلى الجنوب- الشرقي لجبل جلدية يقع جبل جهنة Gehennah .

على بعد 4 أميال إلى الشمال 80 درجة غربا من البواب، عثرت على ثلاثة نقوش إضافية أخرى على مسافة ثلاثة أميال في رافد صغير لوادي الشقيق محفورة على صخرة يبلغ ارتفاعها 20 مترا تقريبا و تدعى الصعيليدزه El C ?ailidzah .[1]

لوادي الشقيق الذي يتكون في هذه المنطقة مسار يبلغ 12 ميلا تقريبا إلى الشمال.

الشرقي و يضيع في الحوض الذي يحوي آثار الحاصرة.

في اليوم التالي في 25 أيلول عدت إلى حائل. و قد أعطتني رحلتي النتائج الآتية:

1- خمسون نقشا حميريا.

---

(1) و النقوش التي قال السيد رسام إنها Saylyeh الليدي آن بلانت رأت هي أيضا هذه الصخرة التي تسميها صيلية أحرف فينيقية قديمة و هذا ما تشكك به بحق، هي نقوش حميرية. انظر

Voyage en Arabie. Pe? lerinage au Nedjed, Berceau de la Race Arabe, Par Lady Ann Blunt.

1882 □321 -25 .صParis ,Hachette ,

2- و هذا الدليل على أن المنطقة الغرانيتية ذات مساحة ضيقة جدا شرقي حائل ما لم أكن لأصدقه إذ بعد رحلتي إلى القصيم افترضت أن الغرانيت يمتد على الأقل شرقي حائل Feydحتى هاجرة فيد.

3- الاكتشاف الجديد الذي يثبته مجرى الوديان بانحدار جبل شمّر باتجاه الشمال- الشرقي انطلاقا من نقطة حددتها مؤقتا بين الجنوب و الغرب أبعد من جبل أجا البادي من حائل. هذه المسألة كانت قد تكشفت لي جزئيا من مجرى وادي حائل.

و اكتشفت كذلك أن هذه المنطقة على الرغم من كونها صحراء حجرة فحسب، تحتوي على مراع أفضل من الأراضي الغرانيتية الواقعة في الجنوب. فالحث الطري بطبيعته يتفاعل بسهولة مع الماء و يسمح بأن تخترقه، لذا فإن كل المنطقة التي جبتها ما بين الباعور و جبل جلدية مثلّمة و لا تحتوي إلا على القليل من الرمل مما يساعد على نمو الخضار. و هي أخيرا تملك عددا كبيرا من الغدران التي تحتفظ بالماء حتى شهر أيار في مواسم الشتاء الممطرة.

الحجاز

لم أتمكن من المغادرة لزيارة واحات الغرب إلا في 30 تشرين الأول. و كان الأمير قد أعطاني دليلا على معرفة تامة بالمنطقة من حائل إلى تيماء. في تيماء أو في العلا قام حكام الأمير بتأمين دليل آخر لي للذهاب إلى خيبر و للعودة من هناك إلى حائل.

كان دليلي، و هو شمّري من قبيلة سويد، يدعى عجلان ابن جعري.

الطريق المألوفة للذهاب من حائل إلى تيماء تمر عبر رعى السلف [1] و لكن رغبة مني في تحديد جبل أجا باكبر دقة ممكنة، اتخذت طريقي من الشمال للالتفاف حوله.

انطلقنا من حائل عند الظهر، و أقمنا مخيّمنا عشية مرحلتنا الأولى شمال جبل أجا.

____

(1)Ri'a رعى السلف يجتاز جبل أجا من جهة إلى الجهة الأخرى. و هو يبدأ جنوبي Ri'a e'Self.رعى مضيق، معبر قفار و يفضي إلى قرب موقق Mouqaq .

في اليوم التالي و بعد مسيرة دامت ثلاث ساعات وصلنا إلى النفود و في الساعة الثالثة عصرا كنا نخيّم فيه بانتظار دليلي، على مسافة كيلومتر واحد شمال جبل حشب.

هذه الآبار القديمة جدا . El Heferahقرابة الظهر كنا قد وصلنا إلى آبار الحفرة و البالغ عددها أحدى عشرة بئرا، تتمتع بجدران مزودة بحجارة مقصّبة. حجارة الغرانيت العليا مصقولة كليا و هي تحمل خطوطا عميقة ناجمة عن التآكل الذي تحدثه الحبال. و يبلغ عمقها حوالي 20 مترا فيما يبلغ قطرها 3 أمتار.

تقع الآبار في حوض شبيه بحوض جبه إنما مساحته لا تتعدى 4 فراسخ مربعة تقريبا.

شرقي الحوض منزل كبير فيما إلى الغرب شجر نخيل له من العمر أربعون عاما تقريبا. كل هذا هجره المالكون منذ خمس سنوات فقط ليعودوا إلى حياة البداوة.

في اليوم التالي، في الأول من تشرين الثاني لم نمش إلا تسع ساعات و خيّمنا في المساء قرب خيمة بدوي من قبيلة سنجارية.

بعد انطلاقنا في الصباح بوقت قصير تراءى لي جبل مسما برهة و سجلت ذلك و المعروفة أكثر Thouailكذلك القمة المسماة سمير ثويل. حيث عند قاعدته قرية ثويل باسم تويةTouiah مع عشرة قلب و ثمانين ساكنا.

في 2 تشرين الثاني استأنفنا مسيرتنا مع شروق الشمس و وصلنا ظهرا بعد مسيرة ست ساعات إلى آبار العبيسة El'Abeisahعند سفح بعض التلال الغرانيتية الذين تقع أراضي Abreitالتي تحمل الاسم عينه. هذه الآبار تخص عرب عبريت تجوالهم في النفود، بين أراضي سنجارية شرقا و أراضي بني وهب غربا. الآبار قديمة جدا و جدرانها مزودة بكتل من الغرانيت الأسود المعرّق بالأبيض. المياه الطيبة المذاق تقع على عمق 12 مترا. قطر الآبار لا يتجاوز 20 1 متر.

على بعد عشرة كيلومترات شمالي آبار العبيسة بئر رمادة فيما تقع بئر سالمي على مسافة خمسة عشر كيلومترا من هذه الأخيرة إلى الشمال- الغربي. مياه هاتين البئرين شديدة المرارة و لا يمكن استخدامها إلا لسقي المواشي.

من بعد هاتين البئرين الأخيرتين، و على مسافة 35 كيلومترا إلى الشمال الغربي من آبار العبيسة، يقع جبل حبران البالغ طوله 8 أميال من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي. و في الاتجاه نفسه، على بعد 30 كيلومترا، يقع جبل فرداد Fredadو له وجهة

الجبل السابق نفسه و لكن طوله يبلغ قرابة 40 كيلومترا.

هذان الجبلان مثيران للاهتمام، إذ إنهما يسمحان، لكونهما من الحث، بمتابعة تحديد الخط الفاصل بين الحث و الأرض الغرانيتية بشكل تقريبي حتى تحت رمل النفود. و برأيي إن هذا الخط لا بد أن يكون على مسافة قريبة من الطريق التي سلكتها منذ آبار الحفرة و حتى آبار العبيسة مع المرور شمال جبل حشب و آبار الحفرة.

على بعد 45 كيلومترا جنوبا 5 7 درجة شرقي العبيسة، أبعد من النفود و على مسافة قصيرة من جبل أجا، تقع موقق. هذه البلدة القديمة جدا، كانت مهمة جدا في غابر الزمان و هي من بعد قفار و المسجد، أهم بلدة في الجبل. و إذ باتت اليوم في وضع متقهقر جدا فإنها تملك فقط 10 قلب نورد اسماءها في ما يأتي:

- آدروبAdroub 100 نسمة
- لزامLezam 50 نسمة
- مشرفةMasurefah 60 نسمة
- سرحانيSerhany 50 نسمة
- الخرابةEl Kheraba 90 نسمة
- سلاميSalamy 30 نسمة
- المتنةEl Metnah 20 نسمة
- شليلSeleil 50 نسمة
- سنودSenoud 20 نسمة
- شويمةSoueima 30 نسمة

موقق منهكة بسبب أنواع الحمّى المستشرية بانتظام كل سنة منذ الخريف و حتى الصيف.

في عام 1870 حصد مرض الكوليرا الذي جلبته قافلة عائدة من مكة ربع السكان.

الدارجة Bed'a Gefeifaعلى مسافة 6 أميال جنوبي موقق تقع بدع جفيفة تسميتها جفيفة و فيها قرابة 100 نسمة.

بعد توقف دام ساعة عند آبار العبيسة استأنفنا مسيرتنا باتجاه الغرب ثم خيّمنا مساء قرابة الساعة الخامسة تحت خيمة الشيخ فرحان بن عيسى من قبيلة Drelhaدرلها . و كنت قد تعرفت في حائل الى هذا الشيخ الذي استقبلني بترحاب.

في اليوم التالي، قادتني مسيرة أربع ساعات إلى حدود النفود و بعد 4 كيلومترات أخرى وصلت إلى بئر المريد المسوّرة و البالغ عمقها 15 مترا و قطرها 20 1 متر. الماء فيها شديد المرارة و مالح و لا يمكن استعماله إلا لسقي المواشي.

Elعلى مسافة عشرة كيلومترات إلى الجنوب- الشرقي من المريد يقع جبل الحاب و OuraiKالصغير و على مسافة مماثلة إلى الجنوب- الغربي يقع جبل عريق H'ab الجبلان من الغرانيت الأحمر الداكن.

لدى مغادرتنا المريد بعد توقف دام ساعة، سرنا أربع ساعات في الصحراء التي تفصل هذه البئر عن جبلي المسما و العوجا ثم خيمنا فيها عند غروب الشمس. هذه الصحراء التي يبرز فيها الصخر العاري باستمرار هي سهل مستو، رتيب و النباتات فيه نادرة.

في 4 تشرين الثاني انطلقت قبل الفجر و وصلت بعد مسيرة خمس ساعات إلى Mismaالرأس الجنوبي لجبل العوجا الذي يلتحم به فورا الجزء الشمالي من جبل مسما الجبلان خارج النفود و مكوّنان من الحث. اتجاههما المماثل إلى حد بعيد لاتجاه جبل . أجا هو شمالي- شرقي إلى جنوبي- غربي.

في المكان الذي بلغت فيه جبل مسما عثرت على نقش كوفي صغير، و في الجزء الجنوبي حيث غدير رأيت أحد عشر نقشا حميريا فنسختها.

من قاعدة جبل مسما تمكنت من رؤية جبل حبران برهة من الزمن و سجلته.

و بعد استراحة دامت ثلاث ساعات عند غدير مسما، تابعنا طريقنا مجتازين الجبل و قد سهل عبورنا كثيب عال من رمال النفود التي رمتها الرياح الغربية عليه. و بعد ثلاث ساعات و نصف الساعة من السير خيّمنا في الصحراء الحجرة الممتدة بين و مسما و المماثلة للصحراء الواقعة بين الجبل الأخير و بئر Khenlouahجبلي خنلوه المريدEl Mereid .

في اليوم التالي قادتنا خمس ساعات من السير إلى الطرف الشمالي من جبل خنلوه

المؤلف كليا من الحجر الرملي و الذي بات في طريقه إلى التفتت. و يبدو لي أنه وفر جزءا كبيرا من مواد النفود. توقفنا هنا قرابة ساعة لتسجيل ملاحظات و تناول بعض التمر. ثم تجاوزنا الجبل، و بعد ثلاث ساعات تجاوزنا جبل عرنان Arna'n و[1] بعد قليل دخلنا مجددا النفود محتفظين بوجهة الشمال، 80 درجة غربا، و في الساعة الرابعة عصرا كنا نخيم قرب خيمة عربي من قبيلة أولاد علي يدعى خلفا و الذي أصر على الرغم من فقره الجلي على اعتباري ضيفه و نحر خروفا.

كنا لا نبعد سوى بضعة كيلومترات عن آبار القولبان الواقعة إلى الشمال و التي استغرق وصولنا إليها في اليوم التالي ساعتين.

إن موقع هذه الآبار في غاية الروعة. إنها ثلاثة آبار تحتل قعر فلج هائل لا يقل عمقه عن 80 مترا و حافظ على كامل تناسق شكله. الآبار البالغ عمقها 17 مترا مسوّرة و مياهها عكرة و مذاقها تشوبه ملوحة إلا أنها طيبة. و قد وجدت حرارتها بدرجة + 5 22. لدى وصولنا كان بعض البدو قد خيموا هنا منذ ثلاث ساعات و بدأوا باستنفادها ليسقوا قطعانهم.

على مسافة 27 كيلومترا تقريبا غربي هذه الآبار، توجد في النفود أيضا آبار الحيزة El Haiza و مياهها هي مياه آبار القولبان نفسها. و قيل لي إن عمقها يبلغ 45 مترا.

في قطر 5 أميال تقريبا حول آبار القولبان يبدو النفود وعرا جدا و صعب الاجتياز.

غادرت الآبار حوالي الثامنة صباحا و وصلت بعد خمس ساعات و نصف من السير بشكل متواصل تقريبا باتجاه الجنوب الغربي إلى حدود النفود، إلى خيمة الشيخ مشعل فأمضيت عنده بقية النهار و الليل.

في صبيحة 7 تشرين الثاني، لدى مغادرتي الشيخ مشعل، توجهت مباشرة إلى الرأس الشمالي لجبل حلوان الذي حددته في الشمال، 74 درجة غربا. قادتني الكيلومترات

---

(1) إنني مضطر إلى إبداء تحفظات بشان أبعاد هذا الجبل الشهير. فتقريبا كل المعلومات التي جمعتها تعطيه طولا يبلغ 40 كيلومترا بينما تقديري و قياساتي للزوايا لا تعطيه سوى 17 إلى 20 كيلومترا على الأكثر. و لكن ربما لم يخطئ العرب تماما و ربما كان لهذا الجبل المكون من حث سريع التفتت قمة في الجنوب تمتد على عشرين كيلومترا، و لكن قممه التي استهلكتها العوامل المناخية ربما تحولت إلى رمل كما حصل لجزء من جبل خنلوة و زادت من ضخامة كثبان النفود هذا الجزء من الجبل الأكثر انخفاضا من الجزء الواقع إلى الشمال بشكل طبيعي يكون قد وجد تحت أفق النقطة التي كنت أجري فيها تقويمي.

الأربعة الأولى إلى نهاية النفود الذي تركناه هنا و لم نعد إليه. إلا أنه لم يغب عن ناظري و ظل يلوح باستمرار إلى شمال دربي و حتى وصولي إلى تيماء Teima على مسافات تتراوح ما بين 6 و 18 كيلومترا.

انطلاقا من النفود و بعد ست ساعات من السير وصلت إلى بعض خيام عنيزة نصبوها على بعد حوالي 5 أميال أمام جبل حلوان، فتوقفت في خيمة الشيخ مربط Mirbat .

في مظهرها، كانت الصحراء الحجرة دونما تبديل اعتبارا من بئر المريد، لكن الكلس أعقب الحث و قرب مخيمي لتلك الليلة بدأت تظهر من جديد ملامح بركانية الأصل.

في صباح اليوم التالي، قادتني مسيرة ست ساعات تقريبا باتجاه الجنوب الغربي من بعد تجاوز جبل خنلوه، إلى صخور خاله حيث أقمنا مخيّمنا.

بعد فترة وجيزة من مغادرتي المخيم في الصباح، صادفت هضبة بركانية واسعة تحمل على الاعتقاد بوجود طريق رومانية. كل الهضبة كانت تبدو مرصوفة بحجارة كبيرة مربعة قصّبت بعناية.

صخور خاله Khalah هي سلسلة تلال من الحث، بيضاء اللون معزولة، مستديرة عند قاعدتها و بيضاوية القمم، قطرها السفلي يبلغ من 30 إلى 35 مترا فيما يبلغ ارتفاعها من 10 إلى 15 مترا. مجمل هذا الارتفاع يتجه على غرار جبال حلوان و عرنان و خنلوه من الشمال- الشرقي إلى الجنوب- الغربي. المساحات التي تفصل ما بين التلال مملوءة بالرمل و تحوي بعض النباتات.

في اليوم التالي في 9 تشرين الثاني، قطعت حوالي عشرة كيلومترات إضافية في منطقة خاله المملوءة بالتلال لأصل إلى صحراء حجرة من الحث الأسود يبدو و كأنه تفحّم. في نهاية الكيلومترات العشرين الأولى أي قرابة الدرجة 37 من خط الطول، صادفت تكوينا حثيا غريبا جدا أسميته حثا مرققا. يبدو و كأن ورقات من الحث بسماكة سنتيمتر إلى سنتيمترين قد وضعت الواحدة فوق الأخرى و أن حافات الورقات العليا قد التفت و ارتفعت في خضوعها لحرارة عالية على طريقة ورقات الرق في حالة مماثلة. هنا رأيت أيضا قواعد مدورة و مربعة خارجة من الأرض شبيهة بقطع أعمدة و كلها بركانية الأصل. كنت قد رأيت الظواهر نفسها بين كهفة و قوارح و شمالي قصيبة. هذه القطع الحثية عينها اعتبرها بالغرايف بأنها بقايا صروح و ذكّرته بعبادة الكواكب.

تيماء

تمكنت من Ghreneinبعد فترة وجيزة عند ما لمحت قمة من جبل غرنين تحديد وجهة تيماء الموجودة شمالي الجبل. و تمكنت كذلك في الوقت نفسه تقريبا من تقويم جبل برد Burdجنوبي طريقي. و بعد ثماني ساعات كاملة من السير الحثيث، خيمت في هذه الصحراء المحجرة.

في صباح اليوم التالي في 10 تشرين الثاني، انطلقت في الساعة الخامسة و في الساعة العاشرة كنت أخيم قرب جبل غنين و بعد ساعتين وصلت إلى تيماء.

و كان ابن رشيد قد أعطاني رسالة للحاكم التابع له في تيماء، عبد العزيز العنقري فحظيت باستقبال في غاية الاحترام و الودّ في آن واحد.

لا شك في ان هذه الواحة من أقدم البلدات فالإنجيل جاء على ذكرها تحت اسم تيما و جميع المؤلفين الشرقيين يأتون على ذكرها كمدينة مهمة و عريقة و بطليموس يعطي موقعها الصحيح بفارق بسيط بالدرجة 71 من خط Thaimaتحت اسم تيماء الطول و الدرجة 27 من خط العرض. و قد روى لي السكان الذين يتمتعون بمعرفة واهية عن هذا التاريخ القديم أن مدينتهم قد دمرت ثلاث مرات و أنها هجّرت عدة قرون قبل أن تعمر بالناس من جديد. كما أنه يوجد إلى الجنوب- الغربي على مسافة كيلومتر واحد من تيماء كومة أطلال من الحجارة المقصّبة و قطع الأعمدة التي غطت نصفها الرمال، و يسمونها توما و يشيرون إليها على أنها آخر مدنهم القديمة من حيث عمرها.

النقوش التي نقلتها ليست كثيرة و لكنها مثيرة جدا، إما لجهة قدمها أو لجهة شكل أحرفها القديم. أحد النقوش النبطى و آخر آرامي و ثالث لم تحدد هويته بعد. اشير إلى تيماء برسم المستكشف المقبل كي يجري فيها تنقيبا لأنني واثق من وجود كنوز أثرية فيها.

كانت تيماء مبنية بالحجر الأسود البازلتي الشبيه بحجر مدن حوران و جبل الدروز المهدمة. و التفصيل اللافت هو أنني رأيت في مبنى قديم مهدوم ملاصق لبيت عبد العزيز العنقري و يخصه، جزءا من سقف مصنوع من أشرطة طويلة من الحجر نفسه، تماما كما في حوران.

أما أعجوبة تيماء فتكمن اليوم في بئرها المشهورة في كل أرجاء الجزيرة العربية.

و قد روي لي مرارا أن" مائة جمل تسحب الماء باستمرار". ولدى التثبت من هذا العدد لم أجد سوى خمسة و سبعين دولابا في أماكنها و لكن الحق يقال بأنه عند الضرورة يمكن وضع مائة دولاب.

هذه البئر بشكلها غير المنتظم تشبه إلى حد بعيد مربعا بزوايا مدورة و يبلغ طول كل ضلع من أضلاعه 20 مترا تقريبا. أما ارتفاع جدرانه فشديد التفاوت، جانبان يبلغان 5□ 10 أمتار و جانب آخر يبلغ ارتفاعه 5□ 12 مترا من سطح الأرض و حتى قعر البئر.

و يبلغ ارتفاع الطبقة المائية ثلاثة أمتار تقريبا و هي لا تزيد عن ذلك و لا تنقص أبدا مهما كان الموسم. المياه صافية و طيبة المذاق بعد تبريدها في القرب. و قد أكد لي جميع السكان أنها إذا ما شربت من البئر مباشرة، أي فاترة، فإنها تتسبب بمرض شديد.

في الجدار الشرقي للبئر و على مسافة متر تقريبا فوق مستوى الماء توجد في الصخر ثلاث فتحات بعرض نصف متر تقريبا و بارتفاع سبعين سنتيمترا لا يعرف استعمالها و لا مصدرها. كما أن احدا لم يجرؤ على الدخول فيها.

في تيماء 60 قلبا في كل واحد منها من خمس إلى ست عائلات بحيث يكون عدد السكان 1500 نسمة تقريبا.

تمور تيماء هي أفضل تمور الجزيرة العربية الشمالية باستثناء جنسين أو ثلاثة موجودة بكميات محدودة في الجوف و في حائل.

تبقى المحاصيل مؤمنة على الدوام. لان مياه بئر هذه الواحة لا تنقص أبدا حتى بعد عدة سنوات من الجفاف، لذا فإن الملكية العقارية تتمتع في تيماء بقيمة لم أشهد مثيلا لها في أي مكان آخر. فالملكية تباع بمعدل 15 إلى 20 ريالا [1] لكل شجرة نخيل بينما في حائل لا يباع حتى أجمل شجر النخيل بأكثر من 10 ريالات.

بما أن ارتفاع تيماء يفوق ارتفاع حائل فقد عانت المزروعات فيها أكثر مما عانت في الجبل خلال شتاء 1879- 1880 القاسي. غير أن مقاومة النخيل كانت جيدة فيما لم تعط كروم العنب و شجر الرمان و التين أي محصول هذه السنة.

(1) الريال يساوي ما بين 4 فرنكات و 50 سنتا إلى 4 فرنكات و 80 سنتا.

تبيع تيماء تمورها بشكل حصري تقريبا لعرب شرارات. في بعض الأحيان يصل عرب الرولة إلى هنا و لكن ليس في كل سنة. و الشرارات هم الذين يمدون تيماء بالسمن و الخراف.

القبيلتان العنزيتان اللتان تؤلفان قبيلة بني وهب أي الفقرا و أولاد علي الذين تمتد مراعيهم أيضا حتى تيماء لا يتزودون بالتمور فيها بل في خيبر، فكون الفقرا مالكي نخيل خيبر يعفيهم من شراء التمر.

بانتظار نشر كامل لوائح كلّ القبائل و فروعها العديدة الذي سأقدمه لاحقا، أشير هنا إلى قبيلة بني وهب المثيرة للاهتمام من جميع الأوجه و التي تنقسم إلى فرعين كبيرين أولاد علي و الفقرا.

قبائل فرع أولاد علي هي التالية:

-ليديان- المسعد- السند- المريخان

-الركاب- العطيفات- المشطه- الطلوح

-الخالد- الربيلات- الدمجان- الطوالعه

المشرف- الخيل- الذويبي- الشرعبة.

و هي في مجموعها 16 قبيلة تعد حوالي 600 خيمة. الشيخ الأكبر الحالي يدعى مطلق بن رجا العيد Aleid .

أما قبائل الفقرا فيبلغ عددها تسع قبائل:

-المبارك- الشفقة- الهجور- الخمعلي- الصهبان

المغاصيب- الفرعين- الحويكم- الجمعات.

و تملك هذه القبائل بمجموعها حوالي 400 خيمة. يدعى الشيخ الأكبر الذي تقع خيمته في قبيلة المبارك مطلق بن الحميد.

على النحو الذي أشرت إليه على الخريطة فإن بني وهب يجوبون صحراء الشفة حيث تشكل تيماء حدودها الشمالية و الحرة Harrah حدودها الجنوبية. نصيب أولاد علي هو الأفضل لأن أراضيهم تضم قطعة من النفود. في المقابل يجتاز درب الحج الذي يشكل مصدر أرباح للعرب كل سنة، جزءا من أراضيهم و بالإضافة إلى ذلك

فإنهم كما ذكر آنفا يملكون نخيل خيبر الذي يؤمن لهم كل سنة مؤونتهم من التمر.

الصحراء المحيطة بتيماء مباشرة تدعى مدائن صالح.

مدائن صالح

في 13 تشرين الثاني غادرت تيماء مجددا قاصدا مدائن صالح. في هذا اليوم الأول لم أجتز سوى ثلاثين كيلومترا لم تكن في خط مستقيم فقد ارتأى عجلان في اللحظة الأخيرة أن يطلب من البدو الرحّل رجلا أو رجلين تعزيزا لنا لمرافقتنا نظرا لعدم أمان الطريق. في المساء خيمت تحت خيمة الشيخ محسن الذي كان آنذاك في مكة مع الجمال المستأجرة للحج.

في اليوم التالي لم نقطع سوى عشرة كيلومترات تقريبا إلى الجنوب الشرقي.

في 16 تشرين الثاني تابعنا سيرنا إلى الجنوب- الشرقي. و بعد خمس ساعات من السير بلغنا جبل شرقيي الممتد تقريبا من الشمال إلى الجنوب على طول عشرة أميال بموازاة جبل غربي الذي يفصله عنه واد يبلغ عرضه من 5 إلى 6 كيلومترات.

هذان الجبلان، و هما تلتان يبلغ ارتفاعهما ما بين 40 و 50 مترا، مكونان من الحث الشديد التفتت، و رغم إحاطة النفود بكثافة لهما، فإنهما عقيمان كليا. إنهما امتداد الأرض التي تبدأ مباشرة جنوب غرب تيماء حيث يزول الطابع البركاني السائد في الجنوب- الشرقي و تتحول الأرض إلى صحراء صخرية متخبطة حتى لتظنها أحيانا بحرا صاخبا تجمّد فجأة.

في نهاية الوادي الذي يفصل تلتي شرقيي و غربي، تقع آبار الغوطة. مياه هذه الآبار التي يبلغ عددها 30 تقريبا، تقع على أعماق تتراوح ما بين 4 و 6 أمتار مباشرة تحت طبقة الرمل. المياه طيبة المذاق و الآبار غير مسوّرة.

انطلاقا من الآبار سرنا مسافة 20 كيلومترا إضافيا ثم أقمنا مخيما.

في اليوم التالي، في 17 تشرين الثاني، قادتنا مسيرة ثلاثة أيام إلى قرب صخرة هائلة محفورة على شكل قوس قوطية يبلغ ارتفاع قبتها 25 مترا. جداراها الداخليان

مملوءان كليا بالنقوش و منحوتات حيوانات لكن عامل الزمن تكفل للأسف بمحوها كلها و لم أتمكن من نسخ سوى نقش واحد. و تحمل هذه الصخره اسم الركبRekab .

أقمت مخيّمي على مسافة خمسة كيلومترات قرب صخرة أخرى أكثر غرابة. فهذه الصخرة معزولة كليا و مكوّنة من قطعة واحدة على شكل جدار يبلغ طوله 300 متر و ارتفاعه 50 مترا و سماكته 10 أمتار. جنباته تبدو و كأنها قصت بالمقص لشدة استقامتها. الأجزاء السفلية كانت هي أيضا مغطاة بالنقوش و لكن المطر و الريح المحملة بالرمل تكفلا بمحوها. إلا أنني وفقت في نقل نقش واحد بشكل مؤكد، و اللافت هو أنه كان نقشا نبطيا بينما كان النقش الذي نسخته عن صخرة الركب حميريا. هذا الحائط الخرافي يدعى مقراط الدبوس.

بعد ساعتين وصلت إلى قلعة الحجر على درب الحج المسماة لدى المؤلفين المسلمين مدائن صالح. و تقع هذه المحطة في منتصف الطريق بالضبط بين دمشق و مكة.

ههنا المنازل الحجرية الشهيرة المحفورة في الجبل و التي يتحدث عنها مؤلفون عرب كثيرون. باستثناء السيد دوتي، لم يتسن لأي كافر قبلي مشاهدتها. في المحصلة، إنها غرف ضريحية لا منازل، حفرت في الحث بعناية فائقة. كلها تقريبا تتمتع بأبواب ضخمة حفرت فوقها نقوش نبطية و آرامية.

تقع الحجر في الجزء الأكثر انحدارا من الوادي الواقع بين جبل الرمل البركاني حيث يظهر الغرانيت من Ageibو جبل العجيب Aouarahالأصل المسمى عوارة جديد.

Khalahصخور الحجر التي تتضمن الغرف الضريحية شبيهة تماما بصخور خاله غربي جبل حلوان. و هي صخور معزولة على شكل قفير النحل، حفر في كل واحدة منها ضريح. أما الباب الضخم الهائل في أغلب الأحيان فيقع إجمالا على علو عدة أمتار فوق الأرض. و في داخل الغرف تم حفر الجدران على شكل مزود بحيث يمكن أن تستقبل جسدا. و في كثير من الأحيان أيضا تم حفر قبر في أرض الغرفة. و يبدو أن الغرف الضريحية لم تزوّد بتاتا بأبواب، و على أي حال لا يوجد على الحجر أي أثر لأي قفل.

هذه المنطقة و منطقة الجوف في اليمن هي الأكثر إثارة للاهتمام في الجزيرة العربية و إنني عازم على تناولها بالتفصيل في مناسبة أخرى.

نقوش الحجر نبطية في مجملها تقريبا.

باستثناء القلعة لم يعد يوجد أي مبنى قائم في الحجر. هذه القلعة هي إحدى محطات قافلة الحجاج الذين يذهبون كل عام من إستانبول إلى مكة. و يحكم القلعة محمد إبراهيم، و هو جزائري من حاشية الأمير عبد القادر. و لا يقيم فيها إلا خلال فترة الحج، و القافلة التي لا تزال حاليا في مكة ستأخذه معها في طريق عودتها إلى دمشق. و مع أربعة رجال غير نظاميين يعملون تحت إمرته و بغل، يتعين عليه سحب مياه البئر الموجودة داخل القلعة و صبها في الحوض المبني وراء القلعة ليتمكن الحجاج من الغرف منها بسهولة لدى مرورهم.

العلا

غادرت الحجر في 17 تشرين الثاني عند الظهر و وصلت في الساعة الرابعة من العصر إلى العلا.

من الخارج، يبدو مظهر المدينة الصغيرة في غاية الجمال. و قد ذكّرتني الشوارع الضيقة جدا و المتعرجة و الوسخة جدا بالحي اليهودي في دمشق. وجوه السكان الذين يشبهون أولاد هبر Heber فعلا أكملت الوخم.

نزلت في منزل محمد سعيد بن سعيد، عبد الأمير محمد بن رشيد، و حاكمه هنا. و إذ سلمته الرسالة التي حمّلني إياها الأمير، لقيت منه أجمل استقبال.

العلا المبنية كليا من الآجرّ مقسومة إلى قسمين متساويين تقريبا بواسطة صخرة معزولة يبلغ ارتفاعها 40 مترا تقريبا تكاد تكون عمودية من جميع الجهات و تعلوها أطلال قلعة. لكل من نصفي المدينة شيخ أو أمير و النصف الجنوبي هو الأهم.

كان الأمير قد أنذرني في حائل دون أن يتمكن من أن يشرح لي السبب أنه في حال إصراري على الذهاب إلى العلا و خيبر فإنني سأتعرض للمرض الشديد. و بالفعل غداة وصولي إلى العلا أحسست بانزعاج هائل يتمثل في تلاشي قواي و انحطاط و غثيان و تقيّؤ و صداع و تعرّق شديد. كان ذلك تسمّما ناجما عن الوخم الحامل الحمى المنبعث من اراضي البساتين المملوءة بالمستنقعات. السكان، و جميعهم من الزنوج بنسب متفاوتة، لا يتأثرون بمفاعيله أو أنهم يتأثرون بذلك بدرجة أقل.

بدا لي السكان البالغ عددهم 1500 نسمة تقريبا، خليطا من الزنوج و اليهود. لون بشرتهم هو تقريبا اللون الذي يمكن أن ينتج عن اللون رقم 36 و 51 من جدول" ألوان البشرة" المعارف العامة لجمعية الأنتروبولوجيا لباريس الطبعة الثانية

Instructions Ge? ne? rales de la Socie? te? d'Anthropologie, 2 e? dition

درجة اللون 50 داكنة جدا مما يعني أنه لا وجود للسود بالمعنى الصريح. و لكن في مقابل غياب اللون، يبقى الدفق السمة الثابتة. و الأقل دفقا يتمتعون أيضا بلون فاتح و يشكلون أرستقراطية المنطقة.

و هؤلاء المحظوظون هم نتاج زواج مع بدويات رحل في الجوار، العنيزة أي يهود[1].

لقد تعرضت العلا منذ القدم لنهب عرب العنيزة و بني الرحّل، و لم تكن الحكومة العثمانية التي كانت تتقاضى الجزية من العلا تحميها منهم. و منذ أن ضم ابن رشيد هذه المدينة الصغيرة إلى أراضيه لم تعد تخشى عنيزة. كما أن عرب بلي لا يجرؤون على التعرض لها بشكل مكشوف خوفا من الرد الانتقامي أو من أن يقوم أمير شمّر باجتياح أراضيهم. لكنهم لا ينفكون يجوبون الريف ما بين تيماء و العلا و بالأخص في جوار العلا سالبين كل العزّل الذين يصادفونهم. لذا يحمل الجميع السلاح باستمرار حتى للذهاب إلى البساتين.

تتعم العلا بظروف ازدهار استثنائية. ثمانية ينابيع تسقي نخيلها و اثنان منها قويّان، و يعطي مجموعها أكثر من حاجتها للماء. و قد أكد لي ان سنة جفاف أو حتى عدة سنوات من الجفاف لا تؤثر على منسوب هذه الينابيع، لذا يزرع السكان إلى جانب النخيل، كل القمح و الشعير و الهراء [2] اللازم لهم. كما أن بساتينهم تضم عددا كبيرا من أشجار الدراق و الليمون و الحامض و التين و الرمان و العرائش. و أخيرا يزرعون الشمّام و البطيخ الأحمر و التبغ.

وجود الينابيع يعفيهم من عملية سحب الماء المضنية و كذلك من الاعتناء بالدواب.

تتراوح قيمة النخلة في العلا ما بين 8 ريالات و 20 ريالا وفق الوضع. و إذ تعطي النخلة دخلا سنويا متوسطا بقيمة 4 ريالات، فإننا نجد هنا أناسا أثرياء. فشيخ السوق الشمالية عمار بن عبد الغني بن بدير يملك 400 نخلة.

جيران العلا المشاغبين، و أراضيهم التي تبدأ Belyسبق أن ذكرت عرب بلي عند

(1) هذا التأكيد يستلزم دليلا قد يكون السيد هوبير قد اكتشفه [التحرير].
(2) الهراء: فسيل النخل.

خط العرض نفسه الذي يبدأ منه جبل عوارة، تمتد إلى داخل شبه جزيرة سيناء بين البحر الأحمر غربا و عرب شرارات شرقا. كانوا فيما مضى أثرياء و أقوياء إلا أنهم خسروا كل خيلهم في أعقاب الغزو الذي شنه عليهم عام 1853 عرب جازي Gazy .

منذ ذلك الحين لم يعد بإمكانهم القيام بحملة حربية و أصبحوا فقراء. و لأنهم لا يسكنون إلا المناطق الجبلية، ليس لديهم سوى بضعة جمال، ما يكفيهم لنقل خيامهم.

تتمثل كامل ثروتهم بالماعز و لكنهم لا يحبون لحمه بسبب رائحته الكريهة. مراعيهم كلها في الجبال. ولديهم ماء وفير.

فيما يلي أسماء قبائلهم: الموعيب [1]- الفواضلة- الحروفا- السهامة- الفريعا- الحمران- الرموت- الهمور- المعاقلة- الوحشي- الوبصة- الجبالة- العردات.

شهرة شيخهم هو ابن رفادة.

ما كان بإمكاني الحصول إلا على معلومات متناقضة جدا بشأن تعداد البلي لأن احدا لا يدخل ابدا جبالهم. إلا أنني أعتقد أن التقدير الأصح هو أنهم يملكون ما بين 400 و 600 خيمة.

و مع أنني لم أستطع معرفة أي شيء مؤكد بهذا الصدد، غير أنني أعتقد ان جبال بلي التي تحتوي على الكثير من الغدران أو خزانات الماء لا بد أنها تخفي نقوشا كثيرة و ربما بقايا صروح معاصرة لصروح الحجر و العلا التي أنتجتها حضارة واحدة. و أي بعثة ترسل إلى هناك لا بد ان تعثر على مواد مثيرة للاهتمام.

بعد يومين من وصولي استطعت الذهاب إلى آثار العلا القديمة، و بهذه المناسبة ثبت لي مجددا أن البلد غير آمن. و مع أن مسافة كيلومترين فقط تفصل المدينتين، إلا أن محمد سعيد لم يسمح لي بالذهاب إلا برفقة تسعة من السكان مسلحين جميعا بالبنادق و انضم هو بنفسه إليهم.

الآثار التي تحمل اليوم اسم ناقة صالح أو حلوية العالية الحديثين، تقع على تلة صغيرة شمالي العلا و لم تعد سوى كومة لا شكل لها من الحجارة المقصّبة و المنحوتة.

لا أثر لجدار واحد قائم و لكن لم يزل بالإمكان تتبع حدود بعض الصروح التي باتت أساساتها بمستوى الأرض. و ثمة حطام أعمدة و قرميد مزخرف.

---

(1) أو المواهيب.

وسط هذه الآثار تهيمن ساحة صغيرة وضع في وسطها حوض مدوّر ضخم حفر في كتلة واحدة من الرمل أرتفاعه 50□ 2 مترا و قطره متران. و باستثناء شقين لا يزال هذا الحوض الهائل في حالة جيدة. الجدران الداخلية و الخارجية مغطاة بأحرف حميرية و عربية تكاد تكون ممحوّة. و يتعذر اليوم التكهن بوجهة استعمال هذا الصرح.

إلى شرقي وادي العلا ترتفع بزاوية قائمة كتل صخرية يتجاوز ارتفاعها 200 متر حفر عند قاعدتها حوالي 200 قبر مماثلة لقبور الحجر إنما دون باب تذكاري. و في كثير من الأحيان، عوضا عن حجرة، اكتفي بحفر فتحة تتسع فقط لوضع جثة. في هذه الحال تتخذ هذه الفتحات شكل حجيرات الأموات الموجودة في أبراج تدمر الضريحية.

عدة حجيرات لم يتم إنجازها و يحمل مجمل الأعمال طابع عمل توقف فجأة. كما أن هناك نقوشا منحوتة فوق الأرض لا يمكن التكهن بأي وسائل استطاع الفنان أن يطالها سواء من تحت أو من فوق.

تحمل هذه القبور اسم الخريبة و كذلك اسم دار ثمود. و قد سجلت هنا 33 نقشا.

مناخ العلا حارّ و يبدو أن الشتاء فيها ليس باردا على الإطلاق. شتاء 1879-1880 مرّ و كأنه لم يكن. و عند ما أخذت حرارة الينابيع أربع مرات في ساعات مختلفة من النهار، لم أجد بينها سوى فوارق بضعة أعشار الدرجة و كل الأرقام التي دونتها أعطتني حرارة متوسطة تبلغ + 9□ 28 درجة مما يشير بالفعل إلى مناخ حار. أما أبرد درجة للحرارة التي لاحظتها خلال إقامتي في العلا فهي الدرجة الدنيا ليوم 28 تشرين الثاني حيث بلغت + 1□ 13 درجة.

بعد إقامة دامت اثني عشر يوما غادرت العلا في 29 تشرين الثاني و قد أمّن لي ابن سعيد المواكبة مع سبعة عشر رجلا مسلحا مسافة 5 أميال. المسيرة من العلا إلى خيبر أكثر خطورة من المسيرة إلى تيماء و نرى أننا نقترب من الممتلكات التركية.

قادتنا مسيرة ثلاث ساعات إلى أطلال مدينة صغيرة، أو بالأحرى إلى مدينة لم يبق من أطلالها شيء. إذ من المرجح أنها بنيت من الآجرّ. و لكن بقي شقا جدارين من الآجرّ المطبوخ. على امتداد كيلومتر مربع تقريبا ترى الأرض مفروشة بقطع الآجرّ و الفخاريات المطلية و الزجاج الملون. غاب اسم هذه البلدة و لكن في العلا حيث السكان أتقياء يطلقون عليها اسم دار النصارى أما البدو فيسموّنها هي و الأراضي الواقعة بين جبلي العجائب و المريرة، مابي.

على تلة صغيرة بقايا برج من الحجر و الآجرّ حيث قيل لي إنه يوجد نقش إلا أنني لم أستطع العثور عليه.

توقفنا ساعة في مابي ثم تابعنا سيرنا إلى الجنوب- الشرقي. في الساعة الثالثة عصرا قطعنا درب الحج و تركناها إلى يميننا، و في الساعة الخامسة مساء كنا نخيّم وراء آخر خاصرات جبل مريرة الغرانيتي كجبل العجائب الذي كنا قد تجاوزناه.

كانت الأرض الغرانيتية على أي حال قد بدأت على مسافة كيلومترين جنوبي العلا و معها دخلنا أراضي عرب عنزة المستقلين و لكن المتحالفين مع شمر.

فرع أولاد سليمان الكبير هو الباقي في المنطقة. تتناثر خيامهم من جبل مريرة و حتى مشارف ينبو في الجنوب.

القبائل الرئيسة هي التالية:

الجعافرة- الفضيل- المرتعد- العوجي- البكار- الفضوارة- المريهم- النحات- المطردة- السهول- الغمشة- السعيد- النومسة- الشملان.

أولاد سليمان أكثر عددا من بني وهب و هم أيضا من عرب عنزة كما رأينا ذلك آنفا و لكنهم أكثر فقرا أيضا، إلا أنهم في المقابل يملكون كنز الحرية الذي لا يقدر بثمن، و أكثر ما تحتاج إليها المجتمعات المتمدنة جزئيا. أنهم مستقلون تماما إزاء الحكم التركي الذي يعادونه و إزاء أمير شمّر الصديق.

لديهم في جبالهم بعض المراعي الجيدة و هي أفضل من مراعي البلي و على غرار الأخيرين لديهم ماء وافر. كما أنهم يملكون عددا أكبر من البنادق من البلي.

كل المنطقة الوعرة جدا الواقعة بين العلا و خيبر تحمل اسم الحجر. و هي صحراء غرانيتية قاحلة بشكل مريع: لا شيء سوى البطحاء، و المزيد من البطحاء دون عشبة واحدة تقريبا.

غداة مغادرتنا العلا قطعنا 15 ميلا في هذه الصحراء. في الصباح كنا قد مررنا على مسافة 8 أميال من جبل نخر الممتد على طول 12 ميلا من الشرق إلى الغرب. و في المساء وصلنا إلى قلعة سمرد و هي محطة على درب الحج، و قضينا الليلة بقربها.

في الأول من كانون الأول لم نقطع سوى 14 ميلا بالسير بموازاة درب الحج و خيمنا في المساء في قلعة الصورة و هي محطة أخرى على درب الحج عند سفح جبل سن.

وراء القلعة أحد أجمل الآبار التي شاهدتها في الجزيرة العربية. دائرية الشكل، يبلغ قطرها حوالي 15 مترا و عمقها 30 مترا تقريبا و هي مسوّرة كليا بحجارة مقصّبة.

المسافة على خط مستقيم بين هذه القلعة و قلعة سمرد قصيرة على الخارطة. ذلك أن الأرض التي تفصل بينهما صعبة و وعرة جدا.

في اليوم التالي لم نقطع سوى 15 ميلا إلى الجنوب- الشرقي. و خيّمنا في المساء عند أفراد قبيلة خالد من بني وهب كانوا يخيمون هنا في 60 خيمة تقريبا. هؤلاء كانوا أول رحل نلتقيهم بدءا من العلا. و المنطقة التي اجتزناها كانت أكثر و عورة من تلك التي اجتزناها بالأمس.

مخيم قبيلة خالد كان عند سفح جبل أنمار Anemar الغرانيتي الممتد على 40 كيلومترا تقريبا من الشمال- الشرقي إلى الجنوب- الغربي.

في 3 كانون الأول لم نجتز سوى 12 ميلا بسبب سوء سير جمل دليلي مرزي.

بعد ما تجاوزنا في الصباح جبل أنمار عبر واد قصير، ضيق و وعر جدا، وجدنا أنفسنا فجأة أمام سهل عظيم تتخلله أخاديد عميقة تنتصب فيه دونما ترتيب بعض القمم الغرانيتية السوداء أو الحمراء أو الخضراء. في البعيد لمحت جبلي دهام و خيبر اللذين تقع بينهما واحة خيبر. تحتل كامل الأفق من الشرق إلى الغرب هضبة ترتسم بوضوح غريب و هي تلمع في الشمس. إنها الحرة، هضبة هائلة من الحمم تمتد حتى مشارف المدينة.

قبل مغادرة آخر صخور جبل أنمار التي لا تزال تخفينا، و خوض غمار هذا السهل المكشوف حيث يستطيع اللصوص رؤيتنا بسهولة، أدى مرزي الشديد التقوى صلاة و دعاني لأحذو حذوه ليحمينا الله و يبعد الخطر عن طريقنا. و في المساء خيّمنا في خندق حيث كنا محميين جدا.

في اليوم التالي اضطررنا إلى التخلي عن جمل مرزي الذي أصابه الإعياء على هذه الأرض الوعرة على الرغم من سيرنا البطيء، فتحمّل جملي عبئا مضاعفا و اضطر دليلي إلى السير على الأقدام.

بعد بداية الطريق مباشرة باتجاه الجنوب، 65 درجة شرقا، تصبح الأرض مغطاة بالحجارة البازلتية السوداء و تبدأ الحرة.

خيبر

بعد ما قطعنا أول خمسة كيلومترات من الحرة صادفنا واد لرافد صغير لوادي الطبق حسب أقوال مرزي. في هذا المكان بالذات يشكل الوادي، بعكس المنطقة المحيطة، جنة حقيقية. فهو مملوء بالنخيل البري و بالنباتات القوية. بعض العصافير كانت تزقزق فيه و النسيم الناعم الذي كان مخيما آنذاك كان يبعث وشوشة حفيف أوراق النخيل الطويلة المطربة. الماء على عمق لا يتعدى مترا واحدا. جنة النعيم هذه في أهوال الحرة تدعى خضران.

منذ عام 1874 أصبحت خيبر ملكا للأتراك الذين انتزعوها من ابن رشيد. لديهم فيها مدير و عشرون جنديا نظاميا. هذا المدير، و اسمه عبد الله الصيروان، هو المدير الذي أساء معاملة السيد دوتي و سجنه طوال شهرين و نصف الشهر. و لكن بفضل الفرمان الإمبراطوري الذي حرصت على التزود به، أحسن استقبالي و بقيت ضيفه لمدة 12 يوما.

بفضل الينابيع و غزارة مياه خيبر، لا شك في أن هذه الواحة هي مركز مأهول منذ وجد سكان في الجزيرة العربية. أقدم الوثائق تدل على أن اليهود كانوا يقطنونها.

و سواء جاء هؤلاء إلى خيبر في أعقاب آخر أسر في بابل [1] (537 ق. م.) أو إثر الأسر الذي جلبته حملة سنحاريب (700 ق. م.) أو قبل هذين التاريخين بعد إحدى الكوارث المتكررة في يهودا، لا بد أنهم وجدوا في خيبر سكانا اضطروا إلى طردهم و سلبهم. من هم السكان الأصليون؟ ما زلنا نجهل ذلك و لكن من المرجح أنهم كانوا يمنيين.

لقد أدت خيبر دورا مهما في حقبة نشر الدين الإسلامي، و قد توقف مصير الدين المقبل برهة على صراعه مع هذه الواحة. و لكن يقول المؤلفون العرب إن عليا الذي أرسله النبي ضدها أخضعها و أباد جميع سكانها.

و ينقل المؤلفون أنفسهم أنها فيما مضى كانت تضم سبع قرى، أما اليوم فلا أثر إلّا لثلاث منها مأهولة و ما استطعت أن أعثر على آثار القرى الأخرى.

---

(1) إذا كانوا يهودا عائدين من أسر بابل الأخير و استقروا في خيبر، فلا بد حكما من العثور على نقوش آراميه. و بالفعل فإن الشعب اليهودي لدى عودته من الأسر لم يعد يفهم اللغة العبرية القديمة، فقد أصبحت الآرامية هي لغته العادية و قد ذهب إلى حد اعتماد أبجديتها.

في وسط خيبر الصخرة البازلتية المنفردة تماما المسماة مرحبا و التي كانت تحمل على قمتها في غابر الزمان الحصن الذي يحمل الاسم نفسه. اسم مرحبا هذا هو الاسم القديم الوحيد للواحة الذي نقله إلينا مؤلفو ما قبل الإسلام. و لما يزل اليوم يطلق عليه اسم قصر اليهودي. هذه الصخرة هي جبل هلالي من الحجارة البازلتية السوداء متجه من الشمال- الغربي إلى الجنوب- الشرقي. أما قمته فعلى شكل طاولة و يبلغ طولها 200 متر و عرضها ما بين 10 و 15 مترا و هي من مستوى الحره.

عند قاعدة هذه الصخرة، إلى الجنوب و إلى منتصف المنحدر، تمتد قرية خيبر الرئيسة و هي قرية بشر. شجر النخيل يبدأ مباشرة و يطوق مرحبا و القرية كليا.

تسقي نخيل قرية بشر ينابيع يقع مصدرها في القرية نفسها و ينابيع أخرى تأتي من خارج القرية. عدد الينابيع المنبثقة في القرية ستة و أسماؤها هي الآتية: صفصافه- إبراهيم- علي- الريا- الشلالة- البويرة.

هذا الأخير هو أبرد الينابيع في خيبر. و ينبوع علي هو الأكبر.

و فيما يلي متوسطات الحرارة المأخوذة في هذه الينابيع خلال إقامتي في خيبر:

صفصافه + 9□ 29 درجة

إبراهيم + 0□ 31 درجة

علي + 1□ 29 درجة

الريا + 8□ 31 درجة

الشلالة + 4□ 29 درجة

البويرة + 6□ 26 درجة

القرية الثانية تدعى مكيدة و تقع على بعد 3 كيلومترات تقريبا إلى الجنوب- الغربي لمرحبا. و بدلا من أن تكون مبنية على غرار قرية بشر في المنخفض حيث النخيل، توجد مكيدة على الحرة.

و تضم هذه القرية الينابيع الخمسة الآتية و الأول هو الأكبر: البحر- البريكة- السليمي- سلالم- أم المسك.

القرية الثالثة، العاصمية، الواقعة على مسافة ميلين تقريبا شمالي مرحبا مبنية هي

أيضا على الحرة. و في العاصمية أربعة ينابيع هي: الحامية أو الحامي- الحمامة- علي- صنبوره. ينبوع الحامية هو الأكبر.

سكان خيبر الذين يملكون 300 بندقية، يبلغ عددهم 1200 نسمة و يتوزعون على النحو الآتي:

قرية بشر تملك 120 منزلا

مكيدة تملك 100 منزلا

عاصمية تملك 20 منزلا

لا يوجد في خيبر سوى مدرسة واحدة تقع في قرية بشر و لكن المتابعة فيها غير مؤمنة إلا فيما ندر و هي قلما تفتح أبوابها. يديرها رجل دين لا يدعى في خيبر الخطيب كما هو الحال في الجبل، بل رئيس المسجد.

هناك خمسة مساجد، اثنان في قرية بشر، و اثنان في مكيدة و واحد في العاصمية.

على مسافة 8 كيلومترات جنوب مرحبا، بعد جبل خيبر توجد مزرعة نخيل مهمة و فيها عشرون شخصا يقيمون جميعا في قصر واحد. هذا المكان يدعى الوادي.

على مسافة ثلاثين كيلومترا إلى الجنوب، ينابيع عديدة و غزيرة تشكل هنا بحيرة صغيرة تدعى قصيبة. تسري مياه قصيبة عبر قناة طبيعية بطول 6 إلى 7 كيلومترات في منخفض في الشمال حيث تشكل بحيرة أخرى تدعى تسمد [1]. بين البحيرتين على ضفاف القناة يقوم مبنيان كبيران يتباعدان مسافة كيلومترين. مبنى الجنوب يدعى قصر العضم و مبنى الشمال يدعى قصر البنت.

شمالي بحيرة ثمد، تتابع المياه سريانها عبر الحرة إنما متجهة إلى الشمال- الغربي لتصب في وادي تبق بعد سقي نخيل بلدتين خاليتين من السكان، هدنة و جراية.

يعود نخيل جراية إلى فصيل خالد من ولد علي.

انطلاقا من بحيرة قصيبة و حتى جراية يوجد مجرى ماء يجري طوال السنة، و على غرار الأقنية داخل واحة خيبر فيه سمك و ضفادع و قواقع [2].

---

(1) تسمد أو ثمد ليس اسم علم بل المصطلح العربي الذي يطلق على بلاعة أو حفرة ماء تكاد تكون على وجه الأرض: تحفر عادة في مجرى واد [التحرير].

(2) هذه القواقع هي Melanies .

بدءا من بحيرة الثمد و حتى مصبها في وادي ثبق يحمل مجرى الماء اسم وادي الثمد.

في خيبر أكدوا لي بأن الثمد تستقبل وادي سرير قبل أن تنصب في وادي ثبق، و لكن في المقابل قال لي عرب عنزة لاحقا بأن السرير الذي ينبع خارج الحرة مباشرة جنوبي قصيبة يصبّ مباشرة في وادي ثبق على مسافة 15 كيلومترا تقريبا إلى شرقي الثمد. و قد اعتمدت هذه الرواية الأخيرة ولدي أسباب للاعتقاد بأنها أصح من الأولى.

في وادي سرير الكثير من النخيل العائد إلى قبيلة شملان التابعة لعنزة. من قصيبة إلى الثمد النخيل كثيف إلا انه أصبح بريا و بعض أشجار النخيل يعطي ثمرا جيدا.

المثل العربي القديم" حمل التمر إلى خيبر" [1] الموازي لمثلنا القائل" حمل الماء إلى البحر" لا يزال صحيحا. فشجر نخيل خيبر يكاد لا يحصى و نفهم أنه يتم إكثاره أو أنه يترك يتكاثر حيث إنه لا يتطلب أي عناية و أن الماء وافر. و لكن كما يحصل عادة عند ما تكون الطبيعة كريمة، فإن البشر يتكاسلون. و بما أنه لا يترتب على أهالي خيبر عمل يذكر، فقد فضلوا ألا يفعلوا شيئا على الإطلاق و لفرط الاهمال الذي طاولها فإن أشجار النخيل تراجعت بحيث لم تعد تعطي سوى أصغر و أسوأ الثمار في كل الجزيرة العربية.

يعود نخيل خيبر إلى عرب الفقرا أحد فرعي بني وهب، الذين يجوبون المنطقة بين خيبر و تيماء. سكان خيبر يزرعون شجرتهم مناصفة مع الفقرا و يستقرون حول الواحة للتأكد من المحصول و تسلّم حصتهم. و كما هو سار في زراعات النخيل كافة فهنا أيضا تتناوب باستمرار سنة محصول جيد تليها سنة محصول سيّىء و هكذا دواليك. سنة مروري (1880) كانت سنة و فرة.

قيمة النخلة في خيبر لا تتجاوز ريالا أو ريالا و نصف الريال و هذا الأمر يعطي فكرة عن تدني نوعية الانتاج. نتذكر أن هذه القيمة تبلغ في حائل 10 ريالات و في تيماء و العلا تصل حتى إلى حدود 20 ريالا.

يزرع كذلك بعض القمح و الذرة و قليل جدا من الشعير. و لكن ليس لدى السكان دوالي عنب و لا دراقن و لا تين و لا رمان.

في الشكل يشبه السكان أهالي العلا و لكن لون بشرتهم أكثر سوادا، كما أنهم أقل

(1) الصحيح: «جلب التمر إلى هجر» أي الإحساء.

تديّنا بكثير من سكان العلا و بالإضافة إلى ذلك اشتهر عنهم ممارستهم أسوأ ممارسات السحر و الشعوذة. و يعدّ الخيبريون شرابات من جثث أو أجزاء جثث ينبشونها من المقابر ليلا. و إلى كل هذه الصفات «الجميلة» يضيفون إلى شهرتهم مهارة السرقة و أهل العاصمية هم الفائزون بالميدالية. كما إنهم و سخون و شرسون و بعبارة غير محترمين.

على مسافة 4 أميال تقريبا إلى شمال- شرقي مرحبا، في جبل دهام، نجد سلسلة و ديان مجموع طولها ما بين 8 و 10 أميال من الشرق إلى الغرب و عرضها ميلان. و نرى فيها 5 أبراج باتت أطلالا. و مجملها تدعى الحرضة. كما فيها ينبوع يدعى عين رجيعة و قرابة مائة بئر.

فيما مضى كان في الحرضة سكان، و لكن حاليا يتردد أهالي خيبر إليها أحيانا دونما انتظام سنوي، و ذلك لزرع القمح الذي يعطي نتائج ممتازة.

لم أعثر في خيبر إلا على 8 نقوش أستطيع ضمان قراءتها. بعض الصخور التي يبلغ طولها في كثير من الأحيان مئات الأمتار، كانت مملوءة بالنقوش إلا أن المطر محاها أو تكفلت الشمس بتفتيتها و لم تعد تقدم سوى أحرف مشكوك فيها. و عثرت في مقبرة قديمة شمالي- غربي مرحبا على نقش كوفي.

من الصفحة 113 الى 118 بعض رسوم هوبير نقلا عن النقوش الحجرية و (المناظر الطبيعية التي صادفها اثناء رحلته)

عبر الحرة

غادرت خيبر في 15 كانون الأول. كان في نيتي اجتياز الحرة في عرضة وصولا إلى الحائط. و تعود الأراضي على هذه الطريق إلى عرب هتيم [1] و اضطررت إلى اختيار دليلي من بينهم. غير أن مرزي الذي رافقني انطلاقا من العلا ظل يتبعني و لم يتركني إلا في حائل.

إذا شئت أن تكون محترما فلا ينبغي أن تسافر وحيدا مع رجل من هتيم و هذه في رأيي إحدى الأخطاء التي ارتكبها السيد دوتي إذ وصل إلى حائل يقوده رجلان من قبيلة هتيم مما سبب طرده الفوري.

شمّر يعتبرون أنفسهم أنبل العرب، و هم كذلك. و يليهم مباشرة في ذهنهم عنزة الذين يحتلون هذه المرتبة بسبب عددهم وقوتهم و ليس بفضل نبالتهم أو نقاء دمهم. يليهم الشرارات. و في الترتيب الأخير، و كأنهم خارج الطبقة، تأتي قبيلتا الصلب و هتيم.

قبائل الهتيم الرئيسة هي التالية: ابن سميرة- ابن بالراك Balerak - المحيمزة- الفرديسة- العوامرة- المصابرة.

أبناء سميرة يوجدون عادة حول خيبر.

المحيمزة- يخيّمون في جوار المدينة و هم في حرب مع شمّر.

المصابره يجوبون القصيم و يدفعون الجزية للأمير حسن.

تعد قبيلة ابن سميرة ثماني قبائل تسميها الحكومة التركية برنجي أي الأولى. و هذه القبائل عينها تطلق على نفسها فيما بينها اسم الذيبة Adzeibah .

كان دليلي عبر الحرة ابن سميرة الشخصي. و هو شاب طويل و وسيم في الخامسة و العشرين من العمر تقريبا في غاية الكرم و الكياسة. و كان يتحمل بصبر الشتائم و الإهانات التي كان مرزي النبيل يكيلها إليه طوال اليوم.

في الساعة العاشرة صباحا غادرنا قرية بشر و بعد خمس و أربعين دقيقة خرجنا من المنخفضات التي تنمو فيها أشجار نخيل خيبر لنصعد إلى هضبة الحرة. و لا تلبث الدرب أن تجتاز أطلال قرية قديمة من الحجر. الطريق مريعة و تستمر عبر الدبش

---

(1) يفضل كتابة اسم Houteim على النحو التالي: Hoteim [التحرير].

الذي يبلغ حجم بعضها مترا مكعبا و نصف المتر. لا يشير إلى الاتجاه سوى انعكاس طفيف على سطح الحجارة التي لم يؤثر فيها المرور طوال خمسين قرنا لشدة صلابة هذا الصخر البازلتي.

الدرب من خيبر إلى الحائط تحمل اسم درب اليهود أو درب الكفار.

بعد الكيلومترات الخمسة الأولى نصادف بمحاذاة الدرب قرابة عشرين كومة من الحجارة تتباعد فيما بينها مسافة 20 إلى 30 مترا و تدعى أرجوم اليهود Ergouum El'Yahoud . و قال لي ابن سميرة أن اليهود الذين قتلهم علي هم الذين يرقدون هنا و كل مارّ يضيف حجرة على الكومة.

قرابة الساعة الرابعة عصرا وصلنا قرب جبل فكاه الصغير على بعد ميلين جنوبي طريقي. و بعد ساعة خيّمنا في وادي سويس. إلى شمالي مخيمنا لاحظت جبل قرس و الى الشمال- الغربي جبل الغامر البالغ طوله 16 ميلا. كلاهما مؤلف من الغرانيت و منفصلان عن الحرة التي تمتد في هذا الاتجاه مسافة عشرين كيلومترا إضافيا إلى يساري.

في اليوم التالي قطعنا حوالي 16 منها اثنان إلى الجنوب- الشرقي.

في الساعة التاسعة صباحا كنا قد قطعنا وادي سويس مجددا و عند الظهر خيّمنا قرب غدير المقنع حيث كان لا يزال فيه قليل من الماء.

منذ الصباح كنا قد اجتزنا خمس فوهات براكين حافاتها قليلة الارتفاع و أقطارها متباينة جدا. هذه الفوهات المجردة من الحجارة مملوءة بتراب صلصالي أصفر كان يجعل السير صعبا و مستحيلا في بعض الأماكن، لدى مروري، لفرط انزلاق الأرض في أعقاب الأمطار الأخيرة.

و كان مطر خفيف قد بدأ يتساقط أجبرنا على السير إلى الجنوب الشرقي. كان لا بد من قضاء الليل تحت خيمة، و أكد لي دليلنا أننا لا بد ملاقون خياما في هذا الاتجاه. و بالفعل ما لبثنا أن بلغنا خمس خيام بائسة للهتيم و استقررنا في أكبرها.

لكن المطر لم يرحمنا؛ ذلك أن الماء اجتاح الخيمة مع انفجار العاصفة قرابة الساعة العاشرة ليلا. و بقصد حماية أجهزتي قررت أن أحملها على ركبتي و ذهبت لأجلس في الخارج على الصخر حيث طلبت تغطيتي بمعاطفي و سجاداتي. كان الليل مضنيا و الصباح حزينا.

في هذا اليوم لم نسر أكثر من ميل واحد إلى الشمال لإيجاد الدرب و 8 أميال في وجهتنا إلى الشرق و الشمال- الشرقي.

فور استئنافنا سيرنا باتجاه حائط، تجتاز الدرب منطقة مريعة. خيّل لنا حديد تجمد في أوج غليانه مع فقاقيع هائلة؛ و بعض الفقاقيع التي فقئت تسمح برؤية ثقوب عميقة و حافات حمم قاطعة كالزجاج. بين الحين و الآخر تزيد حفرة عميقة ناجمة عن انسحاب البرودة من فوضى هذه الظاهرة العجيبة و هولها. يبلغ عرض هذه المنطقة ميلين و تدعى العبير.

إن حمم الطفح صلبة لدرجة أنها لم تحفظ حتى هذا الانعكاس الطفيف الذي يشير إلى الاتجاه على بازلت الحرة على الرغم من المرور عليها منذ قرون بعيدة. و على غرار ما يسري في النفود فإن طريق العبير لا تعرف إلا من بعر الجمال التي يحرص كل بدوي على معسها على الحمم تدريجيا كلما أسقطه حيوانه. هذا البعر الممهد على هذا النحو يلتصق بالصخر لسنوات عديدة مشيرا إلى الاتجاه الواجب سلوكه.

وقع مخيمنا لتلك الليلة بين جبلي غينات و غنيم الأول في الشمال و الثاني في الجنوب. ثم تتوالى جنوبا على مسافات متساوية تقريبا فيما بينها، الجبال الآتية:

رأس الأبيض (1)- لا كليل- رماحة- العاقر.

هذه الجبال الستة تقوم هي بالذات على أرض مرتفعة على شكل ظهر حمار. رأس الأبيض هو أعلاها.

هذه السلسلة من الجبال لافتة للانتباه لانها تشكل نقطة توزع المياه في الجزيرة العربية الشمالية. فمن هنا تنطلق المياه غربا إلى البحر الأحمر و شرقا إلى الخليج الفارسي. وادي الرمّة الكبير الذي يقع مصبه قرب البصرة ينشأ قرب الجبل الأبيض.

بتحديد هذه النقطة التي لا تلحظها الخرائط عادة أو التي تسجلها أبعد من تيماء إلى حدود تبوك، أعتقد أنني أحرزت تقدّما في معلوماتنا حول هيدروغرافيا الجزيرة العربية الشمالية.

سأقول في نهاية عملي هذا، في إشارة مقتضبة على خريطتي أسباب الخط الذي اعتمدته لمجرى وادي الرمّة و الذي يبتعد كثيرا عن الخط في الخرائط السابقة (2).

---

(1) على الأرجح لجن Ras El Abiad [التحرير].

(2) لم يستطع المؤلف كتابة الملاحظة التي يتحدث عنها في هذه الفقرة لانه مشغول بتحضير رحلته الأخيرة.

أما اسم الرمّة الذي اطلقته على الوادي نفسه بدلا من اسم رمّة Roummah المعتمد حتى الآن و الذي أطلقه عليه قدامى المؤلفين العرب، فإنني أقول إنني لم أسمع بغيره و إن الاسم الأخير مجهول تماما في منطقة الوادي و كذلك في الجبل.

المياه النازلة على المنحدر الغربي لجبل رأس الأبيض تشكل وادي الطبق El Thebeq الذي يجتاز كل الحرة متجها إلى الغرب و يمر على بعض الكيلومترات جنوبي جبل خيبر، ثم يخرج من الحرة و يذهب لينضم إلى وادي الحمض قرب جبل هدية و هو محطة درب الحج على بعد سبعين كيلومترا تقريبا غربي خيبر. في طريقه عبر الحرة، يتلقى الطبق روافد صغيرة مختلفة، إلّا أنني لم ألحظ على خريطتي سوى المجاري التي حصلت على بعض التأكيد بشأنها، و هي السويس و الثمد و خارج الحرة، السرير.

و لا بد لي من الاشارة إلى خصوصية بدت لي غريبة أخذتها من عربي من قبيلة حرب و من آخر من قبيلة هتيم التقيتهما في الصحراء أبعد من الحائط. و قد أكدا لي أن أكثر الروافد ارتفاعا في وادي طبق تصعد حتى جبل مخيط Makhid - إلى الشمال- الشرقي لرأس الأبيض، أي خارج الحرة. كنت آنذاك على مسافة عدة فراسخ إلى شمال الحائط بعيدا عن الناس المطلعين، و فيما بعد لم أتمكن من الحصول إلّا على معلومات متناقضة حول هذه المسألة.

ينشأ وادي الحمض شمالي المدينة ثم يسير بموازاة الحرة أي إلى الشمال- الغربي حتى جبل هدية حيث يلتقى وادي طبق. ثم يتجه إلى الغرب و يستقبل وادي العلا ليصب أخيرا في البحر الأحمر، جنوبي مدينة وج الصغيرة.

لا يشتمل وادي الحمض على نخيل على غرار الوديان الأخرى التي تشكل روافده، و لكنه يحتوي على آبار عديدة.

يتكون وادي العلا الذي ذكرته لتوي، في حوض الحجر، ثم يسري إلى الجنوب مسافة ثلاثة أيام سيرا، ثم يصب في وادي الحمض في أراضي بني جهينة و هم فرع من بني كلب.

بين جبلي غينات و غنيم المغارة الطبيعية الصغيرة المسماة مغنيه السودة Meghreniah El Asoudah و هي مكونة من كتل بازلتيه، ارتفاعها 1 □20 متر و عمقها متران و طولها 3 أمتار تقريبا و هي بالضبط بالوسع الذي يسمح بحمايتنا ثلاثتنا من المطر الذي انهمر طوال الليل.

في اليوم التالي في 18 كانون الأول، اجتزنا 20 ميلا شمالا، 72 درجة شرقا و هو اتجاه الحائط الصحيح.

بعد أول خمسة أميال لمحنا جبل الحمادة الذي تقع القرية عند سفحه الجنوبي-الشرقي. قرابة الظهر سرنا فترة بمحاذاة وادي غنيم الذي يبدأ في الجبل الذي يحمل الاسم نفسه و يمر شمالي جبل بصر، و ينضم على بعد خطوات إلى وادي الرمّة.

جنوبي جبل بصر يقع جبل قنة أو ابو زيد.

ابتداء من مغنية تصبح الدرب مرهقة بشكل مريع و يصعب تتبعها.

في اليوم التالي، بعد ثلاث ساعات سير كاملة إلى الحائط. لم نلمح رأس نخيلها إلا قبل نصف ساعة من بلوغها، لأن هذه البلدة مع النخيل المحيط بها تقع على غرار خيبر في شق من الحرة.

الحائط

قبل نزول منحدر الحرة اجتزنا لمدة خمس عشرة دقيقة أطلال بلدة قديمة جدا مبنية من الحجر المقصّب. كان فيها فيما مضى عدة أبراج مدورة، أما اليوم فكل شيء تقريبا بات بمستوى الأرض. إنها الحائط القديمة التي على غرار قرى خيبر القديمة، كانت مبنية فوق الحرة و ليس كما هو الحال اليوم في المنخفضات حيث تقضي أمراض الحمّى على السكان. على أي حال تتمتع الحائط بمظهر منعش و جديد لا تتمتع به خيبر و لا العلا، اللتان لهما معها من جهة أخرى نقاط تشابه كثيرة من حيث سكانها الزنوج، و أمراض الحمّى و السعادة التي لا تقدّر بثمن لرؤية نخيلها مسقيا بالينابيع.

إن لون بشرة سكان الحائط الزنوج هو أفتح من لون الخيبريين من دون أن يوازي لون سكان العلا.

بما أن الحائط غير بعيدة عن عاصمة شمّر، لا يوجد فيها حاكم خاص كالجوف و تيماء و العلا. إنها تتبع مباشرة لحكم الأمير. و المالك الأغنى و يدعى جابرا، هو الذي يستقبل الضيوف و يلقب بالشيخ.

هذه الواحة المزدهرة جدا تملك ضعفي عدد نخيل العلا و لكن نخيلها أقل جمالا و بالتالي فإن محصولها أقل و نوعيته أدنى. إلا أن الإنتاجية و المنتوجات أفضل بكثير من انتاجية و منتوجات خيبر. لا يوجد في الحائط كما في العلا تمور حلوة و لكن التربة تنتج أنواعا أخرى مرغوبة جدا و أفضلها هي تمور قصب، برني، فريزي و كلب.

عرب هتيم و حرب و الشمر هم الذين يشترون تمور الحائط.

كان نخيل الحائط يعود فيما مضى إلى قبيلة علي، من عائلة عنزة الكبيرة، و التي كانت تعد 200 خيمة. و لكن عند ما ضمت الواحة إلى إمارة شمر بفضل عبيد، طالب الأمير طلال الحاكم آنذاك بالضريبة العادية البالغة 5% من حصة قبيلة علي. و خضع أفراد القبيلة لمدة أربع سنوات ثم رفضوا دفع الضريبة. فقام طلال بغزوهم فانسحبوا إثر ذلك إلى جانب قبائل عنزة الكبرى الأخرى في الشمال على ضفاف الفرات. و من ثم حلّ الأمير محلهم و استملك أراضيهم. و أصبح السكان يقدّمون نصف المحصول إلى الأمير و يدفعون بالإضافة إلى ذلك ضريبة تبلغ 10% من نصف المحصول العائد إليهم.

و يزرع السكان كذلك القمح و الشعير و الذرة و لكنهم لا يملكون مواشي و لا دواب.

تسقي مزارع الحائط ثلاثة ينابيع تنطلق من شلالة و الصفيري و أبو سليمان.

الينبوعان الأولان يعطيان معا حوالي 3 ليترات في الثانية و يخرجان من تلة واحدة هي تلة الصفيري و جزء من الحرة، تماما تحت أطلال برج يدعى قصر الصفيري إلى الشمال- الغربي للقرية. أما ينبوع أبو سليمان المسمى أيضا علي، فيصل من الغرب و هو الأقوى إذ يبلغ منسوبه 3 ليترات تقريبا في الثانية.

يبدو منسوب الينابيع مستقلا عن المواسم سواء جيدة أو سيئة. خلال الشتاء الذي زرت فيه البلدة، أي شتاء 1879- 1880، هطل المطر و لكن قبل ذلك مرت أربعة مواسم شتاء جافة منذ 1876 دون ملاحظة أي تبدّل في منسوب الينابيع.

درجات الحرارة فيها أقل ارتفاعا من درجات حرارة ينابيع خيبر. و فيما يلي معدلات درجات الحرارة فيها:

- ينبوع شلالة + 5□ 28 درجة

- ينبوع الصفيري + 2□ 28 درجة

- ينبوع أبو سليمان + 8□ 26 درجة

و قد أكد لي أن الينبوع الأخير هو باستمرار أكثر برودة من الاثنين الأولين. تعطي الينابيع الثلاثة مياها صالحة للشرب.

قال لي السكان إن ينابيع أخرى قد نضبت. و لكن في عدة أماكن في فصل الشتاء تخرج المياه من الأرض و تشكل مستنقعات لا تلبث أن تختفي في الربيع.

يزرع في الحائط تبغ مرغوب جدا و يباع بقيمة نصف ريال للمكيال الذي يحوي 500 غرام تقريبا. أما التبغ الذي يزرع في خيبر و العلا و تيماء فنوعيته أدنى بكثير من تبغ الحائط كما ان كمية التبغ نفسها تباع في العلا بقيمة ربع ريال و في خيبر بقيمة قرش[1].

إن الأطلال العديدة التي لا تزال في الحائط تدل على أن هذه المدينة كانت فيما مضى مهمة كمدينة خيبر إن لم تكن أكثر أهمية. كانت تضم حيّين كبيرين، واحد في الجنوب- الشرقي و الآخر في الشمال- الغربي من القرية الحالية. و قد ضاع اسماهما. إلا أن السكان يسمون حاليا الأطلال الأولى تحت اسم خرائب النصارى (أطلال المسيحيين) و الأطلال الثانية تحت اسم خرائب اليهودي. الحائط الحالية نفسها تقوم على أساسات قديمة من الحجر المقصّب. و لا تزال توجد بقايا غريبة لابنية قديمة و من بينها مبنى مربع يفضى إليه درج خارجي يقود إلى الطابق الأول.

و في داخل المبنى بئر.

المبنى المسمى قصر الذهلان مربع من الحجر المقصّب، و هو مبني بالاسلوب نفسه مع درج خارجي. ما يشبه الطابق الأرضي ليس فيه باب و لا نافذة و لا أي فتحة أخرى.

تتألف مدينة الحائط الحالية التي تتطاول في حفرة من الحرة على امتداد ميلين من الشرق إلى الغرب، من ثلاثة أحياء. الحي الأول هو الأكبر و يدعى وادي سعفان.

و الحي الثاني، و هو الأصغر، الكائن على مسافة 100 متر إلى الجنوب- الغربي يدعى الشريف. و الثالث الكائن في الاتجاه نفسه إنما على مسافة 500 متر على تلة صغيرة، يدعى القصير.

في أسفل هذه التلة الأخيرة قبور قديمة مبنية من الحصى و مسورة و لكن بعضها قد

---

(1) قرش- 20 □ 0 فرنك.

انهار. اتجاه القبور من الشرق إلى الغرب.

في الحائط استطعت أن أتبين من أعلى الحرة جبال قنة و قرن و حليفه و تين في الجنوب و الجنوب- الشرقي.

هذه التقويمات سمحت لي برسم حدود الحرة من هذه الجهة.

في 24 كانون الأول غادرت الحائط في الساعة التاسعة و النصف صباحا. و في الحادية عشرة بلغت حدود الحرة. و هي تستمر و لكن بحالة تشتت مسافة 12 كيلومترا تقريبا إلى ما بعد جبل الصقابر Ac ?eqaber على بعد 16 كيلومترا من الحائط.

عند سفح هذا الجبل الأخير و في مكان انقطاع الحرة، بقايا ثلاثين بيتا باتت أطلالا.

بعد دقائق من خروجي نهائيا من الحرة، عبرت أخيرا وادي مخيد الذي ينطلق من الجبل الذي يحمل الاسم نفسه، على بعد 45 كيلومترا تقريبا إلى الشمال- الغربي من طريقي.

و قد خيّمت لدى مروري على بعد 9 كيلومترات من هذا الوادي الذي كان فيه ماء.

في وادي مخيد تقريبا تبدأ أرض من تربة صلصالية صلبة مكسوة بالحصى برتابة مقنطة و بعقم يكاد يكون مطلقا. لذا لا نجد فيها أبدا مخيمات للبدو كما لا نعثر عليها بين جبل رأس الأبيض و الحائط. و اسم هذه الصحراء هو الزرب.

الذي يقع على مسافة بضعة كيلومترات إلى El Ban من مخيمنا كان جبل أبان الشمال- الغربي، و هو جبل قليل الارتفاع. و أمامنا ينتصب جبل الزلف الصغير، و هو جبل من النوع نفسه يبلغ طوله 6 أميال.

في اليوم التالي انطلقنا قبل الثامنة بقليل، و بعد ساعتين كنت على جبل الزلف. و قبل ذلك بقليل استطعت أن أحدد على مسافة 16 ميلا جبل ركة الذي لا يبعد سوى 7 أميال من وادي الرمّة.

ابتداء من جبل الزلف سرنا باتجاه الشمال، 65 درجة شرقا. و لم نلبث أن عدنا إلى أرض غرانيتية خالصة.

و بعد مسافة 3 أميال حددت جبل الظبي على بعد 25 ميلا إلى الجنوب- الشرقي، و على مقربة من مصب وادي القاعد El Qahed في وادي الرمة. و بعد مسافة قصيرة قطعت وادي القاعد قرب القمة الصغيرة التي تحمل الاسم نفسه.

ينشأ وادي القاعد على مسافة 22 كيلومترا إلى الشمال- الغربي من القمة التي تحمل الاسم نفسه قرب قرية تغرة Thaghrat الصغيرة.

على بعد 4 كيلومترات إلى الشمال- الغربي من جبل قاعد الصغير، يوجد جبل صغير آخر يدعى فرس Fers على بعد 5 أميال إلى الجنوب- الغربي الشرقي يوجد جبل و سما.

عند غروب الشمس خيّمنا في صحراء قلنقوة التي تتبع صحراء الزرب.

في اليوم التالي في 26 كانون الأول، قطعنا 14 ميلا. في الساعة الثامنة صباحا اجتزنا وادي مبحل Mebehel الذي يتكون قرب جبل رويسة و يصّب في وادي الرمّة. قرابة الظهر وصلنا إلى جبل دقية الأسمر، و هو تلة غرانيتية بارتفاع خمسين مترا تقع على بعد 40 ميلا جنوبي تلة مماثلة تدعى دقية الأحمر.

من قمة دقية الأحمر استطعت تحديد جبل الرمان حيث عند سفحه مستجد.

عند قمتي دقيه تتوقف مراعي قبيلة هتيم.

مستجد

في 27 كانون الأول، انطلقنا في الساعة السابعة صباحا و بعد ثلاث ساعات رأيت من بعيد نخيل مستجد التي وصلت إليها بعد ساعتين.

لدى مروري في خيبر كانت تسري شائعة مفادها أن الأمير قد غادر للقيام بغزو في الجنوب. في الحائط تأكد لي النبأ ولدى وصولي إلى مستجد علمت أن الغزو استهدف عرب عتيبة الذين يخيّمون بين مكة و الرياض. و أضاف شيخ مستجد الذي كان يزودني بهذه التفاصيل إن الغزو خيّم بالأمس في وادي الرمّة و إنه يتوقع بالتالي أن يراه يمر مجددا بين لحظة و أخرى ليعود إلى حائل. فصممت على انتظاره في مستجد لرؤيته لدى مروره. و لكن في منتصف الليل وصل مرسال من الأمير مكلف بالاستفسار عني و بحمل أخباري. الغزاة كلهم كانوا يخيمون على بعد عشرة فراسخ جنوبي مستجد. فأرسلت مرزي فورا على ذلولي الخاص و كلفته إبلاغ الأمير تحياتي و شكري لاهتمامه.

و أعلمني المبعوث بأن الغزو قد نجح تماما و أعطى نتائج طيبة دون إراقة أي دماء.

و قد تم الاستيلاء على حوالي 800 جمل و 5000 من الخراف و الماعز و ستة عبيد و سبعة خيول. هرب أفراد عتيبة، و لم يشأ الأمير ملاحقتهم.

في اليوم التالي عاد مرزي في الساعة الثالثة عصرا و كان قد سرّ كثيرا. و أبلغني الأمير بواسطته أنه سيمر في صباح اليوم التالي أمام مستجد و أنه سيرسل مواكبة لمرافقتي لأعود إلى حائل برفقته و أن أكون جاهزا.

و بالفعل في 29 كانون الأول منذ الصباح الباكر امتلأ السهل بالقطعان و مجموعات من البدو و رجال الأمير و جميعهم يحث الخطى متجهين إلى الشمال. إلا أن القسم الأكبر من الغزو مرّ مع الأمير على بعد فرسخين تقريبا غربي مستجد. قرابة الظهر، وصل أربعة فرسان أرسلهم الأمير لاصطحابي. و لكن لم يكن في نيتي قط العودة إلى حائل على النحو الذي سيعتمده الأمير أي هرولة.

فبعثت الى الأمير شكري و اعتذاري لعدم تلبية دعوته رغبة مني في العودة مع القيام بالتفاف صغير.

و انطلقنا فورا فقادتنا أربع ساعات طويلة من السير إلى قصير و هي قرية صغيرة تضم أربعين شخصا حيث قضينا الليل.

في 30 كانون الأول حملتنا 3 كيلومترات من السير من فوق جبل الصفرا الصغير إلى قرية غزالة التي اكتفيت بالمرور من أمامها. توقفت على بعد 8 كيلومترات في كفر المحش الذي يعدّ عشرة أشخاص حيث أمضيت الليلة.

في اليوم التالي توجهت باتجاه جبل الشبيكية و هو جبل من الغرانيت الأحمر مع بضعة مزارع من النخيل شبيهة بمزارع عقدة. و بعد قليل مررت أمام جبل السراء و خيمت إلى الشمال قليلا في قصر شعيب.

كان اليوم التالي الأول من كانون الثاني 1881. لم أتمكن من الانطلاق إلا قرابة الساعة العاشرة بسبب إهمال رجالي الذين تركوا ذلولي يتيه و لم نعثر عليه إلا بعد يومين.

لم يكن هناك ما يؤخرني في هذه المنطقة التي أصبحت أعرفها، فحثثت خطو مطيتي و وصلت إلى حائل في الساعة السابعة مساء.

استكشافي للغرب استغرق مني 74 يوما.

من حائل إلى بغداد

في 10 كانون الثاني كان الحجاج الفرس العائدين من مكة و المدينة قد وصلوا إلى حائل و في 17 غادروها للعودة عبر بغداد إلى وطنهم. فقررت أن أرافقهم.

عند الظهر غادرت حائل و سرت إلى الشمال- الشرقي. و بعد ثلاث ساعات توقف الغرانيت و ظهر الحث من جديد. و على بعد نصف ساعة خيمت مع الحجاج في منطقة أمازن.

في اليوم التالي لم نجتز سوى 7 أميال دائما إلى الشمال- الشرقي و خيّمنا قرب وادي الشقيق. بعض الحفر الصخرية كانت لا تزال تحتوي على مياه من أمطار الشهر السابق. في هذا الوادي تجد أيضا الكثير من العليق الذي يعطي الخشب الكافي للنار. الماء و الخشب هما كل ما يلزم للحاج، أما المؤن فيحملها معه.

في 19 كانون الأول سرنا فقط من الساعة السابعة حتى الساعة الحادية عشرة و قطعنا 11 ميلا و نصف الميل. أقيم المخيم عند آبار الحاصرة. تقع هذه الآبار البالغ عددها ثلاثين تقريبا في منخفض من الأرض غير ملموس. و هي محفورة مباشرة في الأرض الصلصالية. المياه على عمق 6 أو 7 أمتار و طعمها سيىء كريه. طبقة الماء ليست عميقة لأن كل الآبار امتلأت بالرمل قليلا. وادي حائل يصل إلى هذه الآبار و لكنه لا يتابع سيره ليصب في الشرق في وادي الرمّة كما أعتقدنا حتى الآن.

على العموم يكون جوار الآبار خاليا من النباتات و من ثمّ من العلف و الخشب. يضاف إلى ذلك في الحاصرة أنه في نهاية أربع و عشرين ساعة كانت الآبار قد استنفدت و مع ذلك بقينا أربعة أيام.

لدى انطلاقه من بغداد إلى المدن المقدسة، كان الحجيج يتألف من 800 شخص تقريبا. و في العودة كانوا 4000 ليس لديهم طبعا ما يكفي من الجمال لإيصالهم إلى بلاد ما بين النهرين. أفراد قبيلة حرب الذين نقلوا الحجيج من المدن المقدسة إلى حائل كانوا كالعادة يريدون العودة و لكن إزاء نقص الجمال اضطر الأمير إلى الطلب اليهم بأن يبقوا حتى مشهد علي. و قبل الجزء الأكبر و لكن عدد الجمال بقي غير كاف. فأرسل الأمير رسولا تلو رسول إلى بدو الصحراء ليحملهم على المجيء مع جمالهم، و لكن العرب استاؤوا من أسعار الأجرة التي رأوا أن الأمير قد

حددها لمصلحة العراقيين فتباطأوا في الوصول.

خلال هذا الوقت، جميع الحجاج الفقراء، من قبيلة حرب و قبيلة شمّر كانوا وفق العادة البدوية ضيوف الأمير. و بتقديري كان هذا يتمثل بإطعام ما بين 2500 و 3000 من الأفواه الإضافية مما كان يسحب حجما كبيرا من المؤن.

للتخلص من هؤلاء المستهلكين غير اللازمين جعل الأمير الحجيج يغادر حائل بعد ما أعطى جميع المحتاجين كمية من التمور تكفي لخمسة عشر يوما. و لكن بما أن جميع الحجيج لم يحصلوا على جمال، كان لا بد لهم من البقاء في المخيم.

و مع تعالي مطالبات الحجيج، قاد أمير الحاج [1] في 24 كانون الثاني الجزء الراكب من القافلة حتى بقعاء على مسافة ثلاثين كيلومترا إلى الشمال- الشرقي للحاصرة.

و في الليل عادت الجمال إلى المكان الأخير و جلبت معها في اليوم التالي باقي الحجيج. و جرت الأمور على هذا النحو عدة أيام حتى حملت التهديدات التي وجهها الأمير بواسطة مبعوثيه الى البدو على المجيء مع جمالهم.

أما اسعار الأجرة التي حددها الأمير للجمال من حائل حتى مشهد علي فهي:

- للفارس مع خرجه [2] 07 ريالات

- للجمل المحمّل 10 ريالات

- للجمل مع هودجين لشخصين 13 ريالا

و كان البدو قد طلبوا أن تكون هذه الأسعار على التوالي 10 15 و 18 ريالا.

تقع بقعاء بشكل جميل جدا في حوض شاسع من الحجر الأبيض الممتد من الشرق إلى الغرب. تتألف القرية من مجموعتين من المنازل. المجموعة الشرقية تدعى بين الاثنتين . El Oueimyو الأخرى الغربية تدعى الويمي C ?ehebyصحبي مجموعة صغيرة من 4 منازل تدعى شرقي و تعتبر قديمة جدا. كانت في غابر الزمان أيضا. إلى جانبها ملكية معزولة دون نخيل محاطة Mereiqebتدعى الحمام أو مريقب و على مقربة توجد مجموعة أخيرة EL Qec ?eifahبالحقول و تحمل اسم القصيفة تدعى قويعان

---

(1) أمير الحاج هو قائد القافلة. من نقطة الانطلاق و حتى الوصول لديه صلاحية مطلقة كالقبطان على متن سفينته. كان يشغل هذه الوظيفة عبد لدى ابن رشيد يدعى عبد الرحمن.

(2) الخرج هو حقيبة سفر مزدوجة تتدلى على جانبي الجمل.

وسط الحوض مغطى بطبقة سميكة من الملح الشديد المرارة.

المياه السيئة و المالحة بشكل عام تقع على عمق يتراوح ما بين 8 و 10 أمتار. و بما أن الحث الذي حفرت فيه الآبار شديد الليونة فإن فتحة الآبار واسعة جدا. بئر واحدة تعطي ماء مقبولا و هي بئر قصر الويمي و مياهها لبنية و تميل إلى الزرقة في آن و قد ذكّرتني بماء نهر الراين. هذا البئر تدعى سمحة.

لكل من حي العجين و حي الويمي قصر كبير مربع مبني من الحصى و الملاط دون كلس مع أبراج صغيرة عند الزوايا الأربع. الداخل مملوء ببيوت السكان البائسة التي تذكّرني بقرية تدمر الوسخة الواقعة ضمن سور معبد الشمس. قصر الصحبي هو الأكبر.

نخيل بقعاء جميل و ينتج نوعا جيدا من التمر. كما يزرع فيها كل سنة القمح و الشعير.

لاحظت قرب بقعاء حجارة حث غريبة الشكل. فهي كرات مدورة تماما بحجم حبة حمص شبيهة بالكلل التي يلعب بها الأولاد. الكرات المنزلة في الحث هي نفسها من الحث الشديد الصلابة بلصاق كلسي و آخر بلصاق من أو كسيد المنغنيز المحمية و تبرز تذكّر بأنواع الحث الشبيهة بفونتينبلو. في إحدى عيّنات الحث Botryoidesأشكالا هذا الحث الكروي يسميه . Carditeالتي جلبتها معي صدفة بمصراعين يبدو أنها السكان الأصليون رسترس Restres .

كان الحجيج يخيّم على بعد كيلومتر واحد تقريبا إلى الشمال- الشرقي لبقعاء على هضبة من الصخر العاري يدعى قطيان.

في 26 كانون الثاني غادرنا بقعاء و اجتزنا قرابة 20 كيلومترا دائما باتجاه الشمال 65 درجة شرقا. مخيمنا لهذا اليوم يدعى لغف النفود و أيضا الغبية.

على مسافة قصيرة إلى الشمال، كان النفود يرتفع كسور إلى علو 40 مترا تقريبا. من قمته استطعت تحديد جبل جلدية و هذا ما فعلته أيضا من بقعاء.

في اليوم ما بعد التالي استأنفنا السير و تبعنا حافة النفود التي تنحني هنا قليلا باتجاه الجنوب بحيث كانت وجهتنا الجنوب 80 درجة شرقا. و قادتنا مسيرة 30 كيلومترا إلى آبار الشعيبة حيث بقينا ذلك اليوم و اليوم الذي تلاه. خلال هذين

اليومين بقي المنظر مشوبا بضباب خفيف و كانت الشمس شاحبة و الحرارة باردة.

أما البوصلة فكانت مضطربة باستمرار.

المياه في آبار الشعيبة البالغ عددها ثلاثين بئرا، تقع على عمق 5 أو 6 أمتار. و هي شديدة الملوحة و مرة.

في 30 كانون الثاني سرنا بضعة كيلومترات إضافية باتجاه الجنوب- الشرقي ثم إلى الشرق. و حينما بلغنا أثر درب بغداد بدأنا نسير إلى الشمال و دخلنا إلى النفود الذي لم يعد فيه ما يخيف و لا يقارن بنفود الجزيرة العربية الوسطى. فهو مجرد تلال من الرمل تفصل ما بينها وهاد مملوءة بالحصى. و بعد مسيرة 13 ميلا وصلنا إلى مكان يدعى الشامة.

في 31 كانون الثاني قطعنا كذلك 13 ميلا في اتجاه الشمال و ذهبنا لنخيّم عند بئر تربة حيث بقينا أربعة أيام.

البئران مسورتان و المياه فيهما على عمق 15 مترا تقريبا. لدى وصولنا كانت المياه نتنة و مرة و لكن حينما استنفدها الحجيج بسرعة جاءت المياه التي حلّت محل الأولى أطيب مذاقا.

شيّد أحد اواخر أمراء شمّر قرب آبار متعب، قصرا من الآجرّ و وضع فيه كتيبة حرس لمنع العرب من غير شمر أو حلفائهم من أخذ الماء. و الأمير الحالي محمد يبقي فيها باستمرار ثلاثة رجال للهدف نفسه.

إن قبيلتي عبدة و تومان الشمّريتين الواقع مخيماهما في هذه المناطق هما اللتان تشربان من مياه تربة.

الأراضي المحيطة بتربة قاحلة بشكل رهيب. إنها صحراء حجرة تتخللها جزر رملية بسماكة سنتيمترين إلى 3 سنتيمترات. و التربة التحتية خليط من الحصى و المرو و قطع الصوان و الكلس المتراصة و التي تبدو متماسكة بملاط أبيض. هذه الصحراء الممتدة بعيدا إلى الشرق تحمل اسم الضبيب الكبير.

على بعد 12 ميلا إلى الشمال- الشرقي لتربة تقع آبار خضرا و عددها 14. و قد حفرت في الصخر ببساطة و لم تزين بأسوار و يبلغ عمقها من 15 إلى 16 مترا و قطرها متران.

المياه فيها مشوبة بالمرارة. و كانت هذه الآبار فيما مضى تعود خصيصا إلى عرب عبدة، إنما اليوم تستطيع كل قبائل شمّر أن تشرب منها.

و هما أقل عمقا El Hasmaعلى بعد 15 ميلا شرقي خضرا يوجد بئرا الخشماء من تربة و قد سوّرتا و تحتويان على ماء طيبة.

على مسافة 10 كيلومترات تقريبا شرقي آبار الخشماء بئران أخريان تحت اسم زرود و هما بعمق آبار تربة نفسه و مبنيان. اما نوعية مياههما فأدنى من مياه الآبار السابقة.

هذه الآبار الكائنة جميعها في النفود المسمى متسور كانت فيما مضى ملكية حصرية لقبيلة عبتة. النفود هنا هو عبارة عن شريط ضيق من الرمل بعرض عشرة كيلومترات تقريبا يتجه شرقا انطلاقا من النفود الكبير.

في 4 شباط غادرنا تربة و اجتزنا شريط النفود و خيّمنا عند الظهر على بعد بضع كيلومترات من المكان المسمى المتسياحه في صحراء عرق الضهور Areq eI Dhehour الحجرة و الرملية.

على مسافة يوم من السير، أي قرابة 40 كيلومترا إلى الغرب من المتسياحة و في النفود، توجد آبار الحيانيا الثلاثة التي قيل لي إن عمقها 60 مترا (؟) نصف البئر يخترق النفود و هو مسوّر أما الباقي فحفر في الصخر و مياهه طيبة جدا.

في صحراء عرق الضهور و على مسافة بضعة كيلومترات شرقي المتسياحة يوجد رأسا نهرين صغيرين هما وادي ختسال و وادي خور اوقيان اللذين يجريان مسافة 30 ميلا تقريبا نحو الشرق و الشمال- الشرقي في وادي أبا الصيران. بين النفود زرود في الجنوب و منطقة جبلية في الشمال لم أتمكن من معرفة اسمها.

قبل الوصول إلى المتسياحة، تمر الطريق على امتداد عدة كيلومترات بين بقايا سورين تفصل بينهما مسافة 20 إلى 30 مترا. إنها شواهد الجدارين اللذين شيدتهما زبيده زوجة هارون الرشيد، من بغداد إلى مكة للسماح حتى للمكفوفين بالقيام بالحج إلى المدن المقدسة بحسب رواية المؤلفين العرب. و لا تزال الطريق تدعى اليوم درب زبيدة وفاء لذكرى هذه الأميرة.

في 5 شباط استأنفنا السير في الساعة السادسة صباحا. في التاسعة بدأ النفود من جديد و بعد ساعتين كنا نخيّم مجددا خارج النفود في بلجبيه.

منذ مغادرتنا تربة لم نصادف الماء، لذا بدأ الحجيج يعاني نقصها. في هذا اليوم

بعنا الماء بسعر روبية [1] للقربة. و لحسن الحظ في السابعة مساء انهمر المطر غزيرا مما سيدفع ببعض الماء إلى المنخفضات.

في اليوم التالي في 6 شباط، قادتنا مسيرة 22 كيلومترا إلى الشمال و 6 إلى الشمال- الغربي إلى العشق في الصحراء الحجرة نفسها.

هنا رأيت أول الأحواض الشهيرة (بركة) التي بنتها زبيدة على طول الطريق لتستقبل مياه الأمطار و تسقي الحجيج.

بركة العشق كانت تقع على مسافة ميل تقريبا إلى الجنوب- الغربي لمخيمنا.

هذا الإنشاء البديع من الحجر المقصّب المغلف بالإسمنت لا يزال في حالة جيدة جدا.

و تبلغ قياساته 90 مترا على 61 بعمق 15 مترا تقريبا. الحوض الواقع في منتصف منحدر هضبة كبيرة يتقاطع مع الجدول النابع منه و يحجز مياهه. من الجدارين الداخليين الشمالي و الجنوبي للحوض يهبط مدرجان عاليان و عريضان حتى القاع. و يرجح أن المنطقة لم تحظ إلا بأمطار قليلة إذ لم يكن في قعر الحوض سوى بعض الوحل السائل و مع ذلك فقد ملأ الحجيج قربه منه. إلى جانب الحوض توجد على الهضبة بقايا أبنية كانت بمثابة منازل.

بالقرب من مخيم الحجاج حوض آخر أصغر من الحوض الذي وصفته آنفا و لكنه في حالة متردية عن الأول و قد اجتاحه الرمل كليا.

في 7 شباط و بعد اجتياز مرحلة 12 ميلا شمالا، 10 درجات غربا، وصلنا عبر الصحراء الحجرة إياها إلى بركة الشبا Asabah .

تتألف هذه المحطة من ثلاثة أحواض و مبنى ضخم و قرابة 100 بيت صغير و جميعها من الحجر المقصّب مما يعني أنها كانت نقطة مهمة.

مباشرة شمالي الشبا يوجد مقطع آخر من درب زبيدة بطول 5 أميال. هنا الجداران اللذان يحدان الطريق مبنيان بعناية فائقة. سماكتهما ما بين 60 و 70 سنتمترا و ارتفاعهما متر تقريبا. بين الفينة و الأخرى نجد بقايا منزل صغير مربع من الحجر المقصّب طول ضلعه 8 أمتار تقريبا. و هو مبني خارج الجدار الذي يحد

---

(1) الروبية- 15. 2 فرنك.

الطريق و له باب يفضي إلى الطريق التي يبلغ عرضها المتساوي هنا 25 مترا.

في اليوم التالي، تابعنا في السادسة مسيرتنا إلى الشمال و بعد ساعة مررنا بين بركة مدوّرة إلى يسارنا و أطلال قصر إلى يميننا. و يدعى هذا المكان جسر ابن عطية.

في نهاية الساعة الثانية من السير، مررنا قرب أطلال قصر يدعى فليت ابن قنتFeleit ebn qenet .

بعد انطلاقنا بأربع ساعات و نصف الساعة خيّمنا في الشعيبة.

تملك هذه المحطة الواقعة في منخفض طفيف حوضين، الأول مدور و الثاني مربع، بالإضافة إلى بقايا مبان ضخمة من بينها قصر لا يزال ترتفع جدرانه عدة أمتار فوق الأرض. الباقي كله بمستوى الأرض تقريبا.

شيد الحوضان بمنتهى العناية و بمتانة جعلتهما يصمدان سالمين حتى اليوم. جدران الحوض المربع من الحجر المقصّب، أما الحوض المدور فمبني من الدبش المغلف بالإسمنت. و قد دعم الجداران الشمالي و الجنوبي للحوض المربع فيما بعد بجدار ثان من خليط الملاط و الحجارة المكسرة شيد أمام الجدار الأول. هذا الاحتياط كان دون جدوى إذ انهارت الجدران الإضافية فيما بقيت الجدران الأولى منتصبة.

جدران القصر هي أيضا من الحجر المقصّب و لكنه خشن جدا. بالقرب من القصر حوض جميل لا ماء فيه عمقه 40 مترا و قطره 3 أمتار.

كان الحوضان مملوءين حتى النصف بمياه تميل إلى الصفرة إنما طيبة و كافية لتروي عشرة أضعاف حجيج بحجم حجيجنا.

من مخيم العشيبة عينوا لي موقع آبار لينة الشهيرة التي لا بد أنها تقع إلى الشرق تماما على بعد 30 ميلا على الأكثر. هذه الآبار البالغ عددها 300 تقريبا يبلغ عمقها 25 مترا و جميعها حفرت في الصخر. المياه فيها طيبة دون أن تكون ما يسميه العرب "عذبة". و قد كانت في كل الأزمنة ملكا لعرب عبته الآنف ذكرهم و الذين تمتد الأراضي التي يجوبونها إلى هنا.

و قد روى لي عبد الله، أحد رجال الأمير المشارك في مواكبة الحجيج، أن آبار لينة ليست من صنع الإنسان إذ لا يمكن لأحد أن يحفر آبارا في هذا الصخر الأبيض و الصلب كالمعدن. سليمان بن داود الذي كان مارا من هنا ذات يوم عطشان دون ماء

هو الذي أمر العفاريت بأن يحفروا له هذه الآبار في ساعة. فأطاعوه و باشروا العمل فورا، و لكن الصخر كان صلبا لدرجة أنهم لم يتمكنوا من إنجازها إلا في ساعتين على الرغم من حماستهم!!.

في 9 شباط انطلق الحجيج في السابعة. و بعد ساعتين مررنا قرب بقايا قصر يدعى باتل أتول. و على بعد بضعة كيلومترات منها أطلال مبنى صغير منعزل من الحجر يدعى قصر عقلا الرنيني و وصلنا إلى ذبالة بعد ذلك بقليل.

هذه أهم محطة من بين كل المحطات التي صادفناها منذ عشق. و تحتل حوضا بيضاويا بقياس 4 كيلومترات على اثنين. الأرض صخرية خالصة تتجمع مياه الأمطار في المنخفضات إذ إنها لا تجد مصرفا خارج هذا الحوض الطبيعي و لا في الأرض، و لا تختفي إلا بفعل التبخر. و مع ذلك فقد بنيت هنا أربعة خزانات مملوءة بالمياه حاليا.

بنيت المنازل التي كانت عديدة جنوبي الأحواض و فوق المنخفض الذي تحتله بحيث تمكن رؤيتها من بعيد جدا مشكّلة بذلك نقاط هداية في هذه الصحراء الجرداء و الرتيبة.

بين الأحواض و المباني 5 آبار كبيرة يبلغ قطرها 5□ 2 متر إلى 3 أمتار و عمقها ما بين 40 و 50 مترا. لدى مروري، كان فيها ماء و لكن يرجح أنها مياه الأمطار. الجزء العلوي من هذه الآبار مسوّر و الباقي محفور في الصخر.

لم تعد المباني سوى كوم مشوّهة ذلك أن الحجارة التي استعملت لبنائها أصابها التفتت بفعل العوامل المناخية نظرا لطبيعتها. كما أن الأحواض منهارة جزئيا.

منذ الشعيبه كانت الأرض قد عادت بركانية و لكن هذا الطابع يزداد في ذبالة.

في 10 شباط انطلقنا مجددا في السابعة. و بعد دقائق كنا نجتاز شعيبا كان يحتوي في الوقت الراهن قدمين من الماء بعرض 100 متر و ذلك بفضل المطر الذي تساقط طوال الليل. و يقدر طول هذا الشعيب ما بين 50 و 60 كيلومترا من الغرب إلى الشرق.

في الحادية عشرة كنا نخيّم في الجميما و هو منخفض بني في أدنى مستوى منه حوض مربع جميل لا يزال بحالة ممتازة. طول ضلعه 30 مترا تقريبا و عمقه 4 أمتار.

البناء في غاية البراعة. فالمياه تدخل في الخزان المملوء حتى الجمام من قناة جانبية

من المرجح أن القصد منها إسقاط الرمل و المواد الترابية العالقة في الماء.

سماكة جدران الحوض 30 1 متر و كان داخل الحوض مغلفا بالحجارة المقصّبة غير المغطاة بالإسمنت. و على غرار الأحواض السابقة كان هناك درج يقود إلى القاع.

في 11 شباط اجتزنا 16 ميلا إلى الشمال، 5 درجات غربا و خيّمنا في الظفيري حيث بركة جميلة لا تزال صامدة كليا.

قرابة التاسعة صباحا كنا قد رأينا لجهة الغرب و على مسافة عشرين كيلومترا تقريبا، قمة تلة ترتفع فوق الأفق و تسمى القور عطية.

قبل بلوغ مخيمنا بقرابة عشرة كيلومترات كنا قد صادفنا حوضا يحمل أسم الحوض نفسه الذي خيمنا بقربه أي الظفيري. كلاهما كان في حالة جيدة إنما فارغين من المياه. و لم يكن في جوارهما أي مبنى.

على مسافة بضعة كيلومترات شمالي مخيمنا، بركة ثالثة تدعى هي أيضا الظفيري.

قطرها 12 مترا تقريبا و كانت مغمورة بالرمل حى حافتها.

و لتمييز هذه الأحواض الثلاثة التي تحمل اسما واحدا، عمد العرب إلى تعيينها بصفاتها الجنوبية و الشمالية و الوسطية.

كنا نخيم بالقرب من بركة الظفيري الوسطية و من هذه النقطة رأيت تلة تسمى جال الباطن ترتسم في الشمال في خط طويل أفقي تماما. و في اليوم التالي، تبين لي و أنا اجتازها أنها مدرج في الهضبة و ليس تلة.

في جال الباطن تنتهي الصحراء الحجرة و كانت قد بدأت في النقطة التي ينفصل فيها درب زبيدة نهائيا عن النفود أي عند بركة فليت ابن قنيت. هذه الصحراء الحجرة (كلسية) الرتيبة جدا تدعى الحجرة. و هي تمتد في الشمال- الغربي حتى وديان على مسافة أربعة أيام من السير و في الجنوب- الشرقي حتى حسا على مسافة ثلاثة أيام من درب زبيدة. إنما في هذا المجال الشاسع من الأرض، جفاف الصحراء و عمقها مطلقان.

لقد ذكرت الوديان لتوّي. هذا الاسم لا يدل على شعيب و لا على واد، بل على منخفض في حماد شمالي النفود، شرقي الجوف، يتجه نحو الشمال- الشرقي على مسافة تفوق 120 ميلا جغرافيا و فيه مراع جيدة. و لا بد لي من الملاحظة هنا أنني لم أسمع بالوديان

لا في الجوف و لا في الجبل. و من أطلعني على القليل الذي أعرفه هو شيخ من قبيلة عنزة رافق الحجيج لمدة يومين انطلاقا من و شرف، و قد دونته على خريطتي بالاستناد إلى هذه المعلومات.

في 12 شباط انطلقنا في السابعة قاصدين الشمال، و بعد ساعة كنا نمر قرب بركة الظفيري الشمالية التي سبق ذكرها قبل قليل. و بعد مسافة قصيرة وصلنا أمام جال الباطن و تسلقنا منحدره الوعر جدا.

الصعود عبر مجرى السيل عملية بالغة الصعوبة، لذا فإن عددا كبيرا من الجمال تتد حرج و قد أكد لي العرب أن جال الباطن غير قابل للتسلق حتى لرجل من أي مكان باستثناء هذا المعبر.

و قد حوّل مسار السيل جزئيا لتصب المياه في حوض شيّد في أسفل المنحدر و لكنه مغمور بالرمل كليا.

عند ما نكون في قمة جال الباطن نرى بالفعل، كما ذكرت آنفا، أنه ليس تلة إذ إن الأرض تستمر فورا نحو الشمال في هضبة شاسعة. إنه درجة بارتفاع 40 إلى 50 مترا يتوجب صعودها عند ما نصل من الجنوب.

في سفح جال الباطن حفرت المياه في الأرض خنادق و وديانا و لذلك نجد هنا بعض المراعي.

يمتد هذا الارتفاع المتجه من الشمال- الغربي إلى الجنوب- الشرقي، مسافة 160 كيلومترا تقريبا، يقع قرابة ثلثها غربي درب زبيدة و الباقي إلى شرقه.

بعد جال الباطن بفرسخين خيّمنا قرب بركة العقبة.

هذه المحطة هي إحدى أهم محطات الطريق. فيها حوض رائع بطول 110 أمتار و عرض 60 مترا تهدم جزئيا و غمره الرمل. كان يحتوي ماء.

و بركة ثانية مهدومة خالية من الماء.

و لكن اللافت للنظر هي أربعة آبار ضخمة، من أروع الآبار التي رأيتها في حياتي.

الأولى التي تقع شمالي البركة الكبيرة على شكل مربع طول ضلعه 4 أمتار و نصف المتر. من الفتحة و حتى عمق 8 أمتار تقريبا سوّرت جدرانها اما الباقي فحفر في الصخر.

البئر الثانية تقع في وسط مبنى كبير بات أطلالا. و هو أيضا مربع طول ضلعه 5□ 3 مترا.

الثالثة لا يتجاوز قطرها مترين و الرابعة الكائنة على مسافة 50 مترا إلى الشمال- الشرقي من الحوض الكبير طول ضلعها 4 أمتار من كل جهة.

كل هذه الآبار التي تشكل تحفا فنية بكل معنى الكلمة و التي أنجزت بعناية فائقة، تصل إلى عمق 60 مترا. و لكن للأسف ليس فيها ماء و كل هذه الأعمال الهائلة ذهبت هدرا.

إن أطلال أبنية المساكن كثيرة و تشهد على أهمية هذه المحطة.

في اليوم التالي استأنفنا سيرنا إلى الشمال و قطعنا 11 ميلا و خيّمنا في عسامين.

فور مغادرتنا العقبه عادت الطريق محفوفة بالجدران، بقايا أشغال زبيدة. إنما هنا، لكونها سلمت على نحو أفضل، فقد بلغ ارتفاعها في بعض الأماكن مترين. و لا بد أن الجدران كانت أكثر ارتفاعا في الأصل لأنها تفتقر إلى التتويج و تصدعت. غير أنني لا أعتقد أن ارتفاع المترين هذا كان سائدا في كل المسافة و لا السماكة التي تتراوح ما بين 50□ 0 م و 75□ 1 م. إن بناء هذه الجدران أكثر خشونة شمالي العقبة من تلك الباقية جنوبي المتسياحة El Metseiahat . فالحجارة قرب العقبة خشنة و ضخمة و وضع ببساطة بعضها فوق بعض دون أن يجمع بينها أي ملاط.

على مسافة 6 كيلومترات من العقبه باتجاه الشمال، أطلال قصر. و على بعد 8 كيلومترات منه، في منخفض طفيف، نرى بركة مربعة طول ضلعها 15 مترا. يمكن رؤية هذا الحوض من مسافة بعيدة إذ إن التراب الذي استخرج لدى بنائه، رمي إلى شمال الحوض و إلى جنوبه مشكلا تلّتين صغيرتين بنيتين واضحتين من بعيد بفضل تساوي الصحراء. كان الحوض مملوءا بالماء. و يحمل القصر و البركة اسم المنطقة عسامين.

قبل الوصول إلى هذه البركة رأينا في الشمال شريطا أفقيا طويلا ممتدا من الشرق إلى الغرب يوحي بارتفاع شبيه بارتفاع جال الباطن. و لكن لدى بلوغه قرابة الساعة الحادية عشرة تبين لي أنه سلسلة طويلة من التلال الصغيرة المعزولة، قممها على شكل طاولة، متجهة من الشمال- الشرقي إلى الجنوب- الغربي. و تتخذ هذه التلال

شكلا هلاليا على العموم و لا يتعدى ارتفاعها 15 مترا تقريبا. أما طول الارتفاع الذي يحمل اسم عسامين، فيبلغ 50 كيلومترا.

في 14 شباط بدأنا السير قرابة السابعة. و بعد نصف ساعة تراءى لنا جبل صغير لم نلبث أن بلغناه و يدعى جبل الفهدة.

و في الوقت نفسه الذي رأيت فيه هذا الجبل المنمنم بدا لي في البعيد من جهة الشمال أيضا ارتفاع ذكرني بارتفاع جال الباطن و عسامين. و لم نلبث أن وصلنا إليه و تبين لي أنه أشبه بالأول من الثاني. فكان علينا أن نصعد درجة أولى و بعد مائة متر تقريبا درجة ثانية. و الدرجتان معا لا تساويان إلا نصف ارتفاع درجة جال الباطن. و عند بلوغ القمة نكتشف أنها هضبة جرداء كليا.

هذا الارتفاع المتجه أيضا من الشمال- الغربي إلى الجنوب- الشرقي، يسري على طول 60 كيلومترا تقريبا و يحمل اسم جال و قصة.

من جال و قصة سرنا مسافة كيلومترين ثم خيّمنا قرب منخفض كانت الأمطار الأخيرة قد حولته إلى بحيرة صغيرة تدعى و شرف.

كان هذا المخيم يشغل هضبة على شكل حوض مسطح جدا بطول 5 أميال و عرض ميلين. و قد حفر في قعره قرابة ستين بئرا بقطر متر واحد. و كان الجزء الأكبر من هذه الآبار مغمورا بالبحيرة الناتجة عن أمطار الشتاء. لم أر سوى بئر واحدة ضلعها 8 أمتار و لكنها جميعها محفورة في الصخر. و الماء كريه.

و روى لي العرب أن مدينة كبيرة كانت تقوم هنا في غابر الزمان. هل هذه أسطورة تستند إلى عدد الآبار أو على كمية الحصى المتناثر في كل الجهات؟ لقد شاهدت هنا بالفعل بقايا أساسات مبان قديمة و لكنها لا تفوق تلك الموجودة في المحطات السابقة. و مهما يكن من أمر، فباستثناء الآبار لم يعد هناك شيء و لا حتى حطب بحيث لم يتمكن الكثير من الحجاج إعداد غدائهم لافتقارهم لما يسمح لهم بطبخه.

قبيل الوصول إلى جال و قصة بقليل صادفنا بئر و قصة إلى غرب الطريق عمقها 18 مترا و مياهها عذبة.

لا يزال في منطقة و قصة و عسامين ثلاث آبار قديمة جدا. و هي تشغل خطا ينطلق من بركة عسامين ليلتقي طرف جال و قصة في الشمال- الشرقي.

الأولى التي تقع على بعد 12 كيلومترا من البركة هي الجيل و عمقها 70 مترا.
الثانية، على بعد 22 كيلومترا، تدعى الشبرم عمقها 80 مترا.

الثالثة، العاعا التي تبعد 26 كيلومترا من البركة، عمقها 87 مترا.

الماء في بئر الجيل كريهة و لكنها طيبة المذاق في البئرين الأخريين. أما قياسات العمق فإنني أوردها طبعا مع كل التحفظ وفقا لأقوال العرب الذين لا يكلفهم عدد الأمتار شيئا خاصة عند ما يتعلق الأمر بعمق بئر.

الصحراء الواقعة إلى شرق هذه الآبار تدعى جال البساسة. لا أعرف إلى ماذا تعود هذه التسمية بالضبط إذ أكد لي أنه لا وجود لجال بالمعنى الصحيح.

كل منطقة عسامين الواقعة بين جالي الباطن و وقصة، عبارة عن صحراء من الصوان عقيمة بشكل مطلق. و لكن الصوان يختفي ما بين جبل فهدة و جال و قصة. البدو يطلقون على حجارة الصوان هذه اسم صلابيخ و بشكل أدق صلابيخ و قصة و لكنني أعتقد أن هذه التسمية يجري استعمالها في قبيلة عنزة فقط.

على بعد 5 أميال إلى شمال مخيمنا في و شرف، الخط الفاصل بين أراضي أقوى قبيلتين في الجزيرة العربية أي شمر و عنزة. يمر هذا الخط تقريبا بخط عرض آبار شبيكة الواقعة على بعد 5 أميال إلى الشمال الغربي من و شرف.

هذه الآبار الشهيرة و البالغ عددها ثلاثمائة تقريبا ليست قديمة و قد حفرها العرب الحديثون أي منذ بدء الهجرة. لا يتجاوز عمقها مترين أو ثلاثة أو أربعة أمتار كما أكد لي أنه ليس فيها ماء إلا عند ما تمطر. و بالتالي يمكن اعتبارها خزانات أكثر منها آبارا، و ما يحمل على هذا الاعتقاد هو أن مياهها نتنة و مرة و مالحة.

في 15 شباط بقي الحجيج مخيمين في و شرف بسبب جدال بين اثنين من الحاملادار [1] و بدوييهم مستأجري الجمال.

لقد ذكرت آنفا بأن الأرض بين جبل فهدة و جال و قصة تختلف عن أرض عسامين الواقعة إلى الجنوب و المكونة من الصوان. و في و قصة نجد حجارة كلسية متنوعة جدا كما يتبين من العيّنات الآتية التي استجلبت:

---

(1) حاملادار هو اسم الذين يتولون نقل الحجيج العراقيين مقابل سعر جزائي من بلاد ما بين النهرين إلى المدن المقدسة و العودة.

1- كلس تتخلله حبيبات من الصوان.

2- كلس رمادي بلوري.

3- كلس مختر.

4- كلس متراص و مصقول و قد لمع سطحه بسبب احتكاك الرمل على الأرجح.

في و شرف يطغى كلس صواني إلى حد بعيد، يجرح الزجاج و تتخلله فجوات و عروق كلسية كالترافرتين.

في 16 شباط استأنفنا المسيرة مسافة 30 كيلومترا حتى الطلحات التي لا تزال الآن إحدى أهم محطات درب زبيدة.

هنا أطلال مائة بيت صغير تقريبا و خان كبير. و لا تزال جدران هذا الأخير تنتصب إلى ارتفاع 4 إلى 5 أمتار فوق الأرض. كما فيها ثلاث برك، واحدة مدوّرة و اثنتان مربعتان و كل واحدة من الأخيرتين مزدوجة. و لكن أغرب ما نرى هما بئران مربعتان حفرتا كليا في الصخر لعمق 70 مترا تقريبا طول كل جانب منها 5 أمتار و قد نفذتا بعناية و بدقة تامتين. لم أر حتى الآن ما يوازيهما فخامة إذ إنهما تفوقان آبار العقبة جمالا و عمقا. لدى مروري كانتا جافتين و من المرجح أنهما كانتا كذلك على الدوام.

البرك هي أيضا جافة، و لا عجب في ذلك لأنها مغمورة بالرمل إلى ما فوق فتحات التغذية. لقد أمطرت السماء هنا على غرار المنطقة بأسرها و هذا ما كانت تشهد عليه النباتات القوية النامية في كل منخفضات الأرض.

قبل الوصول إلى الطلحات بساعة، صادفنا أطلال مبنى منعزل لا تحمل اسما خاصا.

من بعد 10 كيلومترات إلى شمالي و شرق يتبدل مظهر الأرض مجددا. فالكلس المختر و الكلس المتراص و الصوان العشبي تبقى الصخور طاغية حتى الطلحات.

و تعرف هذه المحطة كذلك باسم مفرق درب لأن الطريق تنقسم فيذهب فرع منها مباشرة إلى النجف فيما يتجه الآخر إلى قصر السيد.

في 17 شباط غيرنا طريقنا و سرنا إلى الشمال، 20 درجة شرقا.

في الحادية عشرة مررنا أمام محطة الحمام دون توقف و فيها قصر و بئر و بركة.

و يشمل القصر، و هو أفضل القصور المحافظة على شكلها في طريقنا، غرفة

مقببة

كليا لا تزال قائمة. و البركة أيضا لا تزال في حال جيدة و فيها ماء.

عند الواحدة و بعد أن قطعنا 35 كيلومترا ابتداء من الطلحات، خيمنا في محطة حامد حيث لا يوجد سوى بركة مربعة.

في اليوم التالي انطلقنا في السادسة صباحا و مررنا بعد ساعتين قرب محطة مغيصة حيث يوجد قصر و بركتان. و بعد عشرين كيلومترا خيمنا على ضفاف شعيب الخزعمي الذي ليس بعيدا عن قصر و بركة أم قرون.

ابتداء من الطلحات و حتى جدول الخثعمي تبدو المنطقة دوما بمظهر صحراء حجرة لا نباتات فيها. هذا الجدول جاف و لكنه مملوء بالخضرة لأنه تلقى ماء هذا الشتاء، و نجد فيه عشبا و حطبا.

في 19 شباط، سرنا في السادسة إلى الشمال تقريبا، 10 درجات غربا.

بعد سفر دام ثلاث ساعات، اجتزنا الشعيب أصب الذي هو ينبوع قرب آبار شبيكة و يجري في شط العرب قرب البصرة.

بعد مرور ساعة على عبورنا شعيب أصب، وصلنا إلى شعيب أبو خمسات الذي كان مملوءا بالخضرة. و خيمنا على مسافة ساعة إلى الشمال.

على بعد بضعة كيلومترات إلى شرق مخيمنا قصر السيد مع ينبوع، و على مسافة بضعة كيلومترات إلى الجنوب- الشرقي قصر رحيم و ينبوع ماء مرّ.

منذ الثامنة صباحا بدت أمامنا قبة مسجد علي المذهبة في النجف و هي تلمع كالشمس. و قد شجع هذا المنظر الجميع و أنساهم الكثير من المآسي التي عانوها.

في اليوم التالي في 20 شباط، كان الجميع جاهزين قبل الفجر بوقت طويل. في السادسة انطلقت المسيرة و بعد ساعة و نصف الساعة وصلنا أمام "بحر النجف" و تركناه إلى يميننا للالتفاف حوله. و سرنا على التوالي إلى الشمال- الشرقي ثم إلى الشرق و أخيرا إلى الجنوب- الشرقي. عند الظهر إلا بضع دقائق وصلت إلى النجف المقدس.

كان بعض البدو قد أرادوا خداع ابن رشيد برفضهم نقل الحجيج بالشروط التي وضعها. و لكن في النهاية و من بعد تهديدات الأمير قرروا إرسال أسوأ إبلهم مما أجبر الحجيج على الاكتفاء بمسيرات لا تتجاوز ست إلى سبع ساعات في اليوم. لذا فقد

أمضينا 35 يوما للمجيء من حائل إلى النجف و هي مسافة يمكن اجتيازها عادة في 12 يوما بسهولة.

توقفت بضعة أيام في النجف و في كربلاء سعيدا بالتلذذ مجددا بملذات حضارة أكثر تقدما من حضارة سكان الصحراء. و إذ استشرى الطاعون في النجف اضطررت إلى قضاء 15 يوما من الحجر الصحي في مسيّب قبل الدخول إلى بغداد التي لم أصل إليها إلا في 18 آذار. و قد خصني السيد بيرتيه قنصلنا، باستقبال في منتهى الودّ و اللطافة و بضيافة شرقية صرف. و سأحفظ له دائما أحر امتناني.

كلمة أخيرة قبل أن أختم المسار من حائل إلى العراق. هناك ثلاث طرق تتبع عادة و يسميها العرب كالآتي:

درب سماوة و هي تنطلق من هذه البلدة على ضفاف الفرات و تتجه إلى الجبل مرورا بلينة.

درب الغزال التي يمكن أن تنطلق من أي نقطة في بلاد ما بين النهرين ثم تنحرف قليلا إلى الغرب و تذهب إلى الجنوب مرورا بآبار الشبيكة في الغرب و باحتراق النفود في جزء كبير. و لا يمكن ان يسلك هذه الطريق إلا رجال يمتطون أفضل المطايا. و هي على الأرجح الطريق التي تبعها و الين عام 1848.

درب زبيدة أو الدرب السلطاني التي تجري بين الدربين السابقتين. هي الدرب التي تبعتها و التي وصفتها لتوّي.

و لكننا نفهم أن هذه الطريق، على الرغم من فخامة أحواضها، لا يمكن سلوكها في كل وقت لان أمطار الشتاء ليست منتظمة. و قد روى لي جميع العرب أنه قبل شتاء 1880- 1881، مرت ثلاثة مواسم شتاء دون أمطار و لم يحظ خلالها أي من الأحواض بماء. و قبلها مرت تسعة مواسم شتاء جافة أخرى. و في ثلاث عشرة سنة لم تكن هذه الطريق سالكة إلا ثلاث سنوات. و قافلة الحجاج التي بنيت من أجلها تستخدمها بنسبة أقل بكثير إذ يصادف الحج عموما في شهر حار أكثر منه في شهر بارد.

و قد أدرك بناة درب زبيدة هذا العائق و حاولوا تداركه بإنشاء آبار إلى جانب أحواضهم الضخمة. و قد رأينا الأعمال الجميلة التي نفذت في محطتي الطلحات و العقبة و كم حرصوا على إيجاد الماء. و لكن الله لم ييسر لهم العثور عليه.

أورد الآن بعض المعلومات حول أكثر الطرق استعمالا و هي درب سماوة التي تمر بلينة

و التي لم أستطع إدخالها إلى خريطتي لافتقاري الى مزيد من المعلومات.

بالانطلاق من سماوة، تقود مسيرة يوم كامل إلى الجفرة، و هي محطة مزوّدة بآبار.

لكن عرب الزياد لصوص محترفون، يجعلون هذه النقطة خطرة. لديهم خيول و لا ينفكون يغيرون للسلب.

في اليوم التالي وصلنا إلى صحراء الحجرة و خيّمنا في مكان اسمه أبو خويمة حيث لا ماء في غدير إلا في الشتاء.

في اليوم الثالث خيّمنا في سلمان حيث آبار عديدة و لكن مياهها كريهة.

قادنا اليوم الرابع إلى حقي الفردوس و هو منخفض طفيف مستطيل الشكل يمتد 500 متر و يشتمل على خضرة طوال السنة. ليس فيه آبار و لكن المياه تبقى فيه طويلا بعد المطر.

في اليوم الخامس خيّمنا في الخديد حيث لا يوجد سوى مياه الأمطار.

في اليوم السادس خيمنا في جال الباطن حيث نجد إما مياه المطر أو مياها من آبار لينة.

معلوماتي حول هذه الطريق تتوقف هنا.

من بغداد إلى دمشق عبر الحماد

من بغداد ما علينا إلا ان نختار الطرق للذهاب إلى فرنسا. الطريق الاعتيادية هي طريق البحر عبر البصرة و السويس و هي اقل الطرق مشقة و لكنها اطولها.

إحدى الطرق البرية تتمثل في الذهاب من بغداد إلى الموصل و منها إلى الإسكندرون إما عبر أورفاء (الرها) أو عبر حلب. و تتم هذه الرحلة على الحصان.

و يوجد اخيرا طريق أقصر بكثير تسلك طريق الصحراء. و تتمثل في الذهاب من بغداد إلى الفرات الذي يتم عبوره عند شقلاوه. ثم نصعد الضفة اليمنى للنهر حتى الدير [1] و من هنا نذهب إلى السخنه في الجنوب- الغربي، ثم إلى تدمر و أخيرا إلى

(1) أي مدينة دير الزور و تقع على نهر الفرات، و تبعد عن الحدود العراقية حاليا 130 كيلومترا.

دمشق. إننا نحصل على الماء كل يوم أو كل يومين و تتم الرحلة على جمل ذلول.

و لكن للأسف نتعرض لعمليات السلب التي تقوم بها كبريات قبائل عنزة التي تحتل بالضبط هذه المناطق من صحراء سورية.

إنها الطريق التي تسلكها عادة القوافل الصغيرة التي تسير بين بغداد و دمشق.

الطريق المباشرة من بغداد إلى دمشق عبر الحماد لا بد أن تكون أكثر أهمية للعلم.

بعض العرب المتفرقين الذين يؤمّنون خدمة البريد بين هاتين المدينتين لحساب القنصل الانكليزي في بغداد [1] يجتازون هذه المسافة منذ عدة سنوات.

قمت باستعداداتي لاتباع هذه الطريق و عند ما وجدت الدليل اللازم، غادرت بغداد في الأول من كانون الأول 1881.

خرجنا من المدينة في الساعة الخامسة مساء، و لم أجتز عند هبوط الليل سوى أربعة أميال و ذهبت لأخيّم على مسافة قريبة من عقرقوف، قرب بعض خيم بني تميم.

في اليوم التالي في 2 كانون الأول، انطلقنا في الساعة الثالثة صباحا و وصلنا بعد اثنتي عشرة ساعة إلى شقلاوة على ضفاف الفرات.

أرض دجلة الطمية تمتد حتى منتصف الطريق قرب قصر نقطة. أبعد من ذلك تصبح الأرض محجرة و مملوءة بالحصى. على أي حال فإن تركيب التربة معقد للغاية فقد لاحظت جبسا صفيحيا، صوانا على شكل حصى رمادية فاتحة أو تميل إلى الصفرة، يشبا مشققا مع عروق من المرو، حصى من المرو الأبيض الشفاف، حثا رماديا و كلسا بلون التراب.

قبل الوصول إلى شقلاوة بساعة يطفو الرخام و الميكا على سطح الأرض.

ابتداء من قصر نقطة تتخذ النباتات مظهر نباتات الحماد و يختفي البطم الذي تميز الجزيرة باستثناء واحد أو اثنين.

في اليوم التالي عبرنا الفرات في معبر على مسافة خمس عشرة دقيقة من القرية.

و لم تستغرق العملية أكثر من ربع ساعة. و توجهنا على الفور شمالا 70 درجة غربا

---

(1) منذ سنة (من تاريخ الرحلة) أقامت الحكومة العثمانية خدمة مماثلة على الخط نفسه.

نحو الرمادي حيث وصلنا في الساعة الرابعة ثم ذهبنا نخيم في الحقول على بعد مسيرة ساعة منها.

كل ضفة الفرات اليمنى ابتداء من شقلاوة حتى الرمادي بعرض يتراوح ما بين 500Fahat و 1000 متر، يزرعها عرب مقيمون من قبائل أبو فهد مهامته Mehamtah . أوردمي Ourdemy

المنظر مختلف كليا. انتهى سهل الجزيرة الشاسع فأرض الطمي تتوقف على مسافة من الفرات تتراوح ما بين كيلومتر واحد إلى 5 كيلومترات. الأرض تصعد رويدا رويدا و تشكل ارتفاعا يبلغ من 15 إلى 20 مترا مؤلفا من الحث الهش في طور التحلل.

في 4 كانون الأول، انطلقنا في الساعة الرابعة فجرا و وصلنا بعد تسع ساعات إلى الهيت Hit التي أشار عمود دخان أسود ناجم عن تكرير خلاصاتها المعدنية إلى وجهتها منذ الساعة الثامنة صباحا.

هذه المدينة الصغيرة التي تعدّ من أقدم مدن العالم و السابقة لبابل بالتأكيد، تقع اليوم على مسافة 150 مترا غربي موقعها القديم. الهيت الجديدة تشغل مكان قلعة المدينة القديمة على صخرة تشرف على النهر و قصت بشكل عمودي من هذه الجهة. في مقابلها على الضفة اليسرى بستان واحد مؤلف من 200 نخلة تبلغ من العمر عشرين سنة. يتم ريه بواسطة دولابين ضخمين يحركهما التيار (ناعورتان) ترفعان الماء في هدير يصمّ الآذان و هما من مميزات منطقة الفرات. في الأسفل، شرقي الهيت، بستان آخر يشمل مائة نخلة تقريبا. تلك هي كل الخضرة الموجودة.

نعرف انه من بعد الهيت هناك نخيل يثمر في عانا و لكن هذا هو الحد الشمالي لانتاجية هذه الشجرة. بعد هذه الحدود لا يعطي النخيل تمرا.

أرض الهيت تشكل منخفضا شبيها بالأحواض التي رأيتها في القصيم. طرف من هذا الحوض يلامس الفرات الذي يبلغ عرضه هنا 60 مترا و الهيت تقع في هذه النقطة بالضبط.

مظهر المنطقة عار و كئيب. على مسافة عدة كيلومترات في كل الاتجاهات تنبثق ينابيع صغيرة متخمة بالهيدروجين الكبريتي و تفسد رائحة الجو المثقل بالدخان الأسود الناجم عن الكربور المستعمل كمحروقات لتكرير الكربور نفسه.

تعطيك المدينة انطباعا بأنها أطلال. و هناك مأذنة في الزاوية الجنوبية تطل عليك من بعيد و أنت قادم من الرمادي.

الهيت تعيش كليا من ينابيع القار التي لا تنضب.

بالاستناد إلى عيّنات معدنية استجلبت، فإن تربة البلدة تتألف بشكل رئيس من الجبس و حصى المرو و افتاليت و الصوان المنطقي الموشح و المنغنيزي، و المرو الشفاف، و حصى من الكلس الأسود المتراص جدا، الأنبوبي الشكل أحيانا و من الحث الصواني بملاط كلسي.

بين الرمادي و الهيت يشكل الفرات عروة في الشمال بحيث يغيب عن الأنظار، و لأن الطمي لا يمتد إلى هذا البعد في الداخل تأتي النتيجة بأن مجرى النهر بكامله تقريبا يسير في صحراء من الحصى اسمها أبو راية.

في الهيت تملأ القرب من ماء الفرات لعبور الصحراء. و استأنفنا مسيرتنا قرابة الساعة الخامسة مساء في اتجاه الشمال، 75 درجة غربا، لنصل في الثامنة إلى كبيسة Kebeisah و هي قرية مؤلفة من 500 نسمة و تحيط بها جدران تحظى بصيانة جيدة، قضينا الليل خارجها.

حدائق كبيسة موجودة في أرض مسوّرة منفصلة، شمالي المدينة. و على حدود الحدائق يجري نبع غزير لكن ماءه مرّ و مالح. أما المياه الصالحة للشرب لاستهلاك كل القرية، فلا وجود لها إلا في بئر وحيدة تقع على مسافة 500 متر خارج الجدران.

هذه المدينة الصغيرة القابعة على أبواب الصحراء هي مقر مدير مكلّف بجباية الضريبة لحساب الحكومة العثمانية، و لكن هذه هي الفائدة الوحيدة التي يحصل عليها السكان من جراء جنسيتهم اذ إنهم لم يروا السلطة مرة تتدخل لحمايتهم من عمليات السلب الدائمة التي يشنها عرب عنزة.

يوم الاثنين في 5 كانون الأول غادرنا كبيسه في السادسة صباحا و لم نعد نصادف أي مركز مأهول حتى وصولنا إلى سورية. و قد عصفت ريح شمالية مثلجة بقوة طوال اليوم و منعت جمالنا في بعض الاحيان من التقدم.

كانت طريقنا تسري في الجنوب، 60 درجة غربا. و قد قادتنا مسيرة ست ساعات إلى قصر خباز حيث خيّمنا في مجرى الشعيب الذي يحمل الاسم نفسه و الذي يتخذ

وجهة الشمال- الشرقي بعد تكونه على الهضاب التي تحيط القصر، و يمر بكبيسة و من هنا يصبّ في الفرات.

قصر خباز هو المحطة الأولى في طريق تذهب من بغداد إلى دمشق و تدعى درب زبيدة كالطريق التي تقود من العراق إلى المدن المقدسة في الحجاز، أي إن إنشاءات طريق دمشق تنسب إلى الأميرة نفسها.

أمام قصر خباز تنخفض الأرض فجأة 40 مترا تقريبا، و بجانب القصر ينزل سيل بني في أسفله بركة كبيرة القياسات من الحجر المقصّب. كل هذا بات أطلالا و لكنه من السهل الملاحظة أن أسلوب الإنشاءات هو نفسه كما في درب زبيدة الجنوبي. لا تزال جدران القصر ترتفع إلى ثلاثة أمتار و عقد باب المنزل لا يزال كاملا.

لدى مغادرتنا خباز، تابعنا طريقنا مسافة 25 كيلومترا مستمرين في اتجاه الشمال، 60 درجة غربا و خيّمنا في رجم الصابون و هو اسم تلة حيث كان يقوم بناء وحيد من حجارة كبيرة بات أطلالا.

في 6 كانون الأول، لحظة الرحيل في الصباح، لم يستطع أحد أن ينام بسبب البرد.

كان ميزان الحرارة يسجل 9□ 5 درجة. أما الريح فكانت لا تزال قوية و تعصف من الشمال- الغربي.

على بعد بضعة كيلومترات من رجم الصابون، وصلنا إلى مقاطعة قرعة عامق و بعد خمس ساعات من السير إلى قصر عامد.

قصر عامد مبني على الجزء الأكثر انخفاضا من هضبة. و لم يبق منه سوى الأساسات على مستوى الأرض و الباب مع قنطرته. على مسافة قصيرة إلى غرب القصر نجد حوضا مربعا طول ضلعه 12 مترا و لكنه مغمور بالرمل حتى مستوى الأرض.

ابتداء من حيث تحافظ الصحراء على رتابتها لا ترى سوى سهول شاسعة تتماوج قليلا في بعض الأحيان.

من قصر عامد قطعنا 40 كيلومترا إضافيا ثم خيّمنا.

ليل 6 إلى 7 كانون الأول كان أكثر بردا من الليل السابق و هبط ميزان الحرارة إلى 1□ 10 درجة. و لحسن الحظ كانت الريح أضعف من الأيام السابقة.

انطلقنا في السابعة صباحا، و وصلنا بعد ثلاث ساعات من السير إلى وادي المعشر الذي ينبع على مسافة خمسة أميال تقريبا جنوبي- شرقي طريقي و يصب في وادي حوران.

قبل الوصول إلى وادي المعيشر، صادفت على جانبي الطريق بقايا جدارين حاجزين مماثلين للجدران التي رأيتها على درب زبيدة في الجنوب و هو أمر لافت. و تمكنت من تتبع هذين الجدارين مسافة كيلومترين تقريبا.

بعد مغادرة وادي المعشر بساعتين و نصف الساعة خيمنا في وادي حوران قرب آبار عيور، تقع أطلال قصر عيور على الضفة اليمنى من الوادي، و لكن لم يعد يتجاوز ارتفاع جدرانه مترا واحدا. و لا يزال الباب المقبب هو أيضا منتصبا.

إن آبار عيور البالغ عددها 12 تقع في مجرى الوادي قرب الضفة اليمنى. سبع منها ردمت. و قد حفرت في الحصى و سندت جدرانها بكتل كبيرة من الحجر المبروم استخرجت من الوادي نفسه. و تقع المياه الطيبة جدا على عمق أربعة أمتار.

على الضفة الثانية و قبالة قصر عيور، أطلال قبر كما تظهر قبور من حولها على مساحة كبيرة. هذا المكان هو موقع أضرحة الصلب الذين يملكون أيضا الآبار.

ان بداية وادي حوران تقع بحسب أقوال رجالي، على مسافة أربعة أو خمسة أيام سير إلى جنوب- غربي عيور أي على بعد 200 كيلومتر تقريبا و مصبه في الفرات على بعد ثلاثة أو أربعة أيام من السير انطلاقا من النقطة نفسها. و كانت معلومات أخرى قد أعطتني أرقاما أدنى. أفراد قبيلة الصلب من شمال شرق النفود قالوا لي جميعهم إن طول وادي حوران الكامل لا يتجاوز ستة إلى سبعة أيام سير. و عرب من قبيلة العمارات Amarrat شرقي كربلاء أعطوني ارقاما مماثلة تقريبا. و اعترف بأن هذه المعلومات الأخيرة قد أثرت علي لدى تحديد الرسم و إنني لم أجرؤ على اتباع مؤلف الخريطة المرفقة برحلة الليدي آن بلانت، و الذي يسجل رأس الوادي بالدرجة- 36 7 على خط الطول شرقا. أي بزيادة درجة إلى الغرب مني.

من خريطة مجرى الفرات التي وضعها الكولونيل V بالاستناد إلى الورقة فإن مصب وادي حوران يقع على مسافة خمسة و عشرين ميلا شسني Chesney إنكليزيا، شمالا- 37 درجة غربا من عانا.

في عيور تختفي ضفاف الوادي و يمتلىء مجراه بحصى كبيرة و بحصى و كتل مبرومة مما يشير إلى نظام سيلي أحيانا.

المناطق المجاورة لعيور غير متساوية و تتخللها تلال. و كتلة الجبال مكونة من كلس متراص. كان أدلائي يسمونها كلها باسم جبال العوير. و لكن من المرجح أن القمم المختلفة، لها أسماء خاصة لا يعرفها سوى أفراد الصلب الذين يؤمون المنطقة في الربيع.

ما إن ارتوت النوق و ملئت القرب حتى استأنفنا سيرنا باتجاه الغرب و قطعنا قرابة 30 كيلومترا إضافيا. و بذلك وصلنا إلى نهاية هذه الصحراء التي لا نرى فيها سوى سهول شاسعة مع تموجات طفيفة و طويلة للتربة الخالية من كل نبات. كانت الصحراء قد بدأت غربي رجم الصابون و اسمها الضيعة و أيضا الضويعة (في هاتين الكلمتين تمثل حرف الضاد القوي).

بمغادرتنا هذه المنطقة وصلنا في 8 كانون الأول إلى منطقة الجعارة El G'ara التي هي أكثر تعرجا و أقل عمقا. فالأرض صالحة و تنتج مراعي جيدة. حتى إنني رأيت قرابة الساعة العاشرة صباحا شجرا نصيا في واد صغير حيث توقفنا لتناول الغداء و السماح لجمالنا بأن ترعى.

في هذا المخيم استطعت أن أحدد بعض القمم البادية أمامنا و كلها تقع على أراضي الجعارة:

شمالا،- 22 درجة غربا الهدر.

شمالا،- 60 درجة غربا مربط حصان.

شمالا،- 70 درجة غربا الناقة

جنوبا،- 35 درجة غربا عفيف

و القمة الأخيرة هي الكبرى.

في البعيد أمامنا و إلى الغرب، تمتد سلسلة طويلة من الجبال تدعى الملوصة بلغناها بعد الساعة الثامنة مساء و فيها آبار.

قبل ساعتين كنا قد تعرضنا لوضع حرج. كنا قد تسلقنا لتوّنا منحدرا و عرا لتلة صغيرة، و ما إن وصلنا إلى القمة حتى رأينا فجأة على مسافة قدّرتها بخمسة أو ستة كيلومترات إلى الجنوب و هج نار مخيم. فالرجال الذين يستطيعون الإقدام على هذا التحدي في مثل هذه الساعة و في الصحراء لا بد أن يكونوا كثيرين. و وجودهم هنا

لا يبشر بالخير. لا بد أنهم بدو آتون من الصحراء و التقيناهم على بعد بضعة كيلومترات من كبيسة قد أعلمونا بسريانه في هذه المناطق.

فانعطفنا فورا إلى اليمين حاثين الخطى.

آبار الملوصة تدعى أيضا القراح.

عملية سحب الماء و سقي الإبل هي دوما طويلة نسبيا و خاصة عند ما تكون الآبار عميقة. و تزيد الصعوبات إذا كانت العملية تجري ليلا مع صعوبة تمييز الآبار الصالحة مما يستدعي ضرورة البحث عنها و سبرها الواحد تلو الآخر. بالإضافة إلى ذلك، عند ما تكون المنطقة خطرة و عند ما نعرف أننا في جوار غزو لا بد من أن يتم كل شيء بهدوء و صمت فلا كلام إلا بصوت منخفض و يجب عدم إعطاء أي ذريعة للنوق لتطلق رغاءها، و معاملتها بمراعاة خاصة.

و مع ذلك فقد انتهى كل شيء على خير ما يرام في ختام ساعة و استأنفنا السير لنخيّم في الساعة الواحدة فجرا على مسافة 8 كيلومترات بين بعض كتل الكلس الكبيرة قرب شعيب سمحان.

يجري هذا الشعيب الذي يتكون على مسافة غير بعيدة جنوب مخيمنا إلى الشمال- الشرقي و يصب بعد مجرى يبلغ قرابة 50 كيلومترا في وادي الرتقة الذي يتجه هو أيضا نحو الفرات. و لدي أسباب للاعتقاد أنه لا يتجه إليه مباشرة بل إنه أحد روافد وادي حوران.

رمل شعيب سمحان هو طمي رملي يخالطه الكثير من الكلس مع أنواع صوان و كربونات الكلس.

في 9 كانون الأول انطلقنا في السابعة صباحا و خيّمنا في الساعة العاشرة على أراضي الحرة و هي صحراء حجرة (شظايا كبيرة من الصوان و الكلس) و لكن عبورها لا يستغرق أكثر من ثلاث ساعات كاملة.

و مباشرة بعد ذلك سرنا إلى أراضي صواب Souwab .

في الساعة الثالثة و النصف و في الرابعة و الثلث و في الرابعة و 35 دقيقة اجتزت على التوالي ثلاثة روافد صغيرة لشعيب صويب تنبثق من هنا و تجري إلى الشمال لتصب في وادي صواب.

شعيبات صويب الثلاثة هي جداول لا يتجاوز عرضها من 6 إلى 8 امتار و تبلغ ضفافها 30 سنتيمترا.

و قال لي رجالي أن وادي صواب يجري في الفرات بين الدير و وادي حوران و لكن لم يستطع أحد منهم أن يحدد لي النقطة و لا حتى أن يفيدني بوجودها فوق أو من خريطة الفرات الجميلة التي وضعها IVتحت عانا. إلا أنني رأيت على الورقة الكولونيل تشسني، فيما كنت أتفحصها، و التي تبين مجرى النهر بين أبو سيدة و وردي، بانه صادف في الصحراء لدى عودته من جولته، على بعد 36 ميلا [1] شمالا- 78 درجة . Souwabخط عرض شمال وادي صواب . L .M)34 29 4 ") غربا من وردي

مع هذه النقطة المرجعية، و بالاستناد إلى شكل الأرض قرب الفرات في هذه المنطقة، استطيع ان اؤكد أن مصب هذا الوادي في الفرات يقع ما بين 55 34 و 45 34 من خط العرض الشمالي، أي إلى جنوب دير الواقعة على الدرجةمن 35 20 7 " خط العرض الشمالي. و بالطبع يحق لنا التعجب من عدم ملاحظة حملة الكولونيل تشسني هذا المصب في التقويم الدقيق جدا لمجرى الفرات.

الصخور الطاغية في منطقة صواب هي الصوان و الكلس الأحمر. العيّنة المستخرجة من مجرى الوادي هي طمي يحمل الكثير من كلس يميل إلى الحمرة قد يكون ناجما عن تفتت الكلس الأحمر.

في 15 كانون الأول، تابعنا سيرنا إلى الشمال،- 80 درجة غربا. بعد ميلين تركنا و مباشرة بعد ذلك سرنا إلى الشمال،- 25 El Oualegأرض صواب لندخل أرض الوالج درجة غربا. كان يقصد من هذا التوغل إلى الشمال الالتفاف حول منطقة بركانية إلى جنوب طريقنا و يشكل اجتيازها صعوبة قصوى.

أمضينا قرابة ست ساعات لنصل إلى نهاية أرض الوالج و دخول أرض خويمة التي لا يميزها شيء عن الأرض السابقة. و يستمر مظهر العري إياه و الغياب الكلي لأي نباتات.

و الأرض مغطاة بشظايا الصوان التي تبدو مطلية لشدة لمعانها في الشمس. تشبه Ouelmaهذه الصحراء تلك الممتدة إلى شرق الجوف بين هذه البلدة و صحراء و لما إلا ان حجارة الوالج و خويمة أكبر حجما.

في الوالج استأنفنا رحلتنا باتجاه الغرب.

---

(1) الميل الانكليزي يساوي 1609 أمتار.

.و قادتنا مسيرة ليلية إلى نهاية أرض خويمة و بداية أرض شعلان

في السابعة و النصف كنا شهود ظاهرة شهابية غريبة. فقد ظهر نيزك رائع قطره ظاهريا طول قطر برتقاله كبيرة، كرة نارية حقيقية، قرب ألفا النسر و اجتازت الفضاء في الجنوب و مرت على أوريون و اختفت وراءنا إلى اليسار و قد أضاءتنا خلال سبع إلى ثماني ثوان بنور ساطع شبيه بنور بؤرة كهربائية. و بعد خمسين ثانية بلغنا صوت .انفجار شبيه بإطلاق عدة مدافع

و كان زيد، أحد رجالي، يصيح طيلة مدة الظاهرة بأعلى صوته و بنبرة تنم عن هلع كبير:" الله اكبر! الله اكبر! السلام على سيدنا محمد!" و كرر هذه الجملة عشر مرات ثم قال لنا أن هذه العلامة تنذر بنهاية سيئة لرحلتنا." أليس كذلك يا بيه؟" قالها متوجها إليّ. و أجبته" نعم لو كان هذا قد حصل في بداية رحلتنا، أما الآن فهذا الأمر لا يعنينا. وا أسفاه على الذين رأوا هذه الإشارة و سيصرون على بدء رحلة غدا". لكن .شرحي لم يطمئنه إلا جزئيا

في صباح اليوم التالي، حددت من مخيمنا الجبال الصغيرة التالية:- الغاب على مسافة عشرة أميال تقريبا شمالا،- 45 درجة غربا.- شعلان على مسافة ثلاثة أميال تقريبا شمالا،- 80 درجة غربا.- الطنف و الطنيف على مسافة 16 و 18 ميلا تقريبا .جنوبا،- 45 درجة غربا

بالقرب من جبال شعلان و الطنف و الطنيف غديران فإذا كانت الأمطار غزيرة في .الشتاء، يبقى فيها ماء و يتجمع فيها عرب فضان و سبا في الربيع

.استغرق اجتياز أراضي شعلان ساعتين و نصف الساعة

و فورا بعد ذلك بدأت أراضي خور الطنيفات حيث خيّمنا بعد الثالثة عصرا في واد عذب مملوء بالحطب و العلف و من بينها الكثير من النوصي. و بالفعل فقد تبدلت الأرض و المنظر. فقد أعقبت السهول الشاسعة الرتيبة و الجرداء في الحرة و الوالج و خويمات منطقة و عرة من التلال و الوديان. كذلك الأرض لم تعد مغطاة بالشظايا الشبيهة بحجارة البندقية، فقطع الصخر بشكل بحص و كثيرا ما تبدو و كأنها كسرت .كالحجارة المعدّة عندنا لرصف الطرقات المكدمة

في بعض الأحيان أيضا، إنما بنسبة أقل، تكون هذه الحجارة بحجم الدبش عندنا

و يفترض تكوينها في المرو و الكلس البلوري وجودها في جوار بركاني [1].

في الخامسة مساء انطلقنا من جديد لنخيّم في العاشرة في صحراء زرقه كبوت.

منذ مغادرتنا كبيسة و حتى هذا اليوم عانينا كثيرا من البرد. كل صباح تقريبا كان ميزان الحرارة يسجل- 10 درجات تحت الصفر و خلال النهار يصعد الزئبق ليصل بالكاد إلى+ 10 درجات أو+ 12 درجة. قرب الماء كانت متجمدة باستمرار رغم الاحتياط الذي جعلتهم يأخذونه بلفها بالأغطية و على الرغم من بقائها ليل نهار متدلية على جنبات الجمال. و قد اضطررنا مرتين في الصباح لنسير و نحن صيام لعدم تمكننا من تذويب ما يكفي من الماء لإعداد الشاي أو القهوة. زبدتنا السائلة باتت تشبه الرخام و قد أرغمنا على قطع القربة التي تحتويه بالسيف.

و لكن مخاوفنا الكبرى كانت على جمالنا. فهذه الحيوانات المسكينة التي كنا نستخدمها في الليل كسواتر كانت متجمدة و متصلبة في الصباح. و للركوب عليها كنا مجبرين على تركها تنهض أولا لنتسلق بعدئذ ظهرها. و لم نكن نستطيع أن نجعلها تحت الخطى إلا بعد الظهر حيث يكون قد زال جليدها.

في 12 كانون الأول استغرق ساعتين اجتياز صحراء زرقه كبوت التي يعود اسمها إلى الحجارة السوداء البازلتيه التي تغطيها.

فوجدنا أنفسنا عندئذ في صحراء اللقيطة التي لا تتجاوز مساحتها 10 كيلومترات و التي لم نلبث أن عبرناها. تليها مباشرة صحراء الشام.

قرابة الظهر اغتبطنا لرؤية قمة جبل عادة الموجودة في جنوب قريتين و التي حددتها إلى الشمال،- 70 درجة غربا. إنها صديق قديم تعرفت اليه في فترة تجوالي مع الرعاة في صحراء سورية و دليل على أننا نكاد نصل إلى مقصد رحلتنا.

عبرنا صحراء الشام في ساعتين و نصف الساعة لنصل إلى صحراء المراح.

قبل نهاية منطقة الشام بأربعة كيلومترات تقريبا و على مسافة 3 أميال إلى جنوب طريقي، توجد ثلاثة غدران و إلى هنا ينتهي شعيب الشام الصغير الذي يتكون إلى

---

(1) الحث الصواني و الكلس البلوري هي صخور متحولة أي أنها صخور تحولت مادتها أو تبدلت تحت تأثير الحرارة إنما بشروط الضغط التي لا وجود لها على سطح الكرة الأرضية. لذا من المستحسن استعمال تعبير أرض جوفية. [[التحرير]]

الجنوب. و هي تخص و كذلك الأراضي المحيطة الصلب الذين يرتادونها في الربيع عند ما يكون في الغدران ماء.

في المراح حيث تتوقف الصحراء الحجرة، نطأ أرضا نباتية صالحة مكسوة بمراع جيدة. إلا أن ذلولنا لا تأكل إلا من أطراف شفاهها و تتثاءب و هي تنظر إلى الأفق و تترك عروق النباتات التي تمضغها تقع على الأرض. ذلك أن هذه الحيوانات المسكينة عطشى. فهي لم تشرب منذ بئر الملوصة أي منذ 8 كانون الأول في الحادية عشرة ليلا.

و بما أن مؤونتنا من الماء بدأت تنفد أيضا (لم يعد لدينا إلا ما يكفي لوجبة واحدة) اضطررنا إلى تسريع مسيرتنا.

في الثالثة و النصف خيّمنا في صحراء المراح و بعد ساعة و نصف الساعة استأنفنا السير حتى الواحدة من فجر 13 كانون الأول.

بعد استراحة دامت ساعتين انطلقنا في الساعة الثالثة صباحا. في ختام ميلين خرجنا من أراضي المراح لندخل أرض الحيل و فيها واد صغير يحمل الاسم نفسه.

يعقب منطقة الحيل منطقة العيسى El'Aitsa مع وادي سبع أبيار.

يحد العيسى من الغرب مبنى مربع كبير من الحجر المقصوب يدعى قصر صيقل و يشير إلى بداية الأراضي التي تحمل نفس الاسم.

تمتد منطقة صيقل حتى قصر الشام الذي يبعد مسافة ثلاث ساعات و أربعين دقيقة من السير من قصر صيقل.

لدى مغادرتنا قصر الشام قطعنا ثلاثين كيلومترا إضافيا حتى بركة سنبين التي لا تبعد سوى ستة كيلومترات من قرية ضمير التي وصلنا اليها لحسن الحظ في الساعة الخامسة مساء. عادت الأرض حجرة قبل الوصول إلى ضمير ببضعة كيلومترات فقط.

في اليوم التالي في 14 كانون الأول غادرت ضمير في الحادية عشرة صباحا و وصلت إلى دمشق قبل الساعة الخامسة مساء.

ضمير و الطريق المؤدية إلى دمشق معروفتان.

جغرافية إمارة شمّر

منطقة شمالي حائل

تقع حائل، عاصمة الإمارة، عند سفح جبل سمرا.

يتألف وسط حائل اليوم من اثني عشر حيّا أو سوقا و هي:

برزان- لبدة- الجبارة- الجراد- الجديدة- سماح- العبيد- الخنقة- و ربيعة- - سويفلة- الخريم- مفيضة.

سماح و العبيد كانا الأخيرين في الإنشاء. العبيد و كما يشير اسمه يسكنه عبيد سود كليا و يعود للأمير. أطيب المياه هي مياه بئر سماح في حائل. و يبلغ طول المدينة 4 كيلومترات تقريبا من سوق و ربيعة شرقا إلى سوق سماح غربا.

في كل الاسواق الشرقية، المياه قريبة و لكنها مرّة و غير صالحة للشرب.

يبلغ عدد سكان حائل في الحد الاقصى 15000 نسمة.

الوكيد إلى الشمال، 31 درجة شرقا، و على مسافة 14 كيلومترا من حائل. أسست حوالي عام 1835- 150 نسمة.

الجذامية على مسافة 20 كيلومترا إلى الشمال، س 35 درجة شرقا من حائل- 100 نسمة. هذه البلدة موجودة منذ عام 1830.

اللقيطة على مسافة 22 كيلومترا إلى الشمال، 10 درجات شرقا من حائل تعدّ 500 نسمة. أسست في الوقت نفسه مع الجذامية.

أم القلبان، على مسافة 62 كيلومترا إلى الشمال، 32 درجة غربا من حائل، في النفود، 30 نسمة.

قنا، على مسافة 75 كيلومترا إلى الشمال، 47 درجة غربا من حائل، في النفود، 100 نسمة.

طويل، على مسافة 90 كيلومترا إلى الشمال، 74 درجة غربا من حائل في النفود، 120 نسمة.

جبة، على مسافة 130 كيلومترا إلى الشمال- 62 درجة غربا من حائل في النفود، 400 نسمة.

الجوف المسماة فيما مضى دومة الجندل هي مدينة تقع إلى شمال النفود على مسافة 320 كلومترا إلى الشمال، س 25 درجة غربا من جبة. و تتألف من خمسة عشر حيا مجموعا تفصل فيما بينها أسوار. و تعد 12000 نسمة تقريبا. إنها واحة قديمة جدا ترقى إلى القرن السابع قبل الميلاد.

قارا على مسافة 32 كيلومترا إلى الشمال، 70 درجة شرقا من الجوف، تعد 1000 نسمة.

سحارا على مسافة 5 أميال إلى الشمال- الغربي من الجوف تعد 50 نسمة.

حسية على مسافة 7 كيلومترات إلى الشمال، 35 درجة غربي الجوف، تعد 50 نسمة.

جو، على مسافة 21 كيلومترا إلى الشمال- الشرقي للجوف، على طريق سكاكا، فيها آبار و ينابيع. و هي اليوم مهجورة.

مويسن في منتصف الطريق تماما ما بين الجوف و سكاكا و فيها آبار و ينابيع. غير مأهولة اليوم.

البلدات الخمس الأخيرة تعتبر قديمة قدم الجوف نفسها.

سكاكا على مسافة 35 كيلومترا إلى الشمال- الشرقي للجوف، تعدّ 8000 نسمة.

وجدت منذ قرن فقط.

كاف في وادي سرحان، على مسافة 250 كيلومترا إلى الجنوب، 25 درجة شرقي دمشق. مأهولة منذ نصف قرن و تعدّ 90 نسمة. فيها نخيل و استثمار ملح.

أثرا على مسافة 6 أميال شرق- جنوب- شرقي كاف. و هي واحة صغيرة قديمة جدا و لكنها لم تستعد سكانها بعد ما هجرت إلا منذ نصف قرن. فيها مياه ينبوع كما في كاف تعدّ 1550 نسمة.

بقعاء على مسافة 95 كيلومترا إلى الشمال، 66 درجة شرقي حائل. 400 نسمة. إنها مدينة قديمة جدا و محطة في درب الحج العراقي.

تربة، هو قصر بني على الطريق من حائل إلى بغداد قرب الآبار التي تحمل الاسم نفسه مع موقع لبضعة رجال. ليس فيها مزارع. يقع على مسافة يومين من السير إلى الشمال، س 55 درجة شرقي حائل.

الحيانية على مسافة ثلاثة أو أربعة أيام من السير إلى شمالي حائل، في النفود.

إنه قصر مع خمس آبار، تسكنه عائلتان من الصلب، 15 نسمة.

تربية، على مسافة نصف يوم من السير شرقي الحيانية. قصر مع بئرين، 10 نسما

الوصيطا على مسافة ثلاثة كيلومترات إلى الجنوب- الغربي لحائل 50 نسمة.

العقدة، سلسلة و ديان صغيرة تضم عشر قرى صغيرة في جبل أجا و يقع مدخلها الوحيد على بعد اثني عشر كيلومترا إلى الجنوب، 70 درجة غربي حائل. هذه القرى هي:

القني- الويبار- النبيته- الساقة- حصنه- المعا- غضيان- الحايط- رميض- العليا.

مجتمعة تعد 800 نسمة من السكان تقريبا. و جزء منهم رحّل و لا يقيمون في العقدة إلا في فترة إثمار النخيل الذي يملكونه.

قفار التي كانت عاصمة شمّر فيما مضى، لا تزال اليوم مهمة جدا. و هي تمتد على بعد 19 كيلومترا جنوبا، 30 درجة غربي حائل، عند سفح الجبل، بين هذا الجبل و وادي حائل، على طول 4 كيلومترات و لكنها تضم ملكيات كثيرة مهجورة. و هي تتألف من أربع مدن صغيرة منفصلة.

htahedhdA- الخشماية- الحماد- وركدية.

الثلاث الأولى لديها مسجد رئيس. و سكان وركدية الذين ليس لديهم مسجد، يذهبون يوم الجمعة لتأدية صلاة الظهر في سوق الحماد.

عدد السكان المتحدرين من بني تميم 8000 نسمة على الأكثر.

القصر، على بعد 48 كيلومترا جنوبا، 22 درجة غربي حائل. تتألف من ثلاثة أحياء أو أسواق هي:

القبل، مع 40 منزلا

أرشد، مع 60 منزلا

النفيد، مع 35 منزلا

أي المجموع 135 منزلا و قرابة 600 نسمة.

موقق على مسافة 70 كيلومترا تقريبا بطريق مستقيم إلى الجنوب، 60 درجة غربي حائل على المنحدر الغربي لجبل أجا. و يمكن الوصول إليها من حائل في يوم واحد مع ذلول جيّد.

يسكن موقق المؤلفة من عشرة قلبان 520 نسمة تقريبا.

بدع جفيفا على مسافة 6 أميال إلى جنوب موقق و فيها 100 نسمة.

الصفرا على مسافة يومين من السير إلى جنوب- جنوب- شرقي حائل. تعدّ 25 نسمة. ليس فيها نخيل بل زراعات حبوب. الآبار مالحة و مرّة.

عوضة على بعد 80 كيلومترا إلى جنوب حائل و تعد 1000 نسمة (؟).

الحفنة، على مسافة 15 كيلومترا إلى الشمال، 55 درجة شرقي عوضه، 50 نسمة.

الحفينة، على بعد كيلومتر شمال- شرقي الحفنة- 20 نسمة.

سميراء على مسافة 100 كيلومتر تقريبا إلى الجنوب، 10 درجات شرقي حائل.

سميراء لا تملك نخيلا و ليس فيها سوى حقول قمح. المياه الغزيرة جدا على عمق مترين فقط. هذه البلدة القديمة جدا تعد 400 نسمة تقريبا.

المستجدEl Mestagged على مسافة 100 كيلومتر تقريبا إلى الجنوب، 10 درجات غربي حائل. مدينة قديمة جدا و كانت فيما مضى بكثافة سكان قفار. و هي اليوم إحدى محطات قافلة الحجاج الفرس و لم تعد تضم سوى ما بين 700 إلى 800 نسمة على الأكثر.

السليمي، على مسافة 22 كيلومترا جنوب المستجد. و هي قرية صغيرة من ثلاثة قلبان و فيها 30 نسمة. و فيها ايضا خمس عشرة بئرا، واحدة منها فقط فيها ماء عذب أما الباقية فمياهها مالحة. ليس في السليمي إلا القليل من النخيل.

شتوي، على مسافة 12 كيلومترا شمال- شمال- غربي المستجد و على بعد 4 أميال شرقي المحاش. تضم 600 نخلة ترتوي من المياه الجوفية كما في عقدة و تخص عرب الأصلة الذين يأتون أحيانا إلى شتوي في الشتاء ليزرعوا القمح. في الصيف لا يوجدون فيها إلا في فترة إثمار نخيلهم. تقع شتوي قرب جبل صغير يحمل الاسم نفسه.

المحاش، ملكية فيها بئر تقع مياهها على عمق 18 مترا. فيها 50 نخلة، و 6 اشخاص.

الغزالة، على مسافة 8 كيلومترات جنوب- غربي المحاش، تتألف من قليبين و فيها 80 نسمة.

قصير، ثلاثة قلب كبيرة تتباعد فيما بينها من 600 إلى 700 متر مع نخيل و

حقول شعير. أحد القلب الواقع إلى الغرب فيه ماء غير صالح للشرب. الماء العذب يقع على عمق 24 مترا كما هو الحال في المستجد و الغزاله. و فيها 30 نسمة.

غامر، على مسافة 8 كيلومترات إلى الشمال- الغربي للمحاش، عند سفح الجبل

الصغير الذي يحمل الاسم نفسه. لا آبار. الماء في الخزانات أو الغدران. نخيل غامر في الجبل و يرتوي من المياه الجوفية كنخيل عقدة.

غطور [1] (غضور) على مسافة 14 كيلومترا إلى الجنوب، 55 درجة غربي المستجد، فيها 25 نسمة.

على مسافة 50 كيلومترا إلى شمال الحايط. قليب Dheraghrathضراغراط واحد مع 50 نخله و حقول قمح و شعير، تسكنها عائلة حتيم، فيها 8 اشخاص بئر واحدة و الماء على عمق مترين. هذه النقطة وضعت في غير موضعها على الخريطة. أعتقد أنه يجب أن يكون أكثر إلى الجنوب- الشرقي.

الحايط تقع إلى الشمال على الجهة الشرقية من الحرة. واحة قديمة جدا. تتألف اليوم من الأسواق الثلاث الآتية: وادي سعفان- شريف- القصير مع 500 نسمة تقريبا. ثلاثة ينابيع تسقي مزارع النخيل.

الحويط على مسافة 20 ميلا تقريبا إلى جنوب الحايط في الحرة قرب جبل كناة، فيها 70 نسمة.

منطقة غربي حائل الحجاز

تيماء، واحة قديمة جدا على بعد مسيرة ستة أيام غربي حائل، شمال جبل غنيم، 60 قليبا مع سكان يقاربون 1500 نسمة.

العلا، واحة قديمة جدا تقع على مسافة يومين كاملين إلى الجنوب- الغربي لتيماء. العلا خاضعة لأمير شمر منذ 1878. مزارع نخيل جميلة ترويها ينابيع غزيرة. تملك أطلالا لافتة. فيها 1500 نسمة تقريبا.

منطقة شرقي حائل

طابة في جبل سلمى، على مسافة مسيرة يومين إلى جنوب- شرقي حائل، 250 نسمة.

---

(1) على هامش مخطوطة السيد هوبير كتب هذا الاسم بالعربية. يجب إعطاء الإملاء الغربي ب غضور، و معنى هذا الاسم هو" صلصال أخضر و صلب" و الخريطة تحمل" عضفور" Ghredhouar [التحرير]

السبعان إلى الطرف الجنوبي من جبل سلمى و على بعد مسيرة يومين من حائل.

500 نسمة.

فيد، مدينة قديمة جدا و فيما مضى كانت محطة على درب الحج العراقي. تقلص عدد السكان اليوم إلى 250 نسمة. كل الذين يتنقلون بين الجبل و القصيم يمرون عبر فيد.

الكهفة على مسافة 50 كيلومترا تقريبا إلى الشمال، س 65 درجة شرقي فيد. إنها آخر بلدة من إمارة شمّر على طريق القصيم. 200 نسمة.

الغميس، على مسافة 6 كيلومترات إلى جنوب- شرقي الكهفة، 25 نسمة.

أم خشبة، على بعد 10 كيلومترات إلى جنوب- شرقي الكهفة. أطلال.

مراجعة للبلدات و السكان المقيمين في إمارة شمّر

1- 15000 حائل

2- 150 الوصيد

3- 100 الجزامية

4- 500 اللقيطة

5- 30 أم القلبان

6- 100 قنا

7- 120 توية

8- 400 جبة

9- 12000 الجوف

10- 1000 قارا

11- 50 سحارة

12- 50 سحيا

13- جو (غير مأهولة)

14- مويسن (غير مأهولة)

15- 8000 سكاكا

16- 90 كاف

17- 100 أثرا

18- 400 بقعاء

19- 3 تربة

20- 10 الحيانية

21- 10 تربية

22- الوسيطة 50
23- العقدة 800
24- قفار 8000
25- القصر 600
26- موقق 500
27- بدع جفيفا 100
28- الصفرا 25
29- غوطة (1000)
30- الحفنة 50
31- الحفينة 20
32- سميراء 400
33- المستجد 800
34- السليمي 30
35- شتوي (سكان بدو رحل)
36- المحاش 6
37- الغزالة 80
38- قصير 30
39- غامر 18
40- غضور 25
41- ضراغراط 8
42- الحايط 500
43- الحويط 70
44- تيماء 1500

45- 1500 العلا

46- 250 طابة

47- 500 السبعان

48- 250 فيد

49- 200 الكهفة

50- 25 الغميس

51- 0 (أطلال) أم خشبة

55470

مراجعة للبلدات و السكان المقيمين في قصيم [1]

1- 120 قوارة

2- 3000 قصيبا

3- 10 المشكوك

4- 0 (غير مسكونة) الحمودية

5- 100 الرف

6- 2500 عيون

7- 1500 غوطة

8- 250 أوثال

9- 800 القرعا

10- 1000 الشقة

11- 60 الطرفية

12- 600 عين ابن فهيد

13- (سكان بدو رحل) العريف

14- 35 النبقية

15- 5 الرقية

16- 150 روضة

17- 10000 بريدة

18- □) 500 الخب)

19- □) 350 حويلان)

20- □) 200 القصيعة)

21- (غير مسكونة) رويضة

22- صبيح 500 (□)

23- مريديسية 100

24- خطر 400

25- الطعمية 10

26- الشماسية 250

22440

البلدات الآتية من ولاية القصيم تتبع حاليا (1880) لمدينة عنيزه أو هي مستقلة:

العيارية (أطلال)

الوهلان (أطلال)

روضة العوشزية 100

عنيزة 20000

الوادي 500

الروغاني 120

الشبيبية (أطلال)

شنانة 200 (□)

الراس 3000 (□)

المدير المسؤول س. مونوار الأمين العام للجنة المركزية

---

(1) لم أضمّن هذا المقال سوى البلدات الخاضعة حاليا للأمير حسن من بريدة.